سنحات الدمى القصر

في

مطارحات بني العصر

درويش محمد بن أحمد الطالوي الأرتقي الدمشقي

٩٥٠هـ - ١٠١٤هـ

تحقيق

الدكتور محمد مرسي الخولي

عالم الكتب

بيروت

سانحات دمى القصر

في

مطارحات بني العصر

درويش محمد بن أحمد الطالوي الأرتقي الدمشقي

٩٥٠هـ - ١٠١٤هـ

تحقيق

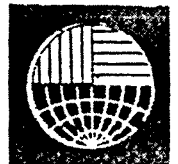
الدكتور محمد مرسي الخولي

الجزء الأول

عالم الكتب

بيروت

الطبعـــة الاولى
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م



بيـروت - المـزرعة بنـاية الايمان - الـطابـق الاول - ص.ب. ٨٧٢٣
تلفـون : ٣٠٦١٦٦ - ٣١٥١٤٢ - ٣١٣٨٥٩ - برقيـاً : نـابعلبكي - تلكـس : ٢٣٣٩٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة المُحَقِّق

هذا الكتاب

يعد نموذجاً فريداً بين كتب التراجم والأدب في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، ذلك أن هذه الفترة قد حظيت بمؤلفين من أعيان العلماء ألفوا الكتب الآتية:

١ - تراجم الأعيان من أبناء الزمان للبوريني (الحسن بن محمد الصفوري الدمشقي) المتوفى سنة ١٠٢٤ هـ، وترجم به علماء عصره.

٢ - ريحانة الألبا، وزهرة الحياة الدنيا، للشهاب الخفاجي (أحمد بن محمد) المُتَوفَّى سنة ١٠٦٩ هـ، وقد ترجم به لعلماء مصر والشام والحجاز في عصره ممن التقى بهم ورآهم أو لم يلتق بهم ولارآهم.

٣ - نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، للمحبي (محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين) المتوفَّى سنة ١١١١ هـ، وقد حذا فيه حذو المحبي في ترجمة العلماء الذين كانوا في عصره، ولكن ليس بقيد رؤيتهم، وعلى هذا فقد أورد ذكر العديد من العلماء وأكمل عمل الخفاجي إذ أن عمله هذا طبع في خمس مجلدات، على حين لم يزد عمل الخفاجي عن مجلدين.

٤ - خلاصة الأثر في تراجم أعيان القرن الحادي عشر، وهو للمحبي أيضاً، وهو عمل قيم، ترجم فيه لأعيان الناس من العلماء أو غيرهم من

القادة أو الرؤساء أو الولاة، وجعله قاصراً على أعيان القرن الحادي عشر، ولم يتعدهم إلى رجال القرن العاشر كالكتاب السابق، وطبع هذا الكتاب في ثلاثة مجلدات.

٥ - ثم يأتي كتابنا هذا مصاحباً لهذه الكتب، كتاب تراجم وأدب لمن عاصرهم المؤلف من القرنين العاشر والحادي عشر، ولكنه يمتاز عنها كلها بما يلي:

أ - أن المؤلف ترجم للعلماء أو الأعيان الذين صاحبهم أو عرفهم عن كثب، ولم يتحدث عن أحد لم يعرفه.

ب - وبناء على هذا الأمر فقد جاء الحديث عن هؤلاء العلماء بطريقة فيها حياة، وفيها من المعلومات عنهم قدر مختلف عما في الكتب الأخرى إما قليلاً وإما كثيراً، ولكنها معلومات جديدة ومفيدة ويمكن أن تضاف إلى تراجمهم في الكتب الأخرى فتزيدهم جلاء ووضوحاً، فضلاً عن تصحيحها لبعض المعلومات التي وردت في كتب الآخرين غير مصححة ولا محصة.

جـ - أن مؤلفنا أبا المعالي الطالوي كان عفّ اللسان، فلم يقع فيما وقع فيه المؤرخون من أمثال البوريني من التعرض لهجاء من ترجموا لهم أو عملوا على إظهار بعض عيوبهم، بل لزم الجانب الطيب فيهم وأبرزه، وقلما تعرض لأحد إلا على سبيل الفكاهة أو التندُّر، أو إلا إذا كان والياً ظالماً، أو حاكماً غشوماً فإنه حينئذ لا يتورع عن هجوه والتعرض له.

كل ذلك في هذا الكتاب لمؤلفه الأديب الشاعر درويش محمد بن أحمد الطالوي الأرتقي الدمشقي الذي عاش في الفترة من سنة ٩٥٠ إلى

١٠١٤ هـ. وسمى كتابه: سانحات دمى القصر في مطارحات بني العصر.

والسانحات جمع سانحة، والسانحة أو السانح من الطير أو الظباء هو ما مرّ من مياسرك إلى ميامنك فولّاك ميامنه، وكانت العرب في زجرها للطير تتيمن به وتمضي قدماً في أسفارها أو قضاء حوائجها متى صادفوا شيئاً منه.

والسانحات هنا ليست سانحات الصحراء من طيور أو ظباء بل هي من دمى القصر، والدمية هي الصورة الممثلة من عاج ونحوه، ويضرب بها المثل في الحسن، فكأن ما أودعه فيه الطالوي من رائع شِعْرِهِ، أو فائق نثره غيدٌ حسان من جميلات القصور، وحسبك برآهن تيمنا وبجمالهن تفاؤلا.

وفي مطارحات بني العصر، أي في الحوار وتبادل الأحاديث أو القصائد معهم فالمطارحة هي التحاور والمناظرة.

هكذا اختار المؤلف هذا العنوان المتأنق، لمضمون كتابه الذي انتقى فيه مجموعة طيبة من أشعاره وترسلاته، وبدأ في وضعها في كتاب عام ٩٨١ هـ، واستمر يضيف إليها ويختار الأجود حتى قبيل وفاته بعام واحد، أي في سنة ١٠١٣ هـ.

تعريف المطارحات ومن ألفوا فيها:

واختياره لكلمة المطارحات اختيار جيد وموفق، فهي تسمية محددة لما كان يفعله الأدباء الناشئون في عصره، من إرسال قصيدة منمقة إلى أحد كبار الأدباء، يفيض عليه فيها من صنوف المديح والثناء، ويرجوه في نهايتها أن يتفضل تكرماً بالرد، ومن هنا فهو قد طرح نفسه عليه.

فإما أن يقبل الأديب الكبير القصيدة فيجيب عليها بأحسن منها فتنتشر القصيدتان ويخطو الأديب الناشيء خطوة نحو الشهرة أو ينكت عن الرد عليها، لأسباب في نفسه فلا يتحقق هذا الرجاء.

ومن أمثلة ذلك ما أرسله الشهاب الخفاجي للطالوي وكان الخفاجي في أول الطريق والطالوي في أوج مجده من قصيدة يرجوه فيها الرد عليها، وهو يعبر عن هذه الواقعة بقوله: ومما كتبته إليه لأستمطر سحائب طبائعه الغُرّ، وأستجدي كرماً من رقيق خُلُقه الحرّ، وأستمرىء منها ماء الحياة على غُلة، قطراتٍ لو وقعت في بحور الأشعار لم يكن بها عِلة، قولي:

ثم يورد قصيدته ورد الطالوي عليها[1].

فهذا مثال مما رُدَّ عليه من القصائد وهو كثير بطبيعة الحال بين الأدباء أو هو النوع الغالب، ومثال ما لم يُرَدَّ عليه (وهو لا يَرِدُ صراحة في الكتب)، ما ذكره الشيخ حسن البوريني صاحب كتاب تراجم الأعيان وأحد الأدباء الكبار في ذلك العصر، من قوله إن الشيخ صلاح الدين الكوراني الحنفي كبير كتاب محكمة حلب أرسل إليه ثلاث قصائد وطلب الإجابة عليها، فرد على واحدة واعتذر عن الباقيتين[2].

وهناك ما يدل على أن الذين كانوا يرسلون القصائد كانوا يعاتبون أصدقاءهم لعدم وصول رَدٍّ إليهم عنها كما حدث عندما أرسل الشيخ إبراهيم الحلبي الشهير بابن الملا قصيدة إلى الشيخ البوريني أيضاً فتأخر

---

(١) ريحانة الألبا: ١/٥٥.
(٢) تراجم الأعيان: ٢/٢٤٣.

عليه البوريني في الرد، فأرسل إليه يعاتبه قائلاً[1]:

سألتُكَ أيها المولى المُهَابُ ... وكان القصدُ منك هو الجوابُ
لنُحيي سُنَّة الأُدباءِ قِدْماً ... ويُفْتَحَ بيننا من ذاك بَابُ
ونَسْقي من رُبا الآداب ما قَدْ ... ذَوَى شُحّاً بـه سَحَّ السَّحابُ
وتَحريك الطباع بِعَذْبِ نظم ... لــه يَحْلُو السَّماعُ ويُستطابُ
فلم ار جَاءَنِي منكم جوابٌ ... فزاد بِيَ الجوى والالتهابُ
فأشبهتُ الصدى قَالاً وحَالاً ... وكنتُ أنا المجيبُ كذا المُجَابُ

فإذن كانت هذه المطارحات من سنن الأدباء في هذا العصر، وما سبقه من عصور قريبة منه، وإذا نظرنا إلى حقيقتها لأدركنا أنها نوع من التقريظ لشخص الأديب وأدبه، وكلما زادت هذه المطارحات بين أديب ما وأدباء عصره دل ذلك على اتساع دائرة معارفه وشهرته وتقدير الأدباء له.

وقد جمع الأدباء في فن المطارحات كتباً أشهرها:

كتاب «لحن السواجع بين البادي والمُراجع»، من تأليف صلاح الدين خليل ابن أيبك الصفدي، المتوفى سنة ٧٦٤ هـ، وقد جمع فيه ما دار بينه وبين فضلاء عصره، من الأئمة الذين يجب أن تكتب محاسنهم، مما بدأ فيه وراجع، وقلد فيه غيره وتابع مِنْ مقطعات شعرية، ورتَّب الأسماء فيه على حروف المعجم، وذكر في كل حرف اسم من كاتَبَهُ.

ويليه كتاب ابن نباتة المصري (جمال الدين أبو بكر محمد بن نباتة)

---

(١) تراجم الأعيان: ١٩/٢.

المتوفى سنة ٧٦٨ هـ، والذي سماه « سجع المطوق »، وجمع فيه ما أنشأه علماء الشام وأدباؤها من المديح والتقريظات لكتابه « مجمع الفرائد » وذكر فيه تراجمهم، ثم أتبع كل ترجمة بنبذة من مكاتباته لصاحبها ومدائحه فيه، ورد صاحبه عليه .

وثمة كتاب مجهول المؤلف يحتوي على نبذ من مطارحات شعراء العصر المملوكي، منهم المولى بدر الدين الدماميني، وفخر الدين بن مكانس، وزين الدين العجَمي، وكلهم ممن نبغوا في القرن الثامن الهجري .

وهذه الكتب في العصر المملوكي، أما كتب العصر التركي في المطارحات فمن بينها:

١ - كتاب « سوانح الأفكار والقرائح، في غرر الأشعار والمدائح » لشمس الدين محمد بن نجم الدين الصالحي الهلالي الدمشقي، المتوفى سنة ١٠١٢ هـ، وكان صديقاً للطالوي، وقد ضمن كتابه قصائد مما دار بينه وبين معاصريه مع تراجم لهم وبعض رسائله النثرية إليهم وردهم عليها

٢ - كتاب الطالوي هذا الذي بين أيدينا.

٣ - كتاب « ألحان الحادي بين المراجع والبادي » لمحمد بن محيي الدين المعروف بالحادي الصيداوي، المتوفى سنة ١٠٤٢ هـ، وقد وضعه على أسلوب ألحان السواجع للصلاح الصفدي.

وهذه أمثلة فحسب لهذا النوع من الكتب، ويستطيع المتتبع أن يجد أمثلة أكثر، هذا فضلاً عن ورود هذا النوع ضمن الكثير من الكتب الأدبية في ذلك العصر، وقد لا تخلو منه كتب التراجم أيضاً.

ما الهدف من هذه المطارحات الأدبية، ولماذا كان يلجأ إليها الأدباء؟

الواقع أن تلك المطارحات كانت تمثل ضرورة لهم في ذلك الوقت، فليس هناك من وسيلة للتعريف بهم أجدى من هذه الوسيلة، فيكفي أن يرد أديب كبير على قصيدة ترسل إليه حتى يكون هذا اعترافاً منه بموهبة صاحبها وجدارته للرد، وغالباً ما تكون القصيدتان في مستوى طيب وتتضمنان الكثير من عبارات المجاملة والتكريم، وسرعان ما تجدان طريقهما إلى ألسنة الرواة فيظفر الأديب الناشيء على أساس ذلك بحظ من الشهرة والتكريم، وهذه الطريقة تحل محل الرواة الذين كانوا قديماً ينقلون قصائد الشعراء وبخاصة ما كانت في مدح خليفة أو أمير ويقومون بإذاعتها.

وقد انتفت آنذاك الطريق إلى قصور الخلفاء والعظماء، كما أن وسائل الإعلام الحديثة من صحف ومجلات وغيرها كانت ما تزال في علم الغيب، فإذن كانت هذه هي الطريقة التي تسد مسدها في مجمع الأدباء، الذين كانوا ينتظرون أمثال هذه القصائد وغيرها مما يقال في مجتمعهم من شعر في مختلف شؤون الحياة، جدها ولهوها ليقوموا بنشره وإذاعته في مجالسهم وتدوينه في مؤلفاتهم.

ودعنا نسأل بعد ذلك، وما هي فائدة ذلك للأديب الذي يجد حظاً من الشهرة عن هذه الطريق؟ ونستطيع أن نجيب على ذلك بداهة بأنه سوف يجد طريقه إلى وظيفة في التدريس أو الفتوى أو غيرها من وظائف الدولة في ذلك العصر، وتكون هذه بداية ينطلق منها إلى ما هو أرفع إذا كانت مواهبه وطموحه يدفعانه إلى ذلك ويؤهلانه له.

وقد سلك مؤلف كتابنا هذا، تلك الطريقة في مبتدأ أمره ومطلع حياته، فطارح أعلام عصره من مثل شيخ الإسلام عماد الدين العمادي مفتي الحنفية في دمشق، أرسل له قصيدتين، فرد الرجل عليهما كليهما رداً طيباً.

كما تطارح هو وشمس الدين بن المنقار الحلبي أحد أعيان العلماء في عصره، وابن نجم الدين الصالحي الأديب الكبير وغيرهم مِمَّنْ سيرد ذكرهم في الكتاب.

وحين وصل هو إلى درجة من الشهرة وذيوع الصيت وجد من يطارحه ببعض القصائد وكأنه يقتضيه ما استسلفه هو من الدهر، وبالطبع فإن ذلك كان من غير قصد ولكنها سنة العصر، ومن ضمن من طارحوه الشهاب الخفاجي وابن العجمي الحلبي والشهاب النعيمي وغيرهم من العلماء الذين اشتهروا ذلك الوقت.

تبقى بعد ذلك كلمة الأدب، هل تعدّ هذه المطارحات من باب الإخوانيات المعروف؟ ونرد على ذلك بالقول إنه يمكن أن يعد هذا النوع من الإخوانيات إلى حَدّ ما، وذلك إذا اعتبرناه علاقة محدودة بين شخصين يحمل كل منهما قدراً من المعرفة أو الود للآخر، ولكن المستقرىء له يدرك أنه غرض مستقل تماماً، تختلف أهدافه التي شرحناها عن أهداف الإخوانيات المعروفة من المودة والشوق والدعوة إلى مجالس الأنس، والمشاركة في السراء والضراء وما إلى ذلك من الموضوعات المعروفة في هذا الغرض.

كتاب الطالوي وموضوعاته:

بالرغم من أن الطالوي سمى كتابه «سانحات دمى القصر في مطارحات بني العصر» فجعل المطارحات أساس كتابه إلا أن الكتاب في الحقيقة لا يتضمن المطارحات وحدها، بل هي تحتل جانباً منه فقط، يمثل ما قاله الطالوي من شعر في مبتدأ أمره، في مدح المشايخ من أعيان دمشق وعلمائها، وأعلام الحركة الأدبية بها مِمَّنْ طارحهم بقصائده فردّ عليه معظمهم بقصائد أشادوا فيها به وقرظوا شعره، ثم حين علا شأنه، نرى في الكتاب عدة قصائد من أدباء طارحوه بشعرهم فرد عليهم الطالوي تحيتهم بأحسن منها، ولكن ذلك ليس كل الكتاب، بل يمكننا أن نقول إن المؤلف قسم كتابه إلى ثلاثة أقسام:

الأول:

تلك المطارحات والمراسلات التي قالها على حد قوله في ريعان الشباب وغشيان بلوغ الأتراب... ثم طرحها في مطارح الصبا، وفرّقها أيادي سبأ، وذلك.. لجفوة الحظ ونبو الدهر.. ثم ساعده على جمعها تولّي أحد موالي الروم واسمه المولى محمد بن بستان قضاء دمشق، الذي أسبغ على الطالوي حمايته ومنحه منصباً استقرّ فيه، وأتاح له بذلك من الوقت وهدوء البال ما جعله يجمع هذه المطارحات والمراسلات، ناظماً ما انتشر من عقودها بيد الشتات، فجمعها تذكرة لمن تذكر، وتبصرة لمن تبصر.

الثاني:

أخبار ونوادر، وأشعار وقصائد، لشيخه أبي الفتح محمد بن عبد السلام المالكي، التونسي مولداً، الدمشقي داراً، وكان الطالوى يجلّ

شيخه هذا وينزله من نفسه منزلة عالية، ولما لم يكن للرجل مصنف معروف فقد كان ما فعله الطالوي بجمعه ما أملاه عليه شيخه من نظمه، في المسائل العلمية واللطائف الأدبية في كتابه هذا بمثابة كتاب له وهو بذلك حفظ لنا أدباً قيّماً مما أنتجته قريحة هذا الرجل الذي كان منزله في دمشق مجمعاً للأدباء، وأدبه وعلمه مورداً سائغاً لكثير من الفضلاء.

الثالث:

ما اتفق له كتابته إلى بعض الموالي ممن له شأن من مشايخ هذا العصر والأوان، بالديار الرومية والشامية والقاهرة، وما سُئل في عمله من مكاتبات ومراسلات على لسان بعض العلماء الأجلاء في أزمنة مختلفة، ووقائع شتى غير مؤتلفة... الخ.

وهذا على حد قوله، والواقع أن هذا الجزء يمثل معظم الكتاب ويعد أيضاً الجزء المهم منه، فهو يمثل العلاقات الشخصية التي ربطت بين المؤلف وبين علماء بلاد الروم حين ذهب إلى الآستانة يبحث له عن مكان بين العلماء في ذلك الوقت، فقد كان لا بد لكي يظفر بهذا أن يكون قريباً من أولي الأمر في عاصمة الدولة العلية.

ولقد تبوأ الطالوي عدة مناصب في الآستانة في مدارسها ومحاكمها، ولكن طريق الوصول إلى هذه المناصب لم يكن سهلاً ولا مفروشاً بالورود، بل اقتضاه بذل العناء والجهد في التعريف بنفسه عن طريق أدبه وقصائده التي كان يمدح بها علماء الدولة وأمراءها، ممن كان بيدهم أن يعينوه في تلك المناصب، وخصوصاً المفتي الأكبر الشيخ سعد الدين ابن حسن جان التبريزي شيخ الإسلام ومعلم السلطان مراد، ثم ابنيه أسعد ومحمد، وقد مدحها المؤلف بقصائد كثيرة.

ثم إن الطالوي في كتابه هذا لم يكن منفصلاً عن عصره فقد سجل الكثير من الأحداث التي وقعت في بلاد الشام وبلاد الروم، ولكن ليس على طريقة المؤرخ، بل على طريقة الأديب الذي يمدح أو يذم أو يشكو، وهي طريقة مهمة جداً تكمل عمل المؤرخ وتواكبه، بل إنني أُؤْمِنُ بأنه لدراسة عصر من العصور لا بد أن يصاحب ذلك دراسة ما قاله الأدباء والشعراء في كتبهم لنظفر بصورة متكاملة لذلك العصر، وقد أودع المؤلف في كتابه هذا كثيراً من المعلومات التي تفيد حقاً في هذه الناحية، وفي نشر هذا الكتاب ما يعتبر خطوة إلى الأمام في سبيل نشر النصوص التي تتعلق بتاريخ مصر والشام في هذه الفترة، والتي ما زال الكثير منها ينتظر النشر.

المـؤلِّف

من ترجموا له

ترجم للطالوي اثنان من الذين عاصروه، هما الشيخ حسن البوريني في كتابه «تراجم الأعيان»[1]، والشهاب الخفاجي في كتابه «ريحانة الألبا»[2]، والترجمة الأولى فيها بعض التحامل على الرجل، فقد كان له معاصراً، ويبدو أنهما كانا متنافسين على المنزلة العالية بين معاصريهما، وقد أتاح هذا التنافس لعناصر الوشاة أن تندسّ بينهما وأن تفسد صداقتهما في بعض الأحيان مما جعل البوريني ينحو على زميله باللائمة ويصفه بعبارات فيها الكثير من القسوة فيما يتعلق بمعاملته للناس وتكبره عليهم وعدم اكتساب ودهم.

أما في جانبه الأدبي فلم يستطع أو قُل لم تتح له، موهبة الرجل ومقدرته الفنية العالية إلا أن يعترف ويشيد بها كلما أورد له شيئاً من شعره.

أما الترجمة الثانية فهي عبارات مسجوعة على طريقة الشهاب الخفاجي في كتابه «الريحانة» وهي تكاد تخلو إلاّ من بعض معلومات

---

(١) الجزء الثاني من صفحة: ٢٠١ إلى ٢٢١.

(٢) الجزء الأول من صفحة: ٥٣ إلى ٧٧.

قليلة مكررة عن الرجل، غير أنها ترمز بعباراتها الفخمة وألفاظها المنتقاة إلى تكريم بالغ للطالوي، بل حب شديد له، وهو يصفه بأنه شامة الشام، ويبالغ في تعظيم شأنه، ويضرب المثل بمقدرته اللفظية التي فاقت مقدرة الحريري صاحب المقامات، بقصيدة له استعمل فيها لفظ (الغرب) بما لم يستطع الحريري أن يأتي به.

وقد يرجع هذا الحب إلى الظروف التي تقابل فيها الرجلان في عاصمة الدولة العلية، فقد كان الشهاب الخفاجي في مقتبل عمره، غريباً في عاصمة كبيرة تزخر بالعلماء الأعلام والطالوي يمثل مكانة طيبة بين هؤلاء العلماء، وحين يلجأ إليه الخفاجي يجد فيه صدراً رحباً وخلقاً سمحاً، يرحب به ويصادقه في مودة وألفة، وحين يطارحه الشهاب بقصيدة يرد عليه الطالوي بأحسن منها، وهذا كله شيء عظيم يترك في نفس الخفاجي أعظم الأثر، ويكشف عن سبب تقديره للرجل وإعزازه له أكثر من غيره ممن ترجموا له.

تأتي بعد ذلك ترجمتان لرجلين غير معاصرين للطالوي، أولهما المحبي صاحب «خلاصة الأثر»[1] المتوفى في سنة ١١١١ هـ، وهي ترجمة عظيمة حقاً، فقد كان المحبي مؤرخاً عظيماً وأديباً كبيراً، وقد ذكر الجانب التاريخي للرجل في إفاضة وفي موضوعية شديدة، ثم ذكر الجانب الأدبي مبيناً نواحي الجمال في أدبه، وما أخذه من معاني غيره، وما برع هو فيه.

والآخر شمس الدين الغزي صاحب ديوان الإسلام[2]، والمتوفى سنة

---

(١) الجزء الثاني من صفحة ١٤٩ إلى ١٥٥.

(٢) ورقة ٥٥ ب.

١١٦٧ هـ وهي ترجمة مختصرة لا تخرج عما ورد في الكتب السابقة.

نسبه ونشأته

هو درويش محمد بن محمد أو أحمد، وكلمة درويش تعني بالفارسية المتعبد أو الراهب، وأصل معناه قدام الباب[١]، ولكن الكلمة في عُرفنا اليوم تطلق على بعض رجال الطرق الصوفية ممن وصلوا إلى درجة الجذب فتركوا الدنيا وساروا في طريق الله، وهي درجة عالية عند الصوفية.

وكلمة درويش محمد قد تعني خادم محمد وربما يقترب معناها من عبد النبي أو عبد الرسول وإن كانت أخف منهما معنى.

وقد اشتهر هذا الاسم في ذلك الوقت، سمي به عدة رجال في عهد صاحبنا الطالوي منهم درويش محمد باشا الجركسي الوزير الأعظم، الذي تولى الصدارة العظمى من عام ٩٦٣ هـ إلى عام ٩٦٥ هـ، وكان قبل ذلك والياً على الشام عام ٩٤٥ هـ، فلعله أن يكون ولد في ولاية ذلك الوالي فسمي باسمه تيمناً بأن يبلغ مبلغه[٢].

وهناك المولى درويش محمد قاضي القدس، ثم قاضي مصر، ويعرف بجبار زاده وكان مشهوراً بالعلم والعمل لا سيما فقه الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله عنه[٣]. وبعض المؤرخين يسميه درويش بن محمد وهو خطأ صحته ما ذكرنا.

---

(١) أنظر الكلمات الفارسية المعربة لأدى شير الكلداني ٣٢.
(٢) خلاصة الأثر ١٥٧/٢.
(٣) تراجم الأعيان ١٩٨/٢.

أما والده فقيل إن اسمه محمد، وقيل اسمه أحمد، ولا يعرف له نسب بعد ذلك، أما نسبته وهي الطالوي الأرتقي فهي نسبة إلى أمه التي كانت سيدة كريمة المحتد، إذ هي عتقاء بنت الأمير علي بن طالو الأرتقى[1] فنسب إليها وكان شديد الفخر بهذا النسب، وقد تزوجت بأبيه الذي كان رجلاً تركياً ورد إلى الشام في حاشية السلطان سليم الأول خادماً لبعض أتباعه، وحينما انتصر السلطان انتصاره المعروف على قانصوه الغوري في موقعة مرج دابق، منح ذلك الرجل إقطاعاً في دمشق على مال يؤديه.

---

(١) كان بنو أرتق يتولون حكم عدة بلاد وحصون تقع في الجزيرة الفراتية التي هي بين دجلة والفرات والتي تشمل على ديار مضر وديار بكر مجاورة الشام، وقد تولى الحكم منهم ثلاثة أفرع:

١ - فرع بحصن كيفا وآمد:

وقد بدأ هذا الفرع بمعين الدين سقمان الأول بن أرتق سنة ٤٩٥ هـ، ثم توالى على الحكم تسعة ملوك آخرهم الملك المسعود الذي عزله الكامل محمد الثاني بن المظفر غازي صاحب ميافارقين المجاورة سنة ٦٢٩ هـ.

٢ - فرع بخرتبرت:

أولهم عماد الدين أبو بكر بن قرا أرسلان سنة ٥٨١ هـ، ثم توالى أربعة ملوك آخرهم نور الدين أرتق شاه بن الملك المعز سنة ٦٦٠ هـ.

٣ - فرع بماردين:

بدأ بنجم الدين إيلغاز الأول بن أرتق سنة ٥٠٠ هـ، وتوالى منهم ١٧ ملكاً آخرهم الملك الصالح شهاب الدين أحمد بن داود، ثم فتحها آل قراقيونلو سنة ٨١١ هـ.

أنظر معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في الإسلام ٣٤٤، ٣٤٥، وأنظر معجم البلدان في المواضع التي ذكرت فيها البلدان السالفة الذكر.

فأتاح له ذلك معيشة طيبة سمحت له بأن يتزوج هذه الزيجة الكريمة التي أثمرت له في عام ٩٥٠ هـ ابنه درويش محمد.

على أن الرجل على ما يبدو عاش عيشة مترفة فانكسر عليه المال الذي كان ملزماً بأدائه، ويبدو أنه كان مالاً جليلاً إذ نراه بعدها يفر من دمشق كلها، ويترك أسرته إلى حيث لا يدري أحد.

وهذا أمر عجيب، فرجل عاش في دمشق منذ عام ٩٢٢ حتى عام ٩٥٠ أي ما يقرب من ثلاثين عاماً، وهي الفترة التي بين حدوث موقعة مرج دابق وولادة ابنه، يفر هارباً منها تاركاً أسرته، لا بد أن يكون أمراً شديداً هذا الذي بهظه، وقد يكون هذا الأمر هو المصادرة أو الحبس أو إيذاء أسرته، فلم ير أمامه بُدًّا من الفرار.

ويبدو أنه أحسن فعلاً في ذلك، إذ نرى القائمين على الأمر لم يصادروا الأسرة المنكوبة بعد فرار عائلها، بل إنهم يتركون للصغير حصة يسيرة من إقطاع والده بُلغة تساعده على العيش، ولكنها بلغة طفيفة سرعان ما يتنازل عنها لما كان يجد في اقتضائها من مشقة وعسر.

يتجه الصبي بعد ذلك إلى تعلم صناعة السروج، ولكنه ما يكاد يقطع في ذلك مرحلة حتى يقيض الله له عالماً جليلاً هو شيخ الإسلام الشهاب الغزي الذي يلمس في الغلام ذكاءً حادًّا وفهماً ثاقباً جعله يعرض عليه أن يتجه إلى العلم ويحببه إليه ويرغبه فيه، فيترك الغلام صنعة السروج، ويتجه إلى حلقات العلم ينهل من معينها.

شيوخه

ويذكر المحبي شيوخه الذين تلقى عليهم بقوله[1] إنه صحب العلامة أبا الفتح محمد المالكي فقرأ عليه الأدب والرياضي والمنطق والحكمة والتصوف وغيرها، ولزمه مدة مديدة. ثم يذكر أنه أخذ على جماعة من فضلاء العجم الواردين على دمشق، منهم المولى محمد بن حسن المغاني - وذلك حين أنزله في مدرسة جده لأمه الأمير علي بن طالو وقرأ عليه حاشية المطالع ومنلا زادة في الحكمة وغير ذلك.

وأخذ التصوف عن منلا غياث الدين الشهير بمير مخدوم اللألائى التبريزي، قرأ عليه بدمشق مقدمات الفصوص للشيخ داود القصيري، وشرح الرباعيات للمولى عبد الرحمن الجامي.

وأخذ عن الشيخ سراج الدين التبريزي نزيل مكة المشرفة، وصحبه برهة لما قدم من مكة إلى دمشق في سنة اثنتين وسبعين وتسعمائة.

وأخذ خرقة التصوف عن الشيخ محمد الناشري نزيل المدينة المنورة وإمام مسجد قبا.

ثم قرأ الفقه بعد وفاة شيخه أبي الفتح (عام ٩٧٥ هـ) على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه على الشيخ نجم الدين محمد البهنسي خطيب دمشق ومفتيها، والمعاني والبيان على العماد الحنفي.

وحضر مجالس التفسير على الشيخ بدر الدين الغزي في تفسيره بالمدرسة التقوية وبالجامع الأموي.

---

(١) خلاصة الأثر ١٤٩/٢.

مع ملازمة ولده شهاب الدين أحمد (ت سنة ٩٨٣ هـ) وهو الذي أشار عليه بالتعلم، وقد عرف الشهاب إلى جانب علمه الغزير بالفضل وحسن الخلق، كان جواداً كريماً حليماً، يؤثر إخوانه، ويوقر أقرانه، تنجذب إليه القلوب، وترتاح إليه الأرواح، وتنشرح لجمال طلعته الصدور، وأجمع الناس على محبته واعتقاده، وتقديمه واعتياده، ورجاء بركته وطلب الدعاء، ومن هنا جاءت ملازمة الطالوي له، وقد أشار عليه الغزي بأن يترك زي الجند الذي كان يرتديه أبناء الأتراك من أمثاله ويرتدي زي العلماء.

وفي الفترة التي كان الطالوي يتلقى فيها تعليمه، كان يحتل اهتمامه جانب آخر من المعرفة وهو التصوف، فتعلق بكلام الشيخ محيي الدين ابن عربي، وشرع يكتب الكلام الموزون، وذاق لذة العلم عن هذا الطريق ويبدو أن تأثره بالتصوف كان كبيراً في مظهره وتصرفاته، إذ يصفه البوريني آنذاك بقوله: فتاه في بيداء أهل الهوى، وصار في طريق الغرام من أرباب الجوى، وكان صوته يجرح الفؤاد، ويهيم بالعاشقين في كل واد.

وهذه جمل من تعابير الصوفية وألفاظهم التي يستعملونها حينما يفيض بهم الوجد وتطير بهم أصوات المنشدين في حلقات الذكر والسماع إلى آفاق علوية ينفكون معها من أسر الأجساد الترابية إلى الآفاق الروحية العلوية.

ولكننا لا نرى هذا التأثير الصوفي واضحاً في كتابنا هذا، اللهم إلا بعض الإشارات التي يضمنها بعض قصائده، والتي تدل على دراية بالتصوف، ولكن لا على استغراق فيه.

حياته العملية

إن أول منصب تولاه الطالوي كان هو التدريس بالمدرسة الخاتونية بدمشق، ويبدو أن ذلك كان بعد اتصاله بقاضي دمشق المولى محمد بن إلياس المعروف بجوي زادة ومدحه له، وكان ذلك سنة ٩٧٦ هـ.

ومن المفيد هنا أن نعرف بعض الحقائق بصدد المؤلف.

أولاً: إن الطالوي كان يؤرخ معظم قصائده الكبيرة التي ذكرها في كتابه هذا، ويغفل ما عداها من المقطعات الصغيرة وما يرى أنه لا يستأهل تاريخاً؛ لكونه يتضمن فكاهة أو وصفاً لمجلس أنس أو نحو ذلك، ولا ريب أن تاريخ القصائد يفيد المؤرخ في تراجم الأشخاص الذين مدحهم، ويفيد في معرفة حياة الطالوي نفسه وأين كان في تلك السنة التي ذكرها، ثم يفيد في دراسة تطور شعره منذ أن كان شاباً حتى استوى أديباً كبيراً متمكناً.

ثانياً: وبقدر ما حرص الطالوي على تاريخ قصائده، بقدر ما أغفل ذكر الوظائف التي شغلها، فلم يذكر ذلك إلا لماماً، وكأن ذكره ذلك من باب الافتخار بالنفس الذي يجب أن ينأى عنه الكريم.

ولكن ذلك في الواقع جعلنا لا ندري شيئاً عن المناصب التي تولاها، اللهم إلا بعض الوظائف التي ذكرها عَرَضاً أو ذكرها المؤرخون عنه، مما دعانا إلى أن نستنتج فترات عمله وفترات تعطله يساعدنا على ذلك أن المؤلف كان يكف في الجملة عن قول الشعر في فترات عمله، ولما كان هذا الشيء غريباً ولا يكاد يصدق إذ أن الشاعر يقول الشعر بنفسه لا بوظيفته، لهذا فإنه يمكننا أن نستعمل عبارة أخرى وهي أن الطالوي لم

يسجل شعره في فترات عمله في كتابه هذا، ثم نراه حين يتعطل عن العمل يقوم بتسجيل ما يقوله.

ثالثاً: إن وسيلة التوظف في تلك الفترة كانت تقوم على ملازمة أحد موالي الروم من القضاة أو المدرسين (والمدرسون هنا يقصد بهم القيمون على المدارس، فحينا يقال فلان أعطي مدرسة فلان باشا أو المدرسة الفلانية، أي أنه أعطي النظارة عليها). وهؤلاء القضاة أو المدرسون هم الذين كانوا يعطون ملازميهم الوظائف[١].

كيف كان هؤلاء يختارون ملازميهم؟ إننا نعتقد أن ذلك كان يتم على أساس اختيارهم من الأشخاص المعروفين في الأوساط العلمية بالكفاءة أو الموهبة، أو من الشباب الذين يظهرون نجابة وتقدماً في العلم وتلقي الدروس، وكانت وظيفة «المعيد» معروفة جداً في المدارس في العصر التركي، ومعناها يقرب من معنى الوظيفة المعروفة في هذه الأيام بمعنى أنه يساعد الأستاذ في تدريس مادته التي يلقيها[٢].

وبطبيعة الحال فقد كانت الوساطة تتدخل كثيراً في تعيين بعض الأشخاص في وظائفهم، وكانت هذه الوساطة في محلها أحياناً وفي غير محلها في أحيان أخرى.

والغالب أن الشخص كان يعتمد على نفسه في التقرب إلى العلماء والكبراء وتعريفهم بنفسه، فإذا كانت لديه دراية بالعلم وفهم له، أو

---

(١) أنظر تراجم الأعيان ٢/٢ + ٢، وأنظر الشقائق النعمانيه في علماء الدولة العثمانية في معظم التراجم.

(٢) أنظر أيضاً الشقائق النعمانية في العديد من المواضع.

موهبة في قول الشعر وإجادته لقي من أوساط العلماء ما يستحقه على قدر علمه وموهبته.

وكثيراً ما كنت ترى بعض الصور الهزلية في هذا التقرب إلى ذوي الفضل من الناس، فإن البوريني[1] يقص أن قاضياً (تركياً بطبيعة الحال) ورد إلى دمشق، وهو يعرف شعر اللسان العربي وشاع ذلك عنه فمدحه من يعرف الشعر العربي بدمشق، فاتفق أن من لا يشعر بالشعر تصنع وتكلف نظم الشعر وإن لم يكن عارفاً به، وصدر في ذلك عجائب وغرائب، ولعل أغربها محاولة من يدعى الحسين بن عبد النبي الذي كان إماماً بالمسجد الأموي في مدح القاضي المذكور، فقد نظم قصيدة غريبة منها:

محـــــــــــد قرم حشد   محـــدث خـــدل خـــبر
مطهر حـــدث خـــدن   مصـــدر الحـــكم مسبـــار

* * *

سطـــاع سعـــدك سلـــع   سماك سمحـــــــك سرح
سكـــــــات سرك سهم   سماط سجلـــك مـــدرار

وهي قصيدة عرفت بالقرمحشدية وظلت مصدر فكاهة في دمشق لفترة طويلة، وقد شرحها البوريني شرحاً مسهباً يمتلىء بالسخرية والهزء في كتابه تراجم الأعيان[2].

---

(١) تراجم الأعيان ٢/١٧٨.

(٢) أنظر الجزء الثاني الصفحات من ١٧٨ إلى ١٩٤.

على أن هذا مثال نضربه فحسب لنبرز أن الشعراء والأدباء كانوا يتبارون في إظهار مواهبهم الشعرية والأدبية، كما يدل أيضاً على أن الولاة كانوا يرحبون بأمثال هذه المحاولات لمدحهم والإشادة بهم، فإذا كانت القصائد جيدة سارت بذكرهم وفضلهم واستحق قائلوها صنوف التكريم.

عود إلى الطالوي

وبالنسبة للطالوي فقد التصق في مبدأ أمره - على حد قول البوريني - ببعض موالي الروم، وبحث معه عن طريق المنطوق والمفهوم، وناب عنه في محكمة ميدان الحصا[1].

ونحن نعتقد أن هذا المولى هو محمد بن إلياس المعروف بجوى زاده، وقد تولى قضاء دمشق عام ٩٧٦ هـ وكان من أفضل القضاة على الإطلاق، وقد مدحه الطالوي بقصيدة طويلة، يصفها بأنها أول ما انبعث عن الجنان، ونطق به هديل اللسان، ومطلعها:

أطيبٌ سرى وهناً فأحيا متيماً ... أم الروض بكاه الحيا فتبسما

ومنها في مدحه:

فيا أوحد الدنيا ويا عالماً غدا ... له الفخر والشيخ الرئيس مسلماً

ومن عَدْلُهُ قد شاع في كل موطن ... فأنجد في قطر البلاد وأتْهما

قصدت ذُرا عُلياك فالدهر قد جنى ... عليَّ ومالي غير بابك منتمى

---

(١) تراجم الأعيان ٢/٢٠٢، وميدان الحصا: محلة كبيرة قرب دمشق.

وتبلغ عدتها ستة وعشرين بيتاً، وهي قصيدة جيدة السبك، ويبعد أن تكون هذه أول محاولة يقوم بها في نظم الشعر كما يقول وإلا لكان نابغة آخر كنابغة بني ذبيان.

وعلى أي حال فقد أسعدت الرجل فحقق للطالوي ما كان يرجوه من منصب، وهذا المولى وإن كان قد ترك دمشق بعد عام واحد، إلا أن الطالوي ظل على علاقة طيبة به ومدحه بعد ذلك بعدة قصائد وهو ببلاد الروم.

ويذكر المحبي أن الطالوي قد تولى التدريس بالمدرسة الخاتونية داخل دمشق في مطلع شبابه أيضاً، فلعل ذلك أن يكون بوساطة المولى عبد الحليم أخي زادة قاضي العسكر بدمشق، والذي مدحه الطالوي في تلك الفترة وأشاد به.

مطارحاته وصلاته الشخصية

من هذه المناصب الصغيرة التي أحتلها الطالوي في مبدأ حياته، أخذ يتطلع إلى التعرف بعلماء عصره ومحاولة ربط صداقة بينه وبينهم، وقد سلك لذلك طريق المطارحات الشعرية، فتراه في هذه الفترة من عام ٩٧٦إلى عام ٩٨١ هـ يرسل بقصيدة إلى الشيخ عماد الدين العمادي مفتي الحنفية في دمشق ومدرس الناصرية الجوانية بها، يمدحه بها ويطلب الجواب ومطلعها:

عهد السرور وريعان الهوى النضر سقاك عهد الحيا رقراق منحدر

فيرد عليه العمادي بقصيدة مطلعها:

أَحَلْيُ حوراء أم عِقْـد من الدُّرَر أم زاهر الزَّهْرِ أم زاهٍ من الزُّهْرِ

وكلا القصيدتين من رائق الشعر وأحلاه.

ثم يرسل بقصائد على هذا النمط إلى مشاهير الأدباء في دمشق مثل شمس الدين ابن المنقار مدرس المدرسة القصاعية وأحد الشعراء المشهورين، والأديب شمس الدين بن نجم الدين الصالحي، والشيخ شهاب الدين النعيمي، وجمال الدين العلموي، والشيخ أبي الصفاء العجمي الحلبي، والشيخ موسى السيوري، وغيرهم، وكل هؤلاء رد على قصيدته بمثلها.

ومن رجال الدولة الرسميين:

قاضي دمشق محمد بن إلياس، وقاضي العسكر علي أفندي قيلي زاده، وقاضي حلب علي أم ولد زاده، وعبد الحليم أخي زاده القاضي بالآستانة، والشيخ علي المحاسبجي بدمشق.

ويتضح من كثرة هذه الصلات ذكاء الطالوي في خلق صداقات له بين العلماء وولاة الأمر، كما تدل على جودة شعره ومستواه الرفيع الذي جعل هؤلاء المشاهير يردون على قصائده ولا يهملونها، بل يفسحون مكاناً له فيما بينهم كما يتضح من أسلوب قصائدهم إليه.

صلته بالشيخ أبي الفتح المالكي التونسي

كانت صلة الطالوي بالشيخ أبي الفتح محمد بن عبد السلام التونسي الربعي المالكي صلة وثيقة جداً إلى الحد الذي دفع به إلى تخصيص جانب من كتابه هذا لما أملاه عليه الشيخ من نخب الأشعار ومنتخب الأحاديث والأخبار... الخ.

وكان الشيخ أبو الفتح علماً من أعلام دمشق علماً وأدباً، وقد تلقى العلم عليه الكثير من أدبائها وعلمائها.

وفد على دمشق شاباً فأحبها كما أحبها الآلاف غيره من العجم والعرب الوافدين عليها، فقرر الإقامة فيها حياته.

حب العلماء لدمشق:

وليسمح لي القارىء الكريم أن أتحدث بهذه المناسبة قليلاً عن دمشق. فهذه المدينة المتلفعة أبداً برداء الجمال والجلال، الرائعة الحسن فما لحسنها أبداً مثال، لا تكاد تزورها حتى تشدك إليها، ولقد كنت أقرأ ما قاله الشعراء فيها من التغني بجمالها، وما وصفها به الأدباء من أنها جنة الأرض بلا خلاف، وأعجب لجموع البشر الذين يتركون أوطانهم ويتخذونها موطناً على ما هو معروف من حب المرء لوطنه.

إلى أن زرت دمشق في عام ١٩٧١ (عضواً في حلقة دراسية عن المخطوطات)، فشدتني إليها للوهلة الأولى، وبعد عدة أيام كنت أتوق إلى مدّ أمد البقاء فيها، أو إذا لم تسمح الظروف في تلك المرة أن أعمل كل ما أستطيع لزيارتها لفترة أطول في المستقبل.

أي شيء شدني إليها هكذا؟ حاولت أن أستوضح الأمر بيني وبين نفسي، أهو عراقة المدينة وطابعها العربي الأصيل والذي يجعلها توأم القاهرة، أم لأنها جنة تجري من تحتها الأنهار، وتمتلىء بأطيب الفواكه وأحلى الثمار أم هي أسماء الأبطال العرب الذين سميت الشوارع بأسمائهم فهم يذكرونك بأنفسهم أينما حللت وحيثما توجهت. ولقد فرض عليَّ هذا أن أسرح بخاطري إلى هؤلاء الأبطال الذين أبلوا في نصرة العروبة

والإسلام أحسن البلاء، وتخيلتهم أمامي بقاماتهم المديدة وجباههم العالية، يدقون الأرض من ثبات وثقة يسيرون بيننا جيئة وذهوباً مذكّرين إيانا بأمجادهم العظيمة التي سطرها لهم التاريخ، وسجل لهم فيها طردهم للغزاة، وسحقهم للمعتدين.

أم هو الإحساس بأن هذه المدينة ثَغْرٌ مَخُوف. كما كان يعتبرها المجاهدون الأقدمون وأنها قطعة عزيزة من نفسك تود لو حرصت عليها وفديتها بأغلى ما تملك؟.

أم هو كرم الضيافة[1]، وما قوبلنا به من ترحاب أحسسنا معه بأننا لم نفارق أهلنا.

أم هو مئات الأشياء الصغيرة التي تترك في نفسك أثراً طيباً، كبائع العطر الهرم السمح الوجه الذي يقابلك عند سوق الحميدية، أو مياه عين الفيجا الرائعة المذاق، أو كلمة «تكرم» التي تسمعها عقب أي طلب تطلبه، ولم أستطع تحديد معناها إلى الآن أو ما يقابلها باللهجة المصرية، كل ذلك ترك في نفسي أجمل الأثر، وأحببته، ولعل هذا أو غيره من المشاعر هو ما جعل الكثيرين من الناس يعشق دمشق، ويقرر الإقامة فيها، ولعلهم لو تكلموا عن مشاعرهم لعبروا عن إحساسهم نحو المدينة العظيمة بأحسن مما عبرت.

هذا وليس صحيحاً ما يقال من أن السبب في ذلك هو تقدير الدمشقيين للعلماء الغرباء بدرجة ربما تزيد على تقديرهم لعلمائهم

---

(١) لا بد أن يذكر المرء في هذا المقام الأخ الكريم الأستاذ العلامة أحمد راتب النفاخ الذي بالغ في الاحتفاء بنا، ثم صديقه الأستاذ عصام البيطار والأستاذ الدكتور شاكر الفحام وأحمد القادري وسهيل زكار وغيرهم من الإخوة الأفاضل.

أنفسهم، فالواقع أن تقديرهم للعلماء الغرباء ليس عيباً يؤخذ عليهم فذلك شيء يسر العلماء ولا يقلل من قدر الدمشقيين، أما كونهم يقدرونهم أكثر من علمائهم فذلك ليس صحيحاً وهو إن صح فهو قدر مشترك بين الشعوب كلها، وقديماً قيل: «لا كرامة لنبي في وطنه، وزامر الحي لا يطرب».

وعلى أي حال فلقد أحببت دمشق لسبب ملأ نفسي لا أكاد أعرفه، برغم قصر المدة التي بقيتها فيها، وبرغم أنني زرت عدة بلاد بعدها، وهذا القدر من التعبير عن إحساسي نحوها يكفي هنا، ولكنه لا يكفي في التعبير عن تقديري لهذه المدينة العظيمة وأهلها الكرام.

ولنعد الآن إلى الشيخ أبي الفتح المالكي التونسي، أحد من عشقوا دمشق ووجدنا في حبه هذا مناسبة لما سطرناه آنفاً.

يذكر المؤرخون[1] عن أبي الفتح أنه كان فقيهاً أصولياً يغني الناس على مذهبه (أي المذهب المالكي)، وفتاويه مقبولة، وله حرمة باسطة ووجاهة ظاهرة، وقد تولى نيابة القضاء بالمحكمة الكبرى زماناً طويلاً، كما تولى التدريس في دار الحديث الأشرفية بدمشق.

وفضلاً عن ذلك فقد كان علامة في النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والعروض والمنطق وأكثر العلوم العقلية والنقلية، وله الباع الطويل في الأدب ونقد الشعر، وكان شعره في غاية الحسن، وقد حمل عنه الناس العلم وانتفعوا به. إلا أنه كان يؤخذ على الشيخ بعض

---

(١) انظر الكواكب السائرة ٢١/٣ وما بعدها، والريحانة ١٧٤/١، وتراجم الأعيان ٢٤٩/١.

المآخذ، مثل كونه على مذاهب الشعراء من التظاهر بمحبة الصور والأشكال الحسنة، حتى رمى واتهم، وكان لا يتحاشى من مخالطة المرد الحسن.

كما أنه كان مغالياً في نصرة القهوة المتخذة من البن غير منكر له، (في الوقت الذي كان فيه بعض العلماء يحرمها)، وله في نصرتها مقاطيع مشهورة، ولطائف غير منكورة.

وليست هذه هي وحدها الاتهامات التي وجهت للشيخ، ولكننا ذكرنا منها ما له صلة بالاختيارات الشعرية التي اختارها له الطالوي وأثبتها في كتابه هذا.

وقد أورد المؤلف للشيخ أبي الفتح جملة وافرة من شعره، ولعله أن يكون هو المصدر الوحيد الذي احتفظ بها، ومن بين هذه المختارات موشح في الإشادة بقهوة البن، يكشف إلى جانب براعة ألفاظه وطرافة وزنه آراء الذين يبيحون قهوة البن أمام المتشددين الذين يذكرون أنها بدعة قبيحة يحرم ارتكابها.

وإلى جانب هذا فهناك عدد من المقطوعات في وصف مجالس الأنس والطرب، والغزل في المرد الحسان، والأخوانيات وقصائد في مدح الولاة والعلماء، وقصائد في وصف حنينه لوطنه وقدر من الطرائف والأخبار الأدبية التي رواها الشيخ وأثبتها الطالوي هنا، باهتمام زائد، واحتفاء كبير.

أما سبب هذا الاحتفاء فلم يقدم لنا الطالوي عنه تفسيراً، ولم يبق إلا أن نقول إنه ارتياح منه إلى شخصية شيخه وإعجاب به، فقد كان الرجل عالماً وأديباً كبيراً تلمذ عليه الكثير من أعلام عصره، وكان ذا

طبيعة هادئة ولين جانب عرفا عنه. ومع ذلك فقد كان رجلاً رقيق الحال، ابتلى بتعاطي الأفيون، وكان ربما هجا بعض الناس أو هجا نفسه، وقد أخذ عليه ذلك فقيل إنه كان يمدح من يعطيه ويهجو من لا يعطيه، وربما كان هذا صحيحاً ولكن الذنب في هذا لا يقع عليه بقدر ما يقع على زمانه وأهله، ويصف الشهاب الخفاجي حاله تلك بقوله: « ..إلا أنه مع تملك جواهر العلوم، وتقلد جيد كماله بعقود المنثور والمنظوم عاداه دهره، وصافاه فقره، فظل يمتري صبابة عيش لو أنها نوم ما شعرت بها الأحداق ويحمل من أثقالها ما يرهق ويوهي القوى والأعناق ».

ورجل هذا شأنه، لن يعدم صديقاً شهماً ينصفه ويصافيه ؛ ويجاريه ويماشيه، فيما كان يميل إليه من المجالس، ويسجل ما كانت تجود به قريحته من طرائف وشعر.

ويذكر النجم الغزي صلة الطالوي بشيخه أبي الفتح فيقول: « وأنبل من تخرج به في الشعر والعربية العلامة درويش بن طالو مفتي الحنفية في دمشق ومدرس السليمانية بها، وسلك طريقته فيما هو فيه، وكان الشيخ أبو الفتح حجته في كل ما يأتيه[1].

وهذا النص يكشف عن عمق العلاقة عن التقدير الذي كان يكنه الطالوي لشيخه.

والواقع أن الطالوي قد يكون مديناً للرجل بالكثير، فهو لم يستفد من علمه فحسب، بل استفاد من الأعلام الذين كانوا يؤمونه ويقصدون مجلسه، وقد مدح الطالوي بعض هؤلاء ومنهم القاضي معروف الصهيوني

(١) الكواكب السائرة ٣/٢٢.

القاضي بجمعية صفد كما مدح ولديه الأمير نجمي وتقي الدين المعروف بالراصد، وكان أعظم فلكي ذلك العصر، وقد أفادته صلاته تلك فائدة كبيرة فيما بعد على ما سنبينه.

لهذا ليس غريباً أن يجعل للشيخ نصيباً في كتابه هذا، بل إنه فعل أكثر من ذلك إذ ألف كتاباً سماه: « هدايا الكلام في أخبار محمد أبي الفتح بن عبد السلام » وهو يحيل القارىء للمختارات التي هنا ويريد الزيادة إلى كتابه المشار إليه.

هذا وقد توفي الشيخ أبو الفتح رحمه الله عام ٩٧٥ هـ، وكان الطالوي آنئذ شاباً في الخامسة والعشرين، ويبدو أنه كان لم يتجه تماماً لقول الشعر، ولهذا فقد نقل ما قاله الشعراء في مراثيه، ولم يقل هو في ذلك شيئاً.

صلته بالمولى محمد بن بستان:

تمثل هذه الصلة جانباً من الحياة العملية للمؤلف، والمولى محمد بن بستان ولي قضاء دمشق عام ٩٨١ هـ، وباشر الأحكام الشرعية بها، وقد عرف بكرم الأخلاق والفضل الزائد والتودد إلى الناس مع المداراة لهم، وعنده معرفة في دربة القضاء[١].

هذا بالنسبة للناس، أما بالنسبة للطالوي فقد كان يمثل شيئاً مهماً جداً في حياته فقد اتصل به ومدحه، وقبله المولى ابن بستان ملازماً له

---

(١) أنظر قضاة دمشق ٣٣٢.

على طريقة علماء الروم وقانونهم وعينه قسّاماً[1]، وعندما انفصل عن قضاء دمشق عام ٩٨٣ هـ أخذه معه إلى القسطنطينية وعينه هناك مدرساً بإحدى المدارس، إلا أن الطالوي لم يلبث أن أحسّ بوحشة إلى دمشق، فسرعان ما نراه فيها مرة ثانية يرتع مع أصحابه، ويدبج قصيدة يرسلها إلى صديق له يصف له فيها مجلس أنس له مع بعض الخلان في موضع يسمى بالنيرب، ومعهم شاب اسمه عبد النبي.

ولكنه يحس بعد ذلك بالندم ويخشى أن تضيع من يده فرصة تَعَرُّفه على ابن بستان فيهرع إلى القسطنطينية ثانية، وبالطبع فإنه يجد إعراضاً متوقعاً من الذين عمل معهم، فيذهب ليمدح شمس باشا المصاحب والي مدينة أسكودار بقصيدة، ثم يمدح ابن بستان وقد تولى قضاء استانبول بقصيدة ثانية، ولكن ذلك لا يجد صداه السريع، ويظل الطالوي متسكعاً بلا عمل حتى العام التالي، وحينئذ يضج بالشكوى، ويطلب من ابن بستان أن يوليه أي عمل حتى ولو كان الإشراف على دار الغنم، ولا ندري إن كان الرجل قد حقق له هذه الرغبة أم لا، ولكننا نراه بعد فترة يعمل بمحكمة داود باشا بالعاصمة نائباً عن ابن بستان، ويتمكن بذلك من العيش فترة تمتد إلى عامين باستامبول.

وكما هي عادة الطالوي فقد راح في تلك الفترة يوثق صلاته برجال الدولة وعلمائها، فنراه يمدح الشيخ صلاح الدين الكوراني الحلبي حين يوليه السلطان قضاء صفد وأرض كنعان.

---

(١) القسام أو ناظر القسمة، هو أحد نواب قاضي عسكر أفندي، ويتولى قسمة المواريث بين الرعية في محكمة القسمة، انظر جدول المصطلحات في كتاب الإدارة في مصر في العصر العثماني.

كما يمدح المولى نصوح المعروف بنوالي، المدرس بإحدى المدارس الثمانية (وهي المدارس التي أنشأها السلطان محمد الفاتح عقب فتحه القسطنطينية).

ولكن هذه الفترة لا تخلو من بعض المنغصات للطالوي، إذ نرى أحدهم يوشي به لدى المولى ابن بستان، ونراه يعتذر عن هذه الوشاية بحرارة شديدة، ويسارع بالتنصل عنها، مظهراً غاية التعجب والاستنكار من تصديق شيء كهذا، أو تصور صدوره عنه، لمن هو ولي نعمته، وصاحب الآلاء الكثيرة عليه.

وقد تكون هذه الوشاية قد أثرت قليلاً في علاقة الرجلين، ولكن زال أثرها بالتأكيد فيما بعد، إذ أن العلاقة بين الطالوي وابن بستان ظلت متصلة دائماً، فهو يلوذ به بين الحين والآخر، مثلما نراه في قصيدته التي أرسلها له في عام ٩٩٤ هـ يهنئه فيها بمنصب قضاء العساكر الروم إيلية، ويرجوه أن يعينه بأحد مناصب التدريس، ثم قصيدة أخرى عام ١٠٠٠ هـ يهنئه فيها بمنصب مفتي السلطنة الرفيع، وفي عام ١٠٠٣ هـ يكتب إليه شاكياً من أن قضاء الركب الشامي الذي كان مسنداً إليه في مرات سابقة حرم منه وأعطي لمن يدعى ابن الحلواني، وآخر قصيدة أرسلها إليه كانت صدر مكاتبة إليه عام ١٠٠٥ هـ، يعظمه فيها ويثني عليه، ثم يشكو إليه ضياعه في دمشق، متعطلاً دون عمل.

وهكذا فإننا يمكن أن نعتبر ابن بستان صديقاً للطالوي وسنداً له وظهيراً يلجأ إليه كلما ألجأته الضرورة، وهي كثيراً ما كانت تفعل في ذلك الزمان العجيب الذي كان الاستقرار فيه بعيداً عن الأفراد على

اختلاف وظائفهم وأعمالهم، مما كان يؤدي بهؤلاء إلى الحرص على هذه الصداقات والاستزادة منها كلما أمكن.

صلته بالمولى سعد الدين التبريزي:

التبريزي هو المولى سعد الدين محمد بن حسن جان التبريزي الأصل القسطنطيني المولد والمنشأ والوفاة ولد سنة

قرأ ودأب، ولزم درس شيخ الإسلام المولى أبي السعود أفندي شيخ الإسلام وصاحب التفسير الشهير، وكان هذا رجلاً عالي المكانة لدى السلاطين حظيًّا عندهم، وقد أعجب المولى أبو السعود بالتبريزي لنجابته وأدبه، فأتاح له التدريس بإحدى المدارس الثماني باستانبول.

ثم اختاره السلطان مراد معلماً لنفسه فأقبلت عليه الدنيا، ولما توفي السلطان مراد أبقاه نجله السلطان محمد معلماً لنفسه أيضاً، ثم ولاه منصب الافتاء، فازدادت مكانته في الدولة، وصار مقصد الناس من كل فج.

يتحدث عنه المحبي في الريحانة بقوله: «كانت أيامه ربيع الأفاضل، وسدته محط رجال الآمال وسابلة المسائل، تُلقى عنده عصا التسيار، وتنزل بحرم سعادته قوافل الأسفار، وقد جمع له من الكمال ما ليس له مثال، وإن ضربت به الأمثال».

وخلاصة القول إن الرجل كان ذا نفوذ عظيم، بحكم صلته بالسلاطين الذين جعلوه معلماً لهم عن اعتقاد وتقدير منهم له، ثم بحكم منصبه الذي هو أعلى منصب ديني في الامبراطورية العثمانية كلها.

---

(١) انظر في ترجمته: ريحانة الألبا ٢١٠.

ولهذا فقد كثر قاصدوه من العلماء والأدباء، الذين كانوا يجدون فيه كنفاً وملاذاً وكان يتيح للمبرزين منهم مناصب الدولة من تدريس وقضاء، أو يرفع أمرهم للسلطان للإنعام عليهم بأنواع التكريم من هبات وعطايا، أو إقطاع أو نظارة على وقف، أو ما شابه ذلك من مناصب الدولة وهي كثيرة.

ولذلك فقد أكثر الشعراء من مدحه، ومنهم الطالوي، وقد نشأت الصلة بين الطالوي وبين المولى سعد الدين التبريزي بدافع الطموح من جانب الطالوي إلى التعرف بذلك المولى الجليل والاحتماء بجاهه وملاذه.

وربما كانت حادثة الوشاية به لدى ابن بستان واضطراره إلى الاعتذار عما قيل في حقه ما دفع به إلى التماس جانب آخر تتوفر فيه الحماية والأمان إذا أعوزت الظروف. أو ربما كان الطالوي قد أحس بكثرة طلباته من ابن بستان، ورغب في ألا يثقل عليه بها، وأن تتوزع هذه الطلبات بينه وبين غيره فتخف مئونتها، ويغلب تحققها.

هذا، وقد تحققت الصلة بينهما بفضل الشيخ تقي الدين الراصد، وهو الذي عرفه عن طريق شيخه محمد بن عبد السلام التونسي، وكان هذا الرجل فلكياً بارعاً ورياضياً كبيراً له مؤلفات عديدة في ذلك، وقد ذكر الذين ترجموا له أنه تولى قضاء نابلس ولكن الرجل كان أهم من ذلك بكثير، فقد كان يسكن بيتاً قرب القصر السلطاني بطوب خانه سراي وقد زاره الطالوي فيه وسهر معه ليلة، وهو يصف منزله بالمنزل الشريف، والمحل السامي المنيف، وكان الرجل ينتوي بناء مرصد ضخم بعاصمة الدولة، كما فعل نصير الدين الطوسي مع ألوغ بك السلجوقي، ولكن لم يقدر لمشروعه هذا النجاح كما كان ينبغي.

إلا أن الراصد بطبيعة الحال كان علماً من أعلام الدولة وصديقاً للمولى سعد الدين بن حسن جان التبريزي، وقد نصح الشيخ تقي الدين صديقه الطالوي بعد أن وثق بمقدرته الشعرية بعمل قصيدة في مدح المولى سعد الدين، فيكتب هذا قصيدة يستعمل فيها ألفاظ صناعة التنجيم مطلعها:

مطالع سعد للسعود مظالع	وشهب العلا من أفقهن طوالع
وأنجم إقبال بأفلاك دولة	بدت من بروج السعد والنسعد طالع

ثم يقول فيها:

لدى سدة الأجيال سدة عالم	إمام لدى أعتابه الفخر خاضع
مليك النهى ماضٍ على الحزم أمره	وليس له نحو المعالي مضارع

إلخ...

وهي قصيدة طنانة، أسبغ فيها على ممدوحه كل صنوف السمو والرفعة بما يليق بمقامه السامي في الدولة، إلا أن هذه القصيدة لم تحدث أثراً كبيراً للوهلة الأولى لدى الرجل الجليل، في منصبه هذا الخطير الذي يفد عليه فيه مئات الشعراء إلاّ أنها كانت مع ذلك فاتحة للتعرف عليه، والقرب من ساحته.

وبعد هذه القصيدة الأولى التي قالها سنة ٩٨٤ هـ، لا نراه يعاود الاتصال به إلا بعد ثلاث سنوات أي في عام ٩٨٧ هـ، وكان وقتها قد فقد وظيفته في دمشق حيث كان يعمل قساماً، فيذهب إلى القسطنطينية ويمدحه بقصيدة طويلة يشكو إليه فيها حاله، ويرجوه أن ينظر إليه بعين إحسان فيقول:

ولقد عطفت ببابه أملي وقد ضاق العطن
وطننته خيراً ذاكراً أنا عند عَبْدِي حيثُ ظن
فهو الذي يُهدي المنى من راحتيه وليس من

وعلى ما نعتقد فقد أثمرت هذه القصيدة وعين الطالوي في إحدى وظائف التدريس.

وثمة عادة قد اعتادها المؤلف في كتابه هنا، فهو حينما يكون في منصب ما لا نراه يسجل شيئاً من شعره، ولذا تمر فترة طويلة قبل أن نراه في عام ٩٩٢ هـ يلجأ إلى القاضي عبد الكريم بن قطب الدين قاضي العسكر بولاية الروم إيلي بقصيدة يطلب فيها منصب التدريس، ولا تؤثر القصيدة أثرها فيلجأ للمولى محمد بن إلياس المعروف بجوي زاده صديقه القديم يستشفع به لدى قاضي العسكر، ولكن هذه الشفاعة أيضاً لا تحدث أثرها.

وحينئذ يلجأ إلى جناب مفتي السلطنة المولى سعد الدين التبريزي فيمدحه بقصيدتين متتاليتين، فينصفه الرجل ويأخذ بيده وذلك بالتعيين بإحدى مدارس العاصمة وتتاح له فرصة التشفي حينئذ من القاضي عبد الكريم بن قطب الدين حين يُعزل ويتولى المولى عوض منصبه، فيرسل إلى عوض هذا بقصيدة يشرح فيها ما فعله فيه القاضي المعزول، وكيف أن الحظ الآن قد أقبل بإقباله، وأدبر النحس بعزل القاضي ابن قطب الدين.

ويمكث الطالوي قريباً من سنتين في منصب التدريس بدار السلطنة السنية، ويزداد قرباً من المولى سعد الدين بن حسن جان التبريزي، ويكل إليه الرجل بعد أن وثق بمقدرته الإنشائية الفائقة أمر الرد على

بعض ما يرد إليه من رسائل فيرد عليها بمقدرة وتمكن.

ثم يجد من نفسه الجرأة على طلب الترقية في وظيفته، والانفصال بمدرسة يكون هو القيم عليها، لأنه على ما يبدو لم يكن قد وصل إلى هذه الدرجة بعد، فيمدحه لذلك بعدة قصائد في غاية البلاغة والتفخيم ولما لم يجد استجابة سريعة يقرر السفر إلى بلده التي طال اشتياقه إليها فيستأذن من التبريزي ويذهب إلى دمشق، ولكن سرعان ما نراه في استامبول ثانية يسلك طريقاً آخر إلى ما يريده، وهو طريق المولى محمد بن بستان فيكتب إليه راجياً منصب التدريس وذلك في غرة رمضان سنة ٩٩٤ هـ، وهو بهذا كأنه لا يريد أن يثقل على المولى سعد الدين التبريزي بمطالبه كلها.

ويتحقق للطالوي ما كان يريد ولا ندري كيف، كما لا ندري الوظيفة التي عين فيها ولكننا نعرف ذلك من إضرابه عن قول الشعر وهي العلامة التي عودنا عليها حينما يعين في أحد الوظائف، ويستمر على ذلك أربع سنوات حتى سنة ٩٩٨ هـ،

وبعد ذلك نرى بعض القصائد الموجهة إلى المولى سعد الدين التبريزي في أغراض مختلفة، واحدة في مدح السلطان مراد مؤرخة في سنة ٩٩٩ هـ، وأخرى في غرة ذي القعدة عام ١٠٠٠ هـ يمدحه فيها بما يدل على تقديره العظيم لذلك الرجل النبيل، ويسأله على استحياء أن لا يغفل عن رعايته وبسط جاهه عليه باعتباره منتسباً إليه فهو مولاه، ومولى القوم منهم قياساً على ما كان يقوله الرسول الكريم «سلمان منا أهل البيت» وهو يكرر هذا المعنى في كثير من القصائد التي أرسلها إليه.

وعلى أي حال فلقد ساعده المولى سعد الدين التبريزي مساعدات عدة، ويبدو ذلك أكثر بعد عودة الطالوي من رحلته إلى مصر وتلقيه على علمائها، وكتابتهم بالتوصية به لدى أولي الأمر في الدولة العلية.

ولقد ظل الطالوي على اتصال بالتبريزي حتى وفاته عام ١٠٠٨ هـ، ثم مدح ولديه محمداً وأسعد، اللذين توليا من بعده، وظل يطلب أن يمنح بعض المناصب، حتى ظفر بمنصب في مدرسة خير الدين باشا في استامبول بأربعين عثمانياً، وكان هذا آخر منصب تولاه في استامبول قبل أن يذهب إلى بلده دمشق فيستقر فيها.

رحلته إلى مصر:

قبل أن نتكلم عن رحلة الطالوي إلى مصر، ينبغي أن نشير إلى ظاهرة قد تكون السبب في هذه الرحلة، وهي كثرة مطالبة الطالوي بواحدة من وظائف التدريس وإلحاحه في ذلك لكل من يمتدحه في شعره.

وهذه ظاهرة تدل على أنه كثير التعطل، فلا يكاد يمكث في عمله عاماً أو عامين حتى يزحزحه عنه آخر ويظفر به، وربما كان ذلك لمدافعة الأتراك للعلماء العرب عن المناصب في الدولة وعدم ترحيبهم بهم، مع أن الطالوي كان والده تركي الأصل، وإن لم ينتسب له صراحة، وفَضّل أن ينتسب لأجداده من أمه الذين كانوا أمراء وملوكاً على الجزيرة الفراتية وكانوا من ذوي النعمة والجاه العريض كما قلنا، وهذا النسب من الجهتين كان يمكن أن يكون شفيعاً له في الوصول إلى ما يريد، إلا أنه كان يعدّ عربيًّا دمشقياً وما أتيح له لهذه الصفة من المناصب كان دون مواهبه وطموحه.

ولهذا فقد قرر الذهاب إلى مصر والتلقي عن علمائها، وكأن هذا يشبه ما يفعله الدارسون في الذهاب إلى بلد معروف بعلمائه لنيل شهادة دراسية تضاف إلى شهاداتهم، ولعل في ذلك ما يرفع من قدره فوق الذين لم يرحلوا مثله هذه الرحلة فينال من المناصب ما يرضيه.

وقد صادف عزمه الذهاب إلى القاهرة تولي ابن خالته الأمير إبراهيم الطالوي إمارة نابلس فتوجه معه، وأعطاه الأمير خيلاً ومالاً وزوده وودعه، وتوجه إلى مصر واستقرّ بها نحو سنة.

وقد أخذ بها عن أعلام علمائها في تلك الفترة مثل العلامة علي بن غانم المقدسي الحنفي والشمس محمد النحراوي البصير شيخ الشافعية في عصره، وشمس الدين محمد الرملي، وأعلام الأسرة البكرية الصديقية والشيخ داود الأنطاكي أكبر أطباء العصر، وغيرهم من العلماء والأدباء الذين ذكرهم في كتابه هذا، وذَكَر ما أجازه به كل واحد من قراءاته ومسموعاته، ومروياته التي رواها عن شيوخه مثبتة السند إلى الطبقة العالية منهم.

وقد حفظ لنا الطالوي بذلك سجلاً حافلاً بأسماء الكتب التي كانت تدرس في جامعات القاهرة ومدارسها في تلك الفترة في مختلف الفنون من علوم القرآن والحديث واللغة والأدب والنحو والرياضيات والطب وغيرها، بأسانيدها، وزاد من التعريف بأعلام العلماء في تلك الفترة أيضاً بما يدل على أن الحركة العلمية كانت نشطة في العواصم الإسلامية في صدر العصر التركي قبل أن تخمد جذوتها ويقل نشاطها شيئاً فشيئاً مع المظالم المتفشية والأوبئة الفتاكة إلى أن هبطت عما كانت عليه درجات عدة.

ولم يستفد الطالوي في رحلته هذه فائدة علمية فحسب، بل إنه ابتكر وسيلة أخرى هداه إليها عقله، وهي أنه أراد أن يأخذ توصيات من علماء مصر إلى أولي الأمر بالدولة العثمانية، فألف رسالة سماها «رسالة الحسب الطالوي، وعجالة النسب الأرتقي» تشرح لهؤلاء العلماء ما كانت تتمتع به أسرته التي ينتسب إليها من أصل عريق ومحتد تليد وفي هذا ما يوجب على السلطان أن يعامل سليل هذه الأسرة الذي جمع إلى رفعة النسب جمال الأدب بما يستحقه من التكريم وقد كتب له العلماء المصريون موافقين على هذا الرأي ونحن نجتزىء من توصياتهم هذه بقطعة لأحدهم جاء فيها:

«وبعد، فقد وقفت على هذا المصنف المشتمل على ذكر نسب سيدنا ومولانا العالم المحقق والنحرير المدقق، كنز الدقائق ومفتاح الحقائق... صاحب الأبحاث، والمناظرات، والأجوبة المحققة في الحادثات،... سلالة السادة الكرام، وأعيان الأمراء العظام، من أكثر الناس من التصنيف في شرف نسبه وأطالوا، سيدنا ومولانا درويش جلبي الشهير بابن طالو...، فوجدته خير مصنف في ذكر نسب قد علا مناراً وشرف مقداراً،... فلله دره من نسب رفيع، وأصل بديع....

إلى أن يقول:

فينبغي لمولانا السلطان أدام الله أيامه، ونشر في الخافقين أعلامه، النظر إليه بعين العناية، ومعاملته بمزيد الرفق والرعاية، والإنعام عليه بما طلبه من المناصب وأراده، فإنه أهل لذلك وزيادة، هذا والمناصب تتشرف بتولية مثل هذا النسيب، والمراتب تفتخر بجلوس مثل هذا اللبيب، والعبارات تقصر عن استيعاب مفاخره، واللسان يكل عن تعديد مآثره، وبالجملة فهو مجمع الفضائل، ومفخر الأفاضل... إلخ».

ونحن نعتقد أن هذه التوصيات قد آتت ثمارها، فإن المحبي[1] يذكر أن المولى سعد الدين بن حسن جان التبريزي، معلم السلطان أكرم مثواه بناء على معرفة حقوق أبناء النعمة وأغنياء الأصالة، خصوصاً الجامعين إلى شرف النسب شرف الأدب، وامتدحه هو وولديه محمداً وأسعد بقصائد كثيرة وولي بعنايته مدارس عديدة في الروم.

فترة تعطل الطالوي الاضطرارية:

كان لا بد للطالوي أن يتعطل فترة عن العمل بحكم عرف سائد في وظائف التدريس بالدولة التركية، إذ يذكر البوريني[2] أن من قاعدة موالي الروم أنهم يعزلون المدرس ما بين الأربعين والخمسين نحو سبع سنين، ولا ندري السبب في ذلك، أهو إتاحة الفرصة لآخرين ليأخذوا دورهم أم هو إتاحة الفرصة لمن عزلوا الاستزادة من العلم أو التأليف؟ على أي حال فبناء على هذه القاعدة عزل الطالوي، وهو قد استطاع تأخير هذا العزل فترة طويلة وربما كان للتوصيات التي أتى بها من مصر أثر في استبقائه إلى سن الثالثة والخمسين، فهو بعد أن ذهب إلى مصر عام ٩٩٨ وبقي بها نحو سنة، عاد إلى دمشق لفترة قصيرة، ثم ذهب إلى القسطنطينية، فظل بها نحو أربع سنوات تولى فيها ما تولاه من المدارس قبل أن يتقرر عزله فيعود إلى دمشق ليقضي بها الفترة المقررة لهذا العزل أو هذه الإجازة الإجبارية.

إذاً فهو قد استطاع تأجيل هذه الفترة قدر الاستطاعة، ويبدو أن

---

(١) خلاصة الأثر ٢/١٥٠.

(٢) تراجم الأعيان ٢/٢٠٢.

تحديد السن ما بين الأربعين والخمسين كان تقريبيًّا، والمهم أن يعزل المدرس فترة معينة سواء عزل في الأربعين تماماً أو استطاع تأخير ذلك لعدة سنوات.

وثمة أمر يلفت النظر في هذه المسألة، هو أن البوريني يقرر أن الطالوي عزل قبل ذهابه إلى مصر، وأنه انتهز فرصة هذا العزل ليذهب إليها، ونص كلامه هو كما يلي:

« من قاعدة موالي الروم أنهم يَعْزِلُون المدرس ما بين الأربعين والخمسين نحو سبع سنين، ففي هذه المدة ورد (أي الطالوي) إلى مسقط رأسه بدمشق الشام، فاتفق أن ابن خالته الأمير إبراهيم الطالوي تولى الإمارة بولاية نابلس فتوجه معه وأعطاه الأمير ابراهيم خيلاً ومالاً وزوده وودّعه.. إلخ..

وعاد من مصر إلى دمشق فاجتمعت به وطلبني لمذاكرته في تفهيمه بعض المشكلات في عبارة الشرح المطول للمولى سعد الدين التفتازاني واستمر هناك إلى أن قربت المدة بين الأربعين والخمسين فتجهز للسفر إلى الروم ».

هذه عبارته، وهي تنص على أنه في مدة العزل قام برحلته إلى مصر، وأنه عاد إلى دمشق فمكث بهامدة طويلة حتى قرر أن يسافر إلى الروم.

والواقع أن هذا غير صحيح، فمن المعلوم أن هذه الرحلة كانت في عام ٩٩٨ هـ، وقد سجل ذلك الطالوي في أكثر من موضع، ثم سجل بعد ذلك وقت عزله بقوله: ولما انفصلت عن بعض مدارس الروم عن الأربعين توجهت إلى دمشق الشام أواخر سنة ١٠٠٣ هـ.

هذا ومنذ هذه السنة بقي الطالوي في دمشق حتى أواخر سنة ١٠٠٩ هـ، وكانت السنوات السبع قد قاربت نهايتها فعاد إلى الروم عن طريق البحر، وبدأ يتصل بمن يعرفهم من أولي الشأن فيها للعودة إلى منصبه في التدريس.

كيف قضى الطالوي وقته في دمشق:

قضى الطالوي سبع سنوات أو نحوها متعطلاً في دمشق بحكم قانون موالي الروم كما أسلفنا.

وكان الطالوي إبان تلك الفترة قد وصل إلى درجة كبيرة من الشهرة التي نالها بكده وجهده، ونشاطه الجم بين دمشق والقاهرة وبلاد الروم، وتعرفه على أولي الأمر في الدولة من ولاة وعلماء وأعيان من الذين اتصل بهم ومدحهم، وأفاد منهم وأفادوا منه.

وقد عاد إلى بلده ليحتل مكان الصدارة بين علمائها، بحكم كونه شاعراً مجيداً، وأديباً تقلب في مختلف الوظائف في بلده وفي بلاد الروم.

وقد أتاح له ذلك أن يشارك في أحداث بلده بطرف، فهو مقرب من ولاة دمشق يمدحهم ويجالسهم ويأنسون إليه، ولا يعمل الواحد منهم عملاً عمرانياً إلا استحضره ليخلده في شعره.

وإلى جانب ذلك فهو يدافع عن بلاده الحبيبة، فنراه يهجو الظلمة من القضاة الذين تصادف أن تولوا القضاء في هذه الفترة ولم تحمد سيرتهم، كالقاضي أحمد الإباشي، الذي عرف بالجور والعسف والرشوة، فألف فيه كتاباً سرد فيه كل مظالمه وسماه «رفع الغواشي عن ظلم الإباشي» واشتهر الكتاب وكان سبباً في أن جرؤ الناس على ذلك

القاضي كما أسلفنا فقذفوه بالحجارة في الطريق، ولم يرسل إليه الوالي عساكر لحمايته، ثم ما لبث أن جاء الأمر بعزله.

ونراه في موقف عكس هذا يكتب كتاباً على لسان أهالي دمشق لرفعه إلى أولي الأمر لابقاء قاض اشتهر بالعدل في منصبه، بعد أن كان قد تقرر نقله.

ثم نراه يمدح المولى عبد الوهاب أحد القضاة المعروفين بمتانة الخلق وقوة الشخصية لوقوفه ضد مظالم والي دمشق المعروف بأحمد باشا الحرامي.

كما نراه يمدح سنان باشا بن جعال أحد ولاة دمشق الذين قضوا على كثير من مظاهر الفساد المنتشر بين العامة وأشاع العدل بين الرعية.

أما صلاته الشخصية التي توطدت بين الأعيان من العلماء والأدباء، وأما المشاركة في الحياة الأدبية والإخوانية والاجتماعية السائدة آنئذ فهي مما يصعب حصر صوره هنا، ويكفي أن يطلع عليها القارىء في الكتاب ليعلم مدى خصوبتها وتنوعها.

العودة إلى القسطنطينية:

ولما انقضت السنوات السبع المقررة هرع الطالوي إلى القسطنطينية عن طريق البحر، وكان يحمل كتاباً من والي دمشق شريف باشا إلى والي بعلبك فخر الدين المَعْنِيِّ يوصيه به خيراً، ولكن لسوء الحظ يطمع ذلك الوالي في غلام للطالوي كان أثيراً لديه ورآه معه فيستولي عليه لنفسه، فيغضب الطالوي لذلك أشد الغضب ويهجوه بعد أن كان قد أسمعه قصيدة في مدحه، ويستعدي عليه والي دمشق.

ثم يواصل رحلته بعد ذلك إلى بلاد الروم ليعود إلى مدح السادة أولي الأمر فيها، فيمدح شيخ الإسلام (صنع الله) الذي تولى بعد المولى سعد الدين التبريزي ولما انفصل الرجل عن منصبه وعين بدله أسعد أفندي ابن المولى سعد الدين أشاد به الطالوي في عدة قصائد كما مدح أخاه المولى محمد بقصائد مماثلة، ومدح غيرهما من الرؤساء والولاة في الدولة، ولم يكتف بنظم قصائده باللغة العربية بل نظم باللغة الفارسية أيضاً بعض القصائد ليدل على براعته فيها، وقد أثمر هذا النشاط ثمرته بطبيعة الحال فأعطى مدرسة خير الدين باشا بخمسين عثمانياً.

على أنه لا يمكث في القسطنطينية فترة طويلة ولا يلبث أن يعود إلى دمشق وهو معين في منصبين بها، الأول منصب مفتي دمشق، والثاني قيِّم المدرسة السليمانية بها وذلك أرفع ما وصل إليه من المناصب، وليس هناك مطمع لشخص ليس تركياً صرفاً في أن يعين في مثلها، وفي بلده وبين أهله.

رأي مخالف للبوريني:

ولكن البوريني يرى في ذلك المنصب حَطًّا لمرتبة كان الطالوي قد وصل إليها في القسطنطينية، وهو يرجع هذا إلى أنه كان هجاء وهو يقول في ذلك إنه، هجا قاضي القضاة بدمشق أحمد الشهير بالإباشي وأفحش في هجوه إلى الغاية، والحال أنه كان قد مدحه إلى الغاية وبالغ في مدحه، وهجا قاضي العسكر المنصور، وهو المولى كمال الدين ابن المولى أحمد أفندي الشهير بطاشكبري زاده، ثم يقول: وكان هجوه للموالي سبباً لطرده من منازل العالي، وإبعاده عن مفاخر الأيام والليالي، فإنه لما أعطى مدرسة خير الدين باشا بخمسين عثمانياً دفعوه إلى الشام، وأبعدوه

عن قضده والمرام، فأعطوه مدرسة السليمانية بدمشق المحمية... إلخ.

ونحن يجبُ أن نأخذ كلام البوريني بحذر، فقد كان الرجلان متعاصرين، والمعاصرة كما يقولون حجاب، ثم إنه لم يكن بينهما كبير وُدّ، بل كانت بينهما معاتبات لما كان يصل كلاً منهما من وشايات في صاحبه.

أما القضية التي ذكرها عن هجائه للناس، فإنه لم يذكر غير مثالين اثنين، الأول القاضي الإباشي وقد مدحه الطالوي باعتباره شاعر الشام حين توليه منصبه، مجاملةً واجبةً وترحيباً لازماً بموظف كبير سوف يتولى الحكم بين الناس وتحقيق الأمن والعدالة فيما بينهم.

ولكن بعد فترة ظهر ما كان خافياً من هذا القاضي إذ كان ظالماً غشوماً يحب جمع المال بأي طريق، فاشتهرت في أيامه الرشوة وفشت، وأحس الناس بقسوة حكمه لأنه لسوء حظه أتى بعد القاضي عبد الوهاب الذي اشتهر بالعدالة الفائقة وسار في الناس بسيرة السلف، فكان البون بينهما شاسعاً وضج العامة بالشكوى منه ثم جرءوا على قذفه بالحجارة إبان خروج موكب الوالي لصلاة الجمعة، فلم يدافع عنه الوالي بإرساله عساكر لحمايته، مما كان يعد اعترافاً ضمنياً بأنه يستأهل من الأهالي ذلك العقاب.

ورجلٌ والحالة هذه كان يستحق من الطالوي ما قاله فيه من هجاء مهما قال فيه قبل ذلك من مدح، إذ أن ذلك المدح كان - في الغالب - لاستمالة قلبه لتحري العدل والرأفة بجموع الناس، فلما لم يتحقق ذلك منه كان حقيقاً بالهجو بلا نزاع.

أما القاضي الثاني فلم يرد له ذكر في كتابنا هذا.

ثم يقول البوريني عنه: «إنه جاء إلى الشام بعظمة لا ترام، ووضع

على رأسه قبة تنازع قبة النسر كِبراً، وسار سيرة صارت بين الناس مثلاً وخبراً، فكان يرفع رأسه إلى جانب السماء كأنه ينتظر حديثاً يسمعه أو يرقب مالاً يضمه إليه أو يجمعه».

والواقع أن العظمة التي أتى بها الطالوي إلى الشام عظمة يستأهلها، فالرجل قد لاقى الأمرين في سبيل الوصول إلى ما وصل إليه من منصب وجاه نالهما بكفاحه وجهده وبما منحه الله من موهبة. ثم هو قد خبر الناس جميعاً بدءاً من كتبة الحاكم حتى ذوي المناصب الرفيعة في الدولة من أصحاب السلطة ومن حاشية السلطان الأفخم، ولا ننتظر من رجل كهذا أن يسير في الطرقات ويتبسط بالحديث إلى الناس حتى لا يوصف بالكبر.

ثم نعود إلى ما أخذه البوريني عليه أيضاً من أنه سار في الناس سيرة صارت مثلاً وخبراً فكان يرفع رأسه إلى السماء كأنه ينتظر حديثاً يسمعه أو يرقب مالاً يضمه إليه ويجمعه...

وهذا كلام ليس مفهوماً على الإطلاق، ولا يعد نقداً موضوعياً يمكن أن يناقش! فهل جن الرجل مثلاً؟ أو أصابه السعار إلى المال فهو يصل إليه بكل سبيل، أم يا ترى عمي عن كل شيء غيره فهو يترقبه أنىً سار وحيثما ذهب؟

لا ندري، وليس لهذا من تفسير إلا أنه قول رجل لا يحب صاحبه وينفس عليه مكانته ومنزلته من تقريب الولاة واحترام الناس جميعاً له.

ولو كان الرجل هجاء بطبعه كما يقول البوريني لاحتفظ بشعره في الهجاء في كتابه، ولكن يبدو أن هجاءه كان على نمط هجاء أبي تمام الذي كان يمدح بعض الناس ثم يهجوهم لأنهم لم يعرفوا قدره، أو على نمط هجاء

البحتري الذي هجا كثيراً من ممدوحيه، وهي سنة معروفة عند الشعراء يهجون من يمدحونهم أحياناً ليخيفوهم وليعلموهم أنهم قادرون على المدح وقادرون على الهجاء وذلك ليجزلوا لهم في العطاء.

وليس كما يقول البوريني أثر في أفعال الرجل ولا أقواله، لا فيما رواه عنه في ترجمته له، ولا فيما أثبته الطالوي نفسه في كتابه هذا من أخبار وأشعار، بل إنه يبدو - كما يتضح للقارىء - رجلاً مهذب النفس، عالي الخلق، لم يذكر أحداً بسوء في كتابه إلا هذا الإباشى، وإلا واحداً أو اثنين ممن وعدوه بوعود لم يفوا بها، وقد مسهم مساً رفيقاً لا يمكن أن يعد هجاء فاحشاً بحال.

أما البوريني فقد هجا الكثير ممن أوردهم في كتابه (تراجم الأعيان) وأطنب في هجائهم ولم يُعف الطالوي أيضاً من هجوه، وذلك بالرغم من أنه كان له صديقاً، وقد مدحه ببعض قصائده، وما ذلك إلا أنه كان ينفس عليه، كما قلنا، مكانة لم يستطع هو أن يبلغها، وكانت من الوضوح والشهرة بحيث لم يستطع أيضاً أن ينكرها حين ترجم له.

على أننا مع هذا يجب ألا نغفل أمراً وهو أن الطالوي قد هجا في مقدمة كتابه الأوضاع السائدة في بلاد الروم بصفة عامة، وتولِّي المناصب من لا يستحقها من الناس وانقراض العلماء، وانتشار الظلم والعدوان بين أمرائها، وهو ما يعبر عنه بقوله «أصبحت مدارس الروم فوضى ما بين أغربة وبوم... تسور محاريبها البيض سود الزنوج، وتنزو عليها كالقردة حمر العلوج، أما تراها الآن بين أسود نوبي وأحمر من بني أصفر شعوبي.. جلت جثثهم، ودقت أحلامهم، فإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، صيغتهم في الجموع جمع تكسير، وآيتهم في البحث إن أنكر الأصوات لصوت الحمير».

وهي صورة مؤلمة شاركه في الحديث عنها الشهاب الخفاجي في كتابه الريحانة في الفصل الذي عقده لبيان أحوال الروم[1].

وهو يذكر أنه بعد وفاة سعد الدين التبريزى، ثم المولى صنع الله، ثم انقضاء مدة محمد وأسعد نجلي التبريزى، أن صار الدين ملعباً وسخرية، وآل الأمر إلى اجتراء السلاطين والوزراء على العلماء وقتلهم وإهانتهم.

وذلك ما كان يدمي قلب الطالوي، وأدى به إلى هجاء الكثير من المشاركين فيه فدفع بهم إلى إزاحته من طريقهم وإعطائه منصباً في دمشق، ولكن ذلك الهجاء كان للمصلحة العامة وهو أمر مطلوب من الأدباء في كل عصر وليس هجاء شخصياً مما قد تثيره الكراهية أو الحسد في النفس، وهو ما يمجه الذوق والواجب في كل آن.

خاتمة الطالوي

قضى الطالوي أربع سنوات مفتياً لدمشق وقيّماً على المدرسة السليمانية بها يزاول وظيفته ويستمتع بصحبة أقرانه ولداته، من العلماء والقضاة والأعيان، وقد خصص منزلاً صغيراً في بيته (بمحلة التعديل) كان يقابل فيه أصدقاءه وقاصديه، ويقول عنه إنه بيت الفتاوى وموضع الكتب.

وفي رمضان من سنة أربع عشرة بعد الألف مرض بالحمى، وتوفى ليلة عيد الفطر من تلك السنة.

رحمه الله رحمة واسعة.

---

(١) أنظر الفصل الذي سماه الخفاجي: بيان أحوال الروم، وانقراض علمائها، ونشر الظلم والعدوان بين أمرائها، في ريحانة الألباء ٢/٢٨١ - ٣٠٧.

شِعْـــرُه

يعد الطالوي من أكبر شعراء عصره، وقد حاز شعره على إعجاب معاصريه فأعطوه من المديح والإطراء الشيء الكثير، ولعل من أكثرهم في ذلك الشهاب الخفاجي الذي يصفه بقوله: «هو حَسّان عصره، وأبُو عبادة دهره، له في المجد زند ورى، وللأسماع من مورده العذب شرب وري، وبحر فكره المديد سريع، ونسج طبعه أبهى وأبهج من وشي الربيع، إذا حلّى أجياد الغصون بعقود در الغمائم، وألبس هامات الربى من النبت مخضر العمائم، فكأنه بسحر البيان أعدى عيون الغيد الحسان»[1].

ويذكر البوريني أنه «راسل كثيراً من علماء عصره، وكاتب جملة من أدباء مصره، وأجابوه على الوزن والقافية، ومدحوه بالجملة الكافية...

ثم يقول رغم ما كان بينهما من منافسة:

ولعمري لقد اجتهد في إلفن المذكور ودأب، حتى لقد استحسنت قصائده وسارت شوارده...

ثم يقول: وقصائده مشهورة، وفي الدفاتر مسطورة[2].

ويصفه المحبي بقوله: «أحد أفراد الدهر ومحاسن العصر، وكان

---

(١) ريحانة الألباء ٥٣/١.

(٢) تراجم الأعيان ٢١٣/٢، ٢١٤.

ماهراً في كل فن من الفنون، مفرط الذكاء فصيح العبارة منشئاً حسن التصرف في النظم والنثر، وله كتاب (سانحات دمى القصر) جمع فيه أشعاره وترسلاته، وهو كتاب حسن الوضع متداول في أيدي الناس... »[1].

ثم يقول: «وهو في كل أسلوب من أساليب الشعر كثير الملح كأنما يصدر شعره عن طباع المفلقين من الشعراء »[2].

وهكذا نرى استحساناً من الجميع لشعره، فما قصة شاعرية الطالوي وما وصل إليه من مكانة بين شعراء عصره؟

يذكر الطالوي أن أول قصيدة جادت بها قريحته كانت في مدح المولى ابن بستان عام ٩٧٦ هـ أي وهو في السادسة والعشرين من عمره.

وربما كانت هذه هي المحاولة التي سجلها فعلاً وأرسل بها إلى صاحبها، ولكننا نظن أن المحاولة المتكاملة لا بد أن تسبقها بعض المحاولات التي تقل عنها، وهذه المحاولات لا تعنينا بالطبع إلا بمقدار إسهامها في صقل موهبة الشاعر التي وهبه الله إياها.

ونعتقد أن هناك بعض العوامل التي نعرفها في صقل تلك الموهبة، ومنها: انخراطه في مطلع شبابه في سلك الصوفية وحضوره حلقات الذكر والسماع وبراعته في إنشاد القصائد لكبار الشعراء المتّصفة بالصوت الجميل الذي كان يمتاز به، والذي وصفه البوريني بقوله: «إنه كان يجرح الفؤاد ويهيم بالعاشقين في كل واد». ولا ريب أن حفظ هذه

---

(١) خلاصة الأثر ٢/١٤٩، ١٥١.

(٢) المصدر نفسه ١٥٥.

القصائد وترديدها ليلة بعد أخرى بصوت منغم، وأداء جميل كان يساعده على تقليد ما يحفظ من شعر عذب، وعلى المحافظة فيما يكتب على الوزن السليم والإيقاع الرتيب، بحيث يتفق جمال الألفاظ وانسجام النغمات فيما ينظمه، ويبعد به شيئاً فشيئاً عن خشونة الألفاظ ونشاز الألحان، ولا شك أن الطالوي استفاد من هذه الميزة التي لا تتوافر لكثير من الشعراء في نظم شعره.

ومنها: تلقيه الأدب على شيخه أبي الفتح محمد بن عبد السلام التونسي المالكي، وملازمته له طويلاً، وقد كان الرجل كما ذكرنا علامة في الأدب قوالاً للشعر الجميل ذواقة له، وكان يحيا حياة الشعراء في إقباله على التمتع بالحياة، وما فيها من مباهج حسنة، ووجوه للفتيان مستحسنة، ويتعاطى في خلال ذلك الأفيون، ويشرب قهوة البن، مما أخذه عليه العلماء لأنه كان فقيهاً كبيراً من فقهاء الحنفية شغل منصب الإفتاء في دمشق قبل أن يكون أديباً شاعراً، ولكن الرجل كان يداوي بذلك ما ابتلى به من رقة الحال والفقر الشديد، فضلاً عن الغربة التي كان يحس بها كلما ضاقت به الحال فيلجأ إلى قول الشعر يجد فيه متنفساً.

ومن الحق أن نقول إن الرجل مع هذا كان عالماً فذاً، ورغم إدمانه على الأفيون وغلبة تأثيره عليه أحياناً وهو في حلقة الدرس مما يجعله يهوّم أو يشرد، إلا أنه كان من صفاء الذهن وتوقد القريحة بحيث يتمكن من العودة إلى السيطرة على عقله سريعاً، فإذا فرغ القارىء من قراءة المقالة فتح عينيه وقرر المقالة أحسن تقرير[1].

---

(١) الكواكب السائرة ٣/٢٢.

ويقول عنه الغزّي: «إن الناس قد حملوا عنه العلم وانتفعوا به، وأنبل من تخرج به في الشعر والعربية العلامة درويش بن طالو، مفتي الحنفية في دمشق ومدرس السليمانية بها، وسلك طريقته فيما هو فيه، وكان الشيخ أبو الفتح المالكي حجته في كل ما يأتيه[1].

ومن الممكن حقاً أن نلاحظ تأثير شيخه في بعض أغراض شعره من مثل التظاهر بمحبة الأشكال والصور الحسنة، ومن الممكن كذلك أن يكون الرجل قد قوم له المحاولات الأولى من شعره وأطلعه على تجاربه الفنية في النظم، وإمكان استفادته منها، فضلاً عما استفاده هو نفسه من دروسه ومجالسته.

أما تأثيره فيه بتكيفه بالأفيون أو مداومته على شرب قهوة البن، فلم يعرف عن الطالوي شيء منها.

ويمكننا أن نذكر غير هذا من العوامل المؤثرة في شعره، ما قاله البوريني من أنه كان مائلاً إلى قصيد ابن أبي الحديد، ومن المعروف أن الشيخ عز الدين بن أبي الحديد له القصائد السبع العلويات في مدح أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه، وشرحها بعض العلويين وقد قرأها الطالوي بشرحيها على الشيخ داود الأنطاكي أيام رحلته إلى مصر واستجازه روايتها.

ويذكر الذين ترجموا للمؤلف أنه كان فيه تشيع لطيف، ولكننا لا نرى هذا التشيع واضحاً في كتابنا هذا إلا بقدر ضئيل يتمثل في قصيدة مدح بها بعض الأمراء العلويين، أما تأثره بابن أبي الحديد فقد كان في

---

(١) المصدر نفسه.

تأليفه سبع قصائد على نسقه أفردها بتأليف خاص غير أنها لم تصل إلينا.

كما يمكننا أن نذكر من عوامل شاعريته معرفته الواسعة بالشعر وتأليفه فيه فهو قد صنف مختاراً لشعر أبي تمام، ونرى هنا استشهاده الواسع بشعر المتنبي بنسبته إليه أحياناً وبدون نسبة إليه أحياناً أخرى، ولكنه يدور على طرف قلمه مما يدل على استيعابه له، وهناك إشارات كثيرة تدل على سعة اطّلاعه على دواوين البحتري والشريف الرضي. وأعلام الشعراء من غيرهما، وقد استطاع المحبي أن يكشف عن تأثير بعض شعراء الطبيعة كالصنوبري في مقطوعات من شعره.

من أغراض شعره في الكتاب

أ- المطارحات:

من الطبيعي أن تحتل المطارحات الجزء الأكبر من الكتاب ما دام معقوداً باسمها ولكن الواقع أنها لا تمثل إلا جزءاً يسيراً منه، أما بقيته ففي أغراض مختلفة من أهمها المدح، وسوف نورد بعضاً من مطارحات الطالوي نموذجاً لغيرها من المطارحات ولنختر مثلاً بعض أبيات هذه القصيدة التي كتبها إلى الشيخ عماد الدين العمادي (فخر مدرسي دمشق الشام وعمادها العمدة وشيخ الإسلام) والقصيدة كتبها الطالوي عام ٩٧٨ هـ أي في مستهل شبابه وقوله للشعر، وقد أرسلها إلى العمادي طالباً الجواب، وأتى فيها قوله:

سَقَاكَ عَهْدُ الحيا رقراقُ منجدرِ ، عهدَ السرورِ وريعانَ الهوى النَّضِرِ
وجاد رَبْعَك وَسْمِيٌّ تكركِرُهُ ريحُ الصَّبَا بين منْهَلٍ ومُنْهمرِ

وغردتْ في رُباك الورق وابتكرتْ　　بلحن معبد تَتْلُو أطيب الخبرِ
ولا أغبَّتْك أرواحُ النسيم ولا　　عَدَتْ مغانيك أخلافٌ من المطرِ
كم اجتليتُ بدوراً من مطالعها　　كم نيل تحت سناها من سَنَا قمرِ
من كلِّ رُعْبوبةٍ تهفو بمصطبري　　قد زانها الحسنُ بين الدَّلِّ والحَوَرِ
قامت تعانقني يوم الوداع وقد　　قَلدتها من دموعي رائق الدُّررِ
تقول والبينُ تغشاها ركائبه　　والدمعُ يقطر فوق الخَدِّ من حذر
لا تعتب الدهر إن حالت خلائقُه　　فصفو رونقه لم يَخْل من كدرِ
وإن تُرد تتقي من صرفه نُوَباً　　فالجأ لظلِّ عماد الدين تستترِ
مولى حماهُ غدا أمن المَرُوع كذا　　جنابه الرَّحْبُ مأوى الخائفِ الحذرِ
حتى امْتَطى صَهَوَاتِ الجدِ ساميةً　　يختالُ في حُلل الأوضاح والغررِ
يا فاضلاً كم جلَتْ أبكارُ فكرته　　غُرَّ المعاني لنا في أحسن الصُّورِ
ويا عماداً لبيت الفضل يرفُعُه　　وكان من ضِعةٍ يلفى على خطرِ
إلى ذُراك أتَتْ فاقبل على دَخَلٍ　　نسيجها يا رئيس البدو والحَضَرِ
لا زلت في نِعَم تسمُو بسؤددها　　وُرْقُ الحمائم بالآصال والبكر
وما وشي الطرس تنميقُ اليراع بما　　يُزرى بِوَشي الرُّبَا بسَّامة الزَّهَرِ

والقصيدة طويلة في خمسة وثلاثين بيتاً، وقد اخترنا منها هذه الأبيات لبيان طبيعة قصائد المطارحات، فهي تبدأ بمقدمة طللية ولكن الوقوف فيها ليس على طلل بل على أيام الشباب الناضرة الفائتة وما كان له فيها من غزوات موفقة مع الحسان، والتي بقيت منهن واحدة تبكي وهي تقبله وقد حانت ساعة الوداع.

ثم يأتي التخلص البارع بذكر الممدوح في قولها:

وإن تُرد تتقي من صرفه نُوبا　　فالجأ لظل عماد الدين تستتر

وبعد ذلك يأتي ذكر الممدوح ورفعة شأنه وسمو مكانته، وما يفيض به من علومه على الشادين، ومن كرمه على المعتفين.

وأخيراً الدعاء له بدوام السمو والرفعة حتى تبلغ رفعته السماكين في السماء، ثم أحسن الختام ببيتين من رائق الشعر يؤكد فيهما ما طلبه له من دعاء، بدوام عزه ما دامت الحمائم تسجع بالآصال والبكر، وما ظلت اليراعات توشي الطروس بوشي كابتسام الزهر.

ومن الواضح أن الطالوي هنا كان في الثامنة والعشرين من عمره وما زال مبتدئاً في قول الشعر، يحاول أن يقدم أقصى ما عنده من فصاحة وبيان، ليتطاول بها إلى مقام الممدوح فيرسم له لوحة من الطبيعة الخلابة والشباب الغض العاشق للخير والجمال، وما يأمل فيه هذا الشباب من فيض جوده، وعُلو قدره ولتكن بضع كلمات في قصيدة يردّ بها على هذه الهدية، فترفع من شأن الهدية والمُهْدِي، وهذا هو الأساس في المطارحة.

والملاحظ على القصيدة بعد ذلك أن صورها البيانية من تشبيه واستعارة قريبة المأخذ سهلة المتناول، وأنه يقلد فيها الجاهليين من الدعاء بالسقيا وذكر الربع وريح الصبا والرعبوبة وما إلى ذلك.

ولكن الملاحظ أيضاً أنها تمتاز بسهولة الألفاظ وحلاوتها وجودة السبك وجمال الموسيقى بحيث لا تحس أن لفظاً واحداً يقف قلقاً في أثناء القراءة، وأنها مما يمكن أن يغنى ببعض أبياته.

* * *

وهذا نموذج آخر عكس الأول، يقوله الطالوي بعد أن أصبح شاعراً شهيراً يحتل مكانته بين العلماء في عاصمة الدولة العلية، وهو يرد

به فيها على الشهاب الخفاجي الشاعر المبتدىء آنذاك الذي أرسل إليه بقصيدة لمطارحته، يقول فيها:

قَبَّلْتُ مصطبحاً شفاه الاكؤسِ والصبح يبسم لي بثغر ألْعسِ
حتى غدت منه الغزالة واختفى مسكُ الدجى عند الجواري الكُنَّسِ
والنهر سَيْف والنسيم فرنده وله حمائل من خمائل سندس

وبعد عدة أبيات في وصف الطبيعة ينتقل إلى الغزل:

ولواحظ مرضى بها اعتل الصِّبَا والصَّبُّ بالسُّقْم المبرحِ مُكتسي
فتنت بأنفسها ففيها علة من وجدها وفتور مهجور نسي
فلكم قطفت ثمار لهو أينعت وغفلت عما قد جنى الدهر المسي

ثم يمدح مطارحه (الطالوي) بقوله:

يا عقد جيد الدهر غرة فجره وطراز ما حاك العلا من ملبس
بل كعبة حجت لها آمالنا فدنت إلى حرم الكمال الأقدس
من آل طالو فتية طالوا الورى بذرى أشم من المعالي أقعس
أسكرتنا بسلاف شعرٍ لفظه كأس له فكري بسمعي محتسي
وسرت نسيمات سحيراً أرقصت طرباً بها عقل اللبيب الأكيس

ثم يهديه قصيدته ويدعو له:

فإليكها مني قوافٍ دَوْحُها زاهٍ بغير يد النُّهى لم يُغْرسِ
بكراً إلى كُفءٍ تُزَف ومهرها نقد الجواب براحة المستأنسِ
لا زلت في حلل المسرة رافلا ما حدَّقتْ ليلاً عيون الخُنَّسِ

فيجيبه الطالوي على وزنه وقافيته بقوله:

خَـدٌّ تورد من لهيـــب تنفس ... أم قَدٌّ معسولِ المراشفِ ألعس
من ريم وجرة أو جآذر جاسم ... لبس الشباب الروق أحسن ملبسِ
متوشحــاً خَطِّيَّ قامتــه فـإن ... ماست فيا خَجَلَ الغُصُون المُيَّسِ
فإذا رنا فاللحظُ منه بابِلٌ ... هاروتُ منه نُطْقُه كالأخرس
أم لؤلؤٌ رطـــب قوامَ زانـــه ... حُسن الفِطام بجيدِ ظبية مُكْنِس
أم روضة غناء غنت في ذُرَا ... أغصانهـــا وُرْقٌ بلحنٍ مُؤْنِس
حاكت لها أيدي الجَنُوبَ مطارِفا ... وكستْ معاطفها غلائلُ سُنْدُسِ
أم غادة هيفاء أذكرتِ الصِّبا ... صَبًّا تناسى العهد منه وما نُسِي

، ثم يستمر في القصيدة مادحاً صاحبها:

وافـتْ وفي بقيَّـةٌ ألْهُو بهـا ... من شَرْخِيَ الماضي تَعِلَّةَ مُفْلِس
من ماجد وشهاب فضل ثاقبٍ ... حُلْو الشمائل بالفضائل مُكْتَسي
فظننـتُ ريعانَ الشبابِ أُعيدَ لي ... حتى الوصال من الحبيب المُؤْيِسِ
حتى اطمأنتْ فاجتليتُ بوجهها ... قَمر السماء بليـلِ شَعْرٍ جِنْدسي
لما بدا خفيتْ له شمسُ الضحى ... في ثوب غَيْم ترتديه وتكتسي
نطقتْ مناطقها فأخرس دُونها ... نطقُ الفصيح وحار فكر الكَيِّس

ثم يأخذ في مدحه والإعلاء منه فيقول:

لِمْ لا وناظمُها الشهاب من اعتلى ... شُهْب العُلا بكمال فضل اقْعَسِ
فرعٌ نماه إلى خفاجـةَ محتـدٌ ... والفرع ينبيءُ عنه طيب المَغرس
وافتْ لنا منه حديقةُ روضةٍ ... خجلت لبهجتها عيون النَّرْجِسِ

إني لأعجبُ من شهابٍ قد سما ‏ ‏ مُتبوأ العليــاء أرفــع مجلس
والشُّهْب تطلع السماء وحَدُّها ‏ ‏ فَلَكَ الثوابِت وهو فوق الأطلسي

ثم يدعو له ،ويهبه قصيدته فيقول:

لا زلت في حلل الفضائل رافلاً ‏ ‏ متوشحـا بُرْدَ الشباب الأنْفَس
خُذها وإن كانت مُقَصِّرة فمِن ‏ ‏ شأن الكرام قَبُول عُذرٍ من مُسِي
شاميـــة يعنو لباهر حُسنهــا ‏ ‏ وجـهُ الغزالة والغزال الألعس
وانعم بها لا زلتَ ترشف سمعنا ‏ ‏ من راح نَظْمك مُتْرعات الأكْؤُسِ

ومن الواضح الفرق بين مبتدىء في الشعر كالشهاب الخفاجي ومتمكن منه كالطالوي فالأول في الأبيات الأولى يقف ليصف الطبيعة جزءاً جزءاً بعد أن اصطبح ببعض الكؤوس فالصباح أمامه قد انتشر بياضه ولم يبق فيه من ظلمة إلا كالسواد المحبوب في الشفة السفلى من جارية بيضاء، وقد جاءت الشمس ففر من أمامها ظلام الصباح بسواده ورائحته الطيبة كالمسك إلى حيث نجوم السماء.

أما النهر فهو يُشبه قراب السيف ينسلُّ منه النسيم العليل، وأما خمائله فهي من الزرع الأخضر الزاهي الذي يشبه خمائل السندس، والصورة هنا رغم جمال تشبيهاتها واستعاراتها، قريبة المأخذ، سهلة التناول، ولو رُحنا نقارن ما قاله الطالوي بما أرسله إليه الخفاجي من قصيدته لوجدنا أن الطالوي يجسم المعاني تجسياً ويروح يتساءل عن ما هو أمامه، أهو خد متورد من تلاحق الأنفاس، أم هو قد اتصف صاحبه بفم جميل ومرشف حلو، وهذا القد الجميل يشبه الرمح الخطي في طوله واستواء قامته وقد منحه ذلك وشاحاً رائعاً من الجمال والجلال، وآه من

الخجل الذي يمكن أن يصيب الغصون المائلة لو ماست هذه القدود أمامها ورأت نفسها أقل جمالاً وتأوداً، أما لو نظرت إليك بعينيها فها هنا السحر الذي لا يقارن به أي سحر حتى لو كان سحر هاروت، ملك السحر نفسه.

وهكذا تسير الصور كلها في طريق التجسيم والإبداع فيه، ويضيف إليه تأثير هذا التجسيم في النفس.

وبناءً على ذلك فلو أردنا المقارنة بينه وبين شعر الخفاجي لوجدنا البون شاسعاً، فالخفاجي يمكن أن نُمثله برسام يمسك بألوانه وريشته ليرسم لوحة زاهية من الطبيعة يحاول أن يجعل ألوانها أكثر زَهْواً من غيرها، ولكنها مع ذلك مكررة وخرساء، ولكن الطالوي أقوى من ذلك وأشد ساعداً وعضداً، فهو يترك هذه الريشة الرقيقة ويمسك بازميل النحات ليخرج لك تماثيل من الفن ممتلئة حسناً وعجباً.

ثمة سؤال أخير يمكن أن يُثار بشأن هذه المطارحات؟ ما هو موقعها من فنون الشعر؟ وهل كانت ذات فائدة لغير قائليها؟.

ويمكننا أن نجيب على الشطر الأول من السؤال بأن نقول إن المطارحات هي نوع من الاخوانيات وهو فن إنساني جميل لا غنى عنه في التعبير عن عواطف الإنسان وأحاسيسه نحو إخوانه، وهي تأخذ شكلاً نثرياً في الغالب ولكنها إذا صيغت شعراً فإن المقصود منها حينئذ أن تكون آنق وأرشق، وأن تظهر براعة الأديب وتمكنه في استخدام اللغة لخدمة مشاعره، في الوقت الذي هو مقيد فيه بقوالب الشعر الملزمة.

أما فائدة هذه المطارحات، فإنها فضلاً عن إثراء اللغة وفن القول بألفاظ ومعان جديدة فإنها كانت تمثل ضرورة للحياة الثقافية في ذلك

الوقت، إذ هي أخبار أدبية شيقة في صفحة الحياة الأدبية، يتناقلها الأدباء والشعراء وينشدون الجيد منها في مجالسهم فتحل محل الصحيفة أو المجلة الأدبية في وقتنا الحاضر.

ومن هنا كان حرص الأدباء على تأليفها وإظهار البراعة فيها، فهي وسيلة جيدة لرفع مكانتهم وتحقيق الشهرة لهم وضرورية في الوقت نفسه للاطلاع على أخبار الأدب والحياة الأدبية في وطنهم.

ب - المدح:

بقي المدح غرضاً من أغراض الشعر في العصر التركي أيضاً، ولكن اختلفت شخصية الممدوحين، فلم يعد الخليفة أو الولاة هم من توجه إليهم قصائد المدح، فالسلطان التركي وولاته على بلاد الامبراطورية الواسعة لم يعودوا عَرَباً يفهمون العربية فضلاً عن تشبيهات الشعر البليغة واستعاراته وكناياته.

وقد حُرم الشعراء بذلك من مصدر كانوا يظفرون منه في العصور العربية الزاهية بالجزيل الطائل من العطايا والأنعام.

على أنه مع ذلك وجد في خلال ذلك العصر من يوجه إليه الشعراء قصائدهم، وهم كبار العلماء من القضاة والمفتين الذين كان لهم الاشراف على المحاكم، أو المدارس، وكان بيدهم أمر تعيين هؤلاء في وظيفة من وظائف القضاء أو التعليم.

وبالطبع فقد كان هؤلاء العلماء أيضاً من الأتراك، ولكنهم في الغالب كانوا يجيدون العربية ولهم فيها مؤلفات في التفسير والفقه والنحو وغيرهامن علوم الدين واللغة، بل إن بعضهم كان ينظم الشعر الجيد،

وكانوا بالتأكيد يحبون أن يقول فيهم الشعراء مدائحهم ويذكرون فيها مآثرهم، فيشتهر أمرهم ويسير ذكرهم بين الناس.

ولقد مدح الطالوي عدداً من هؤلاء العلماء الذين عرفهم، ورجا أن يجد الخير في ساحتهم، ومن أهمهم قاضي القضاة محمد بن بستان الذي تولى قضاء دمشق، فلازمه الطالوي بناء على قاعدة علماء الروم التي سبقت الإشارة إليها، وهي أن يلازم العالم الشاب شيخاً من العلماء لمدة أربعة أعوام يساعده فيها في عمله ويكتسب من خبرته، ثم يكون له الحق بعدها في التعيين بأحد مناصب التدريس أو القضاء، وقد تحقق للطالوي ذلك على يد ابن بستان، وإن كان العزل يصيبه بعد ذلك من منصبه، إما اختياراً برفضه للمنصب، وطموحه إلى ما هو أرقى منه، أو رغماً عنه لعدم اتفاقه مع رؤسائه أو زملائه، أو بسبب بعض الوشايات أو المضايقات التي يمكن تدبيرها للعزل في ذلك الوقت.

أمّا العَالِم الثاني الذي مدحه ووجد فيه دِرْءاً وظهيراً مسانداً فهو شيخ الإسلام، مفتي الدولة العلية المولى سعد الدين بن حسن جان التبريزى، معلم السلطان مراد (ويسميه هو مُلَقِّنُ السلطان بدلاً من معلم) وكان شخصيةً عظيمة في الدولة، وساحته مقصداً للأدباء والشعراء والعلماء من كل جنس، يجدون فيها ما يأملونه من رعاية وإكرام، وقد مدحه الطالوي بقصائد بديعة، وأثابه الرجل على ذلك بتوليته عدة مدارس في الروم...

هاتان هما الشخصيتان الهامتان اللتان اختصهما الطالوي بمعظم مدحه، وقد مدح غيرهما من العلماء والولاة والأمراء وغيرهم من الأصدقاء والخلان، مما تراه موفوراً في كتابه هذا.

ما هي الصفات التي يمكن أن يخلعها الشاعر على هذه الفئة من الناس؟ هي طبعاً وصفها بالورع والعقل السديد والفطنة، وبلوغها منزلة العلم والاجتهاد فيه، ولا بأس بعد ذلك من بعض أوصاف الجود والحلم، والسيادة القديمة والأصل العريق.

وهذا ما نراه عند الطالوي في مدحه لهؤلاء السادة، وما يمكن أن يفعله أي شاعر في مدحه لهم ليكون مقنعاً، ولكن الطالوي مع ذلك يعمد إلى المبالغة في رفع قدر ممدوحه باستعمال بعض إشارات التصوف التي عرفها إبان شبابه في حلقات الذكر، ومنها نعت ممدوحه بالولاية وأنه المجتلي سر الخليقة، وأن رويته تدرك رمز الحقيقة، ثم يزيد على ذلك في المبالغة والغلو بوصفه بأنه مَظْهَر الذات العلية بما يتحلى به من صفات تظهر لأهل الكشف والمعرفة، ومن ذلك قصيدته في مدح سعد الدين التبريزى، والتي يقول فيها:

فرب فتاة من مَهَاةٍ بدورها	تجلت بداجي ليل فرع لها جثل
من الغيد بيضاء الترائب طفلة	وقالت قتيلي في الغرام بلا ذَحْل
وضالي ببذل النفس إن كنت طامعا	وإلا الثريا منك أقرب من وصلي
فقلت لها والعين شكْرَى بمائها	وفي القب نار حر أبردها يغلي
فديتك يا نفسي بملكي فإنما	تملكها سعد البرية من قبلي
إمام الهدى بحر الندى قامع العدى	حليف الندى لا يَفْتُرُ الدهر عن بذل
هو العالم الطهر الذي بيمينه	تقسم ما في العالمين من الفضل
هو المجتلي سر الخليقة والذي	بذكر اسمه يستنزل الغيث في المحل
مُلَقَّنُ ظل الله أسرار غيبه	كما هي في أم الكتاب من الأصل
مرادٌ مُريدُ الحق لا زال ملكه	يُرى بقران السعد مجتمع الشمل

فوجدان سعد الدين في مثل عصره شهيـد بوحدانيـة الله والعـدل

ويقوله في قصيدة أخرى:

هو المظهر الذات التي قد تحجبت بمجلى صفات في حلاه وضوح
هو العروة الوثقى لدى متمسك هو السر فافهم ما إليـه أتيح
فإن تجل منك العين حقاً شهدته وأتقنت أن الرمز منه صريح
وإياك سرًّا غامضاً دون كشفه صوارم شرع للدمـاء تبيـح

وهو يستعمل أحياناً ثقافته في علم الفلك في المدح من مثل قوله:

أيهـا السعـد الـذي أصـ ـفـاك ربـي واصطفاكـا
لمراد الله يجري أمره طوع رضاكـا
ولـه المقـدار والمقـ ـدور قـد صـار ملاكـا
بالـذي شرف كيوا ن بحـظ من علاكـا
وأعـار المشتري حلـ ـك يجريـه اهتداكـا
وانتضى المريـخ سيفـا غمـدهُ هـام عداكـا
وكسا الشمس رداء مستنـيراً من ضياكـا
وحبـا الزهرة خلقـا نشره حسن ثناكـا
ثم أعطـى كاتـب الأفـ ـلاك سهماً من ذكاكـا
أنجز الوعـد لعبـد سيـدي طـال بقاكـا
عبـد رق لـترق مالـه إلا رجاكـا

وهو يعرف هنا لكل كوكب صفته التي يتميز بها، ثم بعد ذلك يمدح

صاحبه بطريقته المبالغة فينسب كل هذه الخصائص إلى الممدوح ثم يستعيرها منه للكواكب.

والواقع أن المدح لدى الطالوي وإن كان في أطر تمتاز بالحلاوة وجودة الحبك إلا أنه كان يمثل له مشكلة، فهو لا يستطيع أن يطيل في خلع أوصاف العلم والتقى على من يمدحهم من العلماء، ولهذا فقد كان يترك كل هذا إلى عدد محدود من أبيات القصيدة ويبدأ بذكر الغزل التقليدي ثم يأخذ بعدها في مدح بلاده وبخاصة دمشق التي هام حبًّا بها، وذكر مغانيها، وما تزخر به من جمال يفوق ما في بلاد العالم جميعاً، وهذا يتضح في تلك القصيدة التي يمدح بها ابن بستان وهي من عيون قصائده ويقول فيها:

كفى به جائرا في الحكم ما عدلا	لو كان يسمع في أحبابه عذلا
أو راح يضمر سلوانا بخاطره	عن مائسات قدود تخجل الأسلا
بل كيف يصحو غراما أو يفيق هوى	من بات بالأحور العينين مشتغلا
فما الهوى غير أجفان مسهدة	تهمي وقلب بنيران الأسى شغلا
ولا الغرام سوى وجد نكابده	إلى الحمى يا سقى الله الحمى نهلا
حتى دمشق سقاها غير مفسدها	صوب الغمام وروّى أرضها عَلَلا
حتى تظل بها الأرجاء باسمة	ويضحك النور في أكمامه جذلا
وخص بالجانب الغربي منزلة	لبست فيها الشباب الروق مقتبلا
مغنى الهدى ومغاني اللهو حيث به	مها إذا طلعت بدر السما أفلا
تلك المنازل لا شرقي كاظمة	ولا العقيق ولا شِعْب الغوير ولا
ما كنت لولا طلاب المجد أهجرها	هَجْر امْرِئ مغرم بالراح كاس طلا
ولا تخيرتُ أرض الروم لي سكنا	ولا تعوضت عنها بالصبا بدلا

وكل هذا في قصيدة مدح لأحد علماء الروم، مما يدل على هيامه الشديد ببلده وتصريحه كل آن بذلك، وهذا مما يكن أن نفرد عنه الحديث في عنصر مستقل، ولكن قبل أن نترك الحديث عن شعره في المدح، ينبغي أن ننبه على أن قصائده فيه كانت مسرفة في الطول، ويشبه هذا ما نجده عند مهيار الديلمي، وهو ما أخذه علماء النقد عليه، ولكن الطالوي كان على ما نعتقد مضطراً إلى ذلك، فهو من ناحية لا يستطيع تكرار عدة أوصاف محدودة هي كل ما يمكن أن يمدح بها العلماء، ولكنه من ناحية أخرى لا يستطيع أن يقدم قصيدة إلى أحدهم من عشرة أبيات إذ أن ذلك سيعتبر حَطًّا لقدره، أو عجزاً من الشاعر عن القول، ولهذا فقد كان الطالوي يلجأ إلى عناصر أخرى للتطويل، منها الغزل وشوقه إلى بلده وأحياناً وصفه لفرسه وهو ما يمكن أن يعد حشواً، ولكن تمتاز قصائده مع كل ذلك بالملاحة والسهولة وحسن الموسيقى، بحيث تحس أنك أمام مغن أو موسيقي متمكن من فنه، أو قارىء للقرآن يقرأ بنغمة معينة يُحافظ على الأداء بها، بحيث تتوقع وأنت تسمعه كيف سيقف على هذه الآية أو تلك، ولا تملك في كل إلا أن تستحسن تلاوته وطريقة أدائه.

أغراض أخرى من شعره:

ثمة أغراض أخرى كثيرة طرقها الطالوي في شعره، منها: حبه الشديد لوطنه وتشوقه دائماً إليه كما سبق أن ذكرنا، وله في هذا الغرض قصيدة سارت في البلاد وطارت في الآفاق لحسن ديباجتها وكثرة رونقها - كما يقول المحبى[1] وكان قد أرسلها من الروم إلى أصحابه من

---

(١) خلاصة الأثر ١٥٣/٢.

العلماء والأمراء المقيمين بدمشق، وأولها:

أَنُسَيْمَةَ الروضِ المطير بالعهد من زمن السرور

وهي قصيدة طويلة، عارض بها قصيدة المتنخل اليشكري المشهورة التي أولها:

إن كنت عاذلتي فسيري نحو العراق ولا تحوري

وقد عارضها كثير من الشعراء قبله، مثل الشريف الرضي في قصيدته:

نطق اللسان عن الضمير والسر عنوان الصدور

وأبي بكر الخوارزمي في قصيدته:

إن الألى خلف الخدور هم في الضمائر والصدور
وقع الغبار عليهم فغدا يتيه على العبير

وله غير ذلك قصائد كثيرة صادقة في هذا الغرض يصعب إيرادها هنا، فلتراجع في الكتاب، وبخاصة قصيدته:

شام برق الشام بالروم خدوعا فانبرت أجفانه تذري الدموعا
هب من عليا دمشق موهنا هبة المصباح في الليل ذريعا

وقصيدته:

ذكر العقيق فسال من أجفانه فاشتفه وجداً إلى سكانه
واشتم في ريح الصبا أرج الصبا فصبا حليف جوى إلى أوطانه

وقوله في قصيدة:

على الشام مني كلما هبت الصبا   سلام كنشر الروض طاب له نشر
بلاد كأنفاس الشمول شمالها   وتربتها مسك وحَصْباؤها دُرُّ
سقاها وحياها الإله معاهداً   سحاب دنو العهد وافى بها البشر

أما الأغراض الأخرى فمن بينها: وصف الطبيعة، ووصف رحلاته البرية والبحرية بين بلاد الشام وربوعها المختلفة ومصر والروم، ومنها الشكوى، والعتاب، والفكاهة، ووصف مجالس الأنس والإخوان، واستهداء الكتب، والأبيات التي تكتب على المنشآت العمرانية المختلفة من أسبلة ومساجد ومنها الأبيات التي تكتب في صدور الرسائل إلى غير ذلك من الأغراض التي يراها القارىء في الكتاب.

خاتمة

نود أن نقول فيها: إنه مهما أطنبنا القول في الحديث عن الطالوي، ذلك الشاعر الرقيق والكاتب المفتن، والذي كان يسمى في وقته «شامة الشام» فإننا نحس أننا لم نوفه حقه من القول، ولم نكشف عنه الغطاء إلا قليلاً، وما زال هناك متسع من الجهد لدراسته بأكثر مما فعلنا، وذلك لأن هذا الرجل الذي نشأ في عهد الحكم التركي وعاش في ظلاله وتحت سيطرته، امتاز بعدة مزايا كل منها يستحق دراسة كاملة، وهي:

١- أنه أعلى منار العربية، وحبب فيها الكثير من ناشئة الأدباء ببراعته في الشعر وما قاله فيه من رائع المعنى وحلو اللفظ ورائقه.

٢- أنه وثق العلاقات بين جمهور الأدباء في بلاد الشام ومصر والمغرب وبلاد الروم، وذلك بصلاته الواسعة بهم ومطارحتهم ومدحهم وتسجيل أخبارهم وأشعارهم.

٣- أنه أحب بلاده الحب كله، ودافع عنها ما أمكنه ذلك - ضد العتاة والظالمين.

٤- أنه احتفظ لنا بكثير من العوائد والأعراف والرسوم المختلفة لذلك العصر، كما احتفظ لنا بالتعريف بعدد كبير من الأعلام وتسجيل الكثير من الأحداث التاريخية التي تسهم في توضيح تلك الفترة وتزيد معرفتنا بها بياناً ووضوحاً.

٥- إنه حفظ لنا صورة فريدة لما كان يدرس في الجامع الأزهر ومصر من كتب العلم ونظام الإجازات والروايات وغيرها، مما يعد نموذجاً لما كان يدرس آنئذ في جامعات العالم الإسلامي كله من كتب وعلوم:

وأخيراً فلقد كشفت لنا دراسة الطالوي وتحقيق كتابه عن فقر شديد في دراسة المخطوطات وتحقيقها عن تلك الفترة، رغم ما بذل فيها من جهود، وعلى سبيل المثال فما زالت كتب المطارحات الأدبية - التي أشرنا إليها في مقدمة البحث - مخطوطة، وما زالت كتب كثيرة من كتب التراجم تتعثر بين النشر والطي، ومنها الموسوعة الكبيرة تاريخ دمشق لابن عساكر، وبغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم، وعن تاريخ مصر فما زال عقد الجمان لبدر الدين العيني مخطوطاً، وما زال كثير من دواوين الشعراء في الشام ومصر وغيرهما من أقطار الوطن العربي تنتظر أن تمتد إليها يد بالعناية والنشر، ولا يروعنا أنها من العصر المملوكي أو التركي، تلك الحقبة من الزمن التي وسمها المؤرخون بالانحطاط والتردي، فذلك حكم متعسف لا يقوم على دراستها بقدر ما يقوم على إهمالها جملة، ولقد رأينا كيف يتناول هؤلاء المؤرخون الفترات المتقدمة من عصر الأدب بالبحث والدرس ويعتنون بكل شاعر شاعر، أو أديب أديب، فإذا ما أتوا إلى العصرين المملوكي والتركي أطلقوا عليهما عبارات عامة مطلقة تلم شمل الجميع بحكم واحد هو التخلف والجمود.

وليس ذلك - بطبيعة الحال - عدلاً بالنسبة لعبقرية الإنسان، تلك العبقرية الخلاقة في كل العصور، وعلى مر الأعوام والدهور، منحة من الله الوهاب، وهبة غير قابلة للنفاد أو الزوال.

تحقيق الكتاب[7]

ثمة نسخ عديدة لكتاب السانحات في مختلف مكتبات العالم ، وحينما أسند إليَّ أمر تحقيق الكتاب تسلمت معظمه منسوخاً على الآلة الكاتبة ، كما تسلمت منه نسختين مصورتين عن المكتبة الأهلية بباريس.

النسخة الأولى : محفوظة تحت رقم ٤٤٤٢ عربي ، وقد كتبت عام ١٠٤٨ هـ ، برسم عالم الدنيا وواحدها ، خلاصة هذه الأزمان وماجدها . . . حضرة المولى محمد أفندي شيخ زاده .

وقد نسخت بخط نسخي جميل ، ولم يذكر الناسخ فيها اسمه .

وتقع هذه النسخة في سبعة وعشرين ومائتي ورقة ذات صفحتين ، وفي كل صفحة تسعة عشر سطراً ، وهي تنقص خمسين ورقة من أولها .

النسخة الثانية : لا تحمل رقماً ، وقد وافق الفراغ من نسخها غرة رجب الفرد من شهور سنة ١٠٦٤ هـ ، على يد (الحقير) زين الدين بن أحمد البصروي عفا الله عنه .

وتقع هذه النسخة في ثلاث وسبعين ومائة ورقة من ذات الصفحتين ، تنقص أيضاً أربعين صفحة من أولها ، فالنسختان تبدآن من مكان واحد ، مما يدل على أن هذا النقص تم بفعل فاعل ولم يتم اعتباطاً .

وعلى أي حال فقد تسلمت الجزء المنتسخ ناقصاً هذا الجزء من أول

الكتاب لأنه نسخ من إحدى النسختين، وقد تبينت فيا بعد أنها الأولى، وكان عليّ أن أبحث عن نسخ أخرى لتكملة النقص.

ولحسن الحظ فقد وجدت في معهد المخطوطات نسختين من الكتاب، إحداهما نسخة مكتبة البلدية بالاسكندرية رقم ٢٥٢٢ د المحفوظة بالمعهد تحت رقم ٤٥٤ أدب، وهي مكتوبة بخط نسخ عادي.

والثانية: هي نسخة المؤلف التي كتبها بخط يده، وكانت هذه هي أهم النسخ بطبيعة الحال، وقد فرغ المؤلف من كتابتها عام ١٠١٣ هـ، أي قبل وفاته بعام واحد.

وقد كتبت النسخة بخط تعليق (فارسي) جميل مضبوط بالشكل في مواضع كثيرة وتقع في عشرين ومائتي ورقة، ذات صفحتين، وفي كل صفحة واحد وعشرون سطراً.

وقد اعتمدت على هذه النسخة في التحقيق، وراجعت النسخ الأخرى مثبتاً الفروق الموجودة في بعضها إذا مثلت فائدة للقارىء.

أما التحقيق فقد بذلت فيه كل الجهد، وقد حاولت أن أحقق فيه الأهداف الآتية:

١ - التعريف بالأعلام الواردة في الكتاب، وقد اقتضاني هذا جهداً مضنياً في بعض الأحيان، فالكثير من الأعلام وارد بطريقة مختلفة

هنا عنه في كتب التراجم أو العكس وكتب التراجم عن هذه الفترة شحيحة في تيسرها بين أيدينا، وشحيحة في تذييلها بالفهارس النافعة إن كانت هذه موجودة أصلاً.

٢ - لم آل جهداً في ضبط الشعر وتخريجه وإثبات الفروق في الروايات إن وجدت، وشرح الكثير من الألفاظ أو الصور البلاغية تيسيراً للقراء غير المتخصصين الذي يحبون الاطلاع عليها ويؤودهم أحياناً ما يرون فيها من عسر.

هذا فضلاً عن ترجمة ما ورد في الكتاب من شعر بالفارسية، وقد ترجمهُ لنا أحد الزملاء الأفغان.

٣ - بالنسبة لرحلة المؤلف إلى مصر وما لاقاه فيها من علماء وما رواه عنهم كتب، اعتنيت عناية خاصة بالتعريف بالكتب التي أوردها وهي كثيرة جداً وبالعلماء الذين ألفوها وأثبت هذا كله في الهوامش لتكوّن تحت يد القارىء فكرة حاضرة عما يقرأ.

وأنا أفضل هذه الطريقة التي اتبعها أسلافنا وأساتذتنا من شيوخ المحققين، ولا أؤمن بتقديم الكتاب خالياً من أي جهد سوى بعض التعليقات التافهة في فروق النسخ، على حين يكون القارىء متعطشاً إلى شرح لفظة أو الإبانة عن حادثة وردت لإشارة إليها، فلا يجوز أن يضرب المحقق عن ذلك صفحاً، بحجة عدم اثقال الهوامش بالتعليقات والحواشي، وكأن هذه الهوامش يغترفها المحقق من سَفَطٍ إلى جانبه، ولا يبذل فيها جداً يقتضيه

ليالي وأياماً طويلة فنأمره بالكف عن وضعها، ولا نراعي حق القارىء في فهم ما يقرأ، فليست هذه الكتب وقفاً على العلماء وحدهم، ولا ينبغي لنا أن نجعلها كذلك.

وأنا أدعو الله أن يكون عملي في هذا الكتاب لوجهه خالصاً، وأن ينفع به كما نفع بغيره مما حققته، فيفتح أبواباً منه لدراسة غيره من كتب تلك الفترة، وينشِّط على تحقيقها.

راجياً منه وحدهُ المثوبة والمكافأة، إنه حسبي ونعم الوكيل.

القاهرة في ١٢/١٠/١٤٠٠ هـ
٢٣/٨/١٩٨٠ م

د. محمد مرسي الخولي
معهد المخطوطات العربية

سانحات دمى القصر

في

مطارحات بني العصر

الجزء الأول

مُقدِّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم يا مُجري رُخَاءَ طِباع الإنسان، مُستَنّةً في طرائق البيان[1]، ومُجْري رَخاءَ صَنَاعَ الأذهان[2]، مفتنّة برقائق الافتنان؛ يا مطلعَ سوانح فِكَر الأفهام طلع كنوز الخبايا[3]، ومُودعَ بوارح فِقَر الأقلام خِلَع رُمُوز المزايا، يا مرسلَ سَرْح الخواطر ترتع فى رياض المعارف والعلوم، ومُنْهلَ سَوَامِ الضمائر تكرعُ من حياض اللّطائف والفُهوم، يا مُفعَم أكمام الأفهام من روائع زهراتِ الإبداع، ومُجنى باكورة أيانع ثمراتها يد الطباع، نتوسّل بالضراعة إلى جنابك المقدّس، أن تَرْوي القلوب من زُلال فيضك الأقدس، صلِّ على صاحب وحيك وأنبيائك، رسولِك طراز عصابة أنبيائك، خصِّص اللهم أنصار دعوته الكرام، الذّابين عن

---

(١) الرُّخاء (بضم الراء): الريح اللينة، وفي التنزيل العزيز: فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، ومستنة أي ماضية على وجهها المرسوم، مأخوذ من السنن وهو من الطريق نهجه وجهته.

(٢) الرَّخاء (بفتح الراء): السعة أو العدد الشديد، والصناع: المهر في الصناعة من علم أو فن.

(٣) السوانح: جمع سانح، وهو الطائر الذي يأتي من عن يسارك إلى يمينك، وكانت العرب تتيامن به، كما أن البارح عكسه وهو ما كان يأتي من اليسار إلى اليمين، ولكن المقصود بها هنا ما تجودُ به القريحة من فكر.

عَقْوته إلى يوم القِيام، بظُبَتَي الأسنّة والأقلام[1]، بتحيةٍ تتمسكُ بأردافها رُوَيْحات السحر، ما نَثَتْ أحاديثَهم الحسانَ من النُّدِيِّ رواةُ خَبَر[2].

وبعد؛ فإن لبعض نُخَب الكلام سُلافةً تَحُلُّ من حُبَى الأحلام[3]، وتَهُزُّ من عِطف ذوي الأفهام، ولبعض عذارى كِلَل[4] الفصاحة رشاقةً قد تعشقها النفوس، ولعرائس خدور البلاغة صباحة خدٍّ يقال عندها: «لا عِطْر بعد عَرُوس»[5]، ومن حُسَّانة[6] تلك الأبكار الزواهر، وفَتَّانة هاتيك القدود النواضر، ما سمحت به قرائح ذوي البصائر، وسنحتْ من مُراد تلك الخواطر، من فصحاء العصر والأوان، هذا المصر الذين بهم يحلَّى جيدُ الزمان، ويُزْهى العصر والأوان، من أعيان الأفاضل، وأفاضل الأعيان، كما قلت فيما قلت:

من كلِّ أزهرَ بادي البِشْر، غُرَّتُهُ تلُوح في مُدْلَهِمَّاتٍ دَجَتْ وضُحى

---

(١) العقوة: الموضع المتسع أمام الدار أو المحلة أو حولها، وظبة السيف: حده.

(٢) نثت: انتشرت وذاعت، والندى: جمع ناد.

(٣) السلافة: أفضل الخمر وأخلصها، ومن كل شيء خالصه، والحبى جمع حبوة وهو ما يلفه الجالس على ظهره ورجليه ليستند، فإذا طرب لشيء حل هذه الحبوة واهتز لما يسمع دون أن تعوقه الحبوة عن ذلك.

(٤) الكلال جمع كلة: وهي ستر رقيق مثقب يتوقى به من البعوض وشبهه.

(٥) هذا مثل يضرب لمن لا يدخر عنه نفيس، وقيل في شرحه؛ إن رجلاً تزوج امرأة فوجدها تفلة (ليست طيبة الرائحة) فسألها: أين الطيب؟ فقالت: خبأته. فقال لها: لا مخبأ لعطر بعد عروس، فذهبت مثلاً. انظر مجمع الأمثال ٢/٢١٢.

ولكن المؤلف يستعمله هنا بمعنى: لا عطر يعتد به بعد عطر العروس، فهو يفوق كل ما عداه من العطور، كذلك فإن جمال عرائس البلاغة وصباحة خدها تفوق كل ما علاها من جمال، ومن الواضح أن هذا المعنى يختلف عن معنى المثل الأصلي.

(٦) الحسانة: الشديدة الحسن، وسوف يستعمل المؤلف هذه الكلمة كثيراً في شعره.

وكنت في ريعان الشباب، وغشيان بلوغ الأتراب، حيث بُرْدُ الصّبا قشيب، وغُصن الحداثة رطيب، كما قيل:

وحيث الحِمَى روضٌ وسكانه ظُبى وحصبــاؤه دُرٌّ وبَهاؤُهُ وردُ[1]

طارحت كُلّاً من تلك العصابة، رامياً من بينهم الغرض عن قوس الإصابة، جارياً معهم في حَلْبة هذا المضمار إلاّ صُبابة، ممن ظُنَّ هناك:

وليس له منها نصيبٌ ولا سهمُ

ثم إنّي رميت تلك المطارحات مطارح الصَّبا[2]، وفرّقتُ هاتيك المراسلات أيادىَ سَبا[3]، وأوسعتها قِلَى وهَجرا، وأقمت على ذلك دهراً، أَعُدُّها فُضولا من القول وهُجرا، لما عليه الدهر من عادته القديمة، ونُبُوّ طباعه الغير مستقيمة، كما أشار لهذا المرام، أثناء نثره البديعُ[4] النظام، إذ جفوةُ الحظِّ داءٌ شكتْه الأفاضلُ قديم، وعادةٌ مُعْوجَّة لا تكاد بالثِّقاف تستقيم، فبينا هو ينظر لأمثالي بوجه عبوس، ويَشُنُّ عليه من الغارة ما يُنسيه حربَ البسوس[5]، إذ ظهر البشرُ من

---

(١) البهاء: الحجارة الملساء.

(٢) الصَّبا بفتح الصاد: الريح اللينة، والمؤلف يقصد هنا أنه ترك مراسلاته تلك نهباً للرياح دون اهتمام بجمعها.

(٣) أيدي سبا وأيادي سبا: أي متفرقين، وأصله من قصة سبأ وسيل العرم الذي فرق أهلها، كما ورد في القرآن الكريم، وانظر ثمار القلوب ٣٣٧.

(٤) يشير بهذا إلى بديع الزمان الهمذاني، الذي كتب رسالة في ذم الدهر أصبحت مشهورة بين الأدباء، انظرها في يتيمة الدهر ٤/٢٧٠ - ٢٧١.

(٥) حرب البسوس: حرب استمرت أربعين عاماً بين قبيلتين من أكبر قبائل العرب هما بكر وتغلب، بسبب عقر كليب بن وائل التغلبي ناقة كانت مع البسوس بنت منقذ التميمية التي كانت تزور أختها من بني تغلب فغضبت لذلك واعتبرته إهانة وإذلالا لها، فقام ابن أختها =

أسِرَّته، واستنارت الغُرَّةُ من جبهته، يستضيءُ بضيائها النَّيِّران، ويستنيرُ بنورها القمران، حتى ألقت بمحروسة دمشق الجِرّان[1]، وأفاضت على بنيها سِجال اللُّطف والإحسان، وخَصَّت أهل الأدب من بينهم بلطائف الامتنان، ولا غرو فإنها المتخلقة بالصفات الرحمانية، والمتسوِّرة من النوع سُور الإنسانيـة، المتشعبـة أغصانها من الدوحة البستانية[2]، فلعمرى هي التي عطرت أندية الفضلِ طيبا، وأعطتْ بنى الآداب من الرَّوْحِ نصيبا، وجذبت بضَبُعَي[3] القريض، عن مقام الذِّلة والحضيض، ورفعتْ له بين الأنام قدراً، وأعلتْ له في الخافِقَيْن ذكراً، حتى التحق محلُّ الشِّعرِ بالشِّعْرى، وكيف لا؟ والفضل أَرَجٌ بغير ثيابه لم يَعْلَق، والأدب صَبٌّ سوى تُراب بابه لم يَعْشق، لا جرم بعثني حسنُ ذلك ٣ ب الالتفات، أن أجمعَ ما تفرق من تلك المراسلات والمطارحات، ناظماً ما انتثر من عقودها بيد الشتات، فجمعتها تذكرةً لمن تذكّر، وتبصرةً لمن تبصّر، بعد أن وشّحتُ أعطافَها بما يُخجِل عقود الدُّرر، ويُزري نظامه بِسقاط[4] حديث السَّمر فى القمر، من لوامع غرر القصائد، وروائع درر الفوائد، لشيخنا العلامة الأستاذ الإمام شيخ الإسلام أبي الفتح محمد

جساس بن مرة وهو أخو جليلة زوج كليب بقتله فنشبت لذلك حرب مريرة بين القبيلتين، انظر في ذلك مجمع الأمثال ٣٧٢/١، والعقد الفريد ٢٠٠/٥.

(١) ألقى جرانه في موضع: ثبت فيه واستقر، أو وضع ثقله فيه.

(٢) يقصد بالدوحة البستانية، صديقه المولى محمد بن بستان قاضي قضاة دمشق، الذي سيأتي ذكره فيما بعد.

(٣) الضبع: هو من الإبط إلى منتصف العضد وهما ضبعان، وجذبه من ضبعيه كناية عن التمكن، أي من موضع متمكن فيه منه.

(٤) سقاط الحديث: تبادله بين الجلساء، يقال ساقط فلان فلاناً الحديث: تكلم أحدهما وسكت الآخر ثم تكلم الساكت وأنصت الآخر، وهكذا.

بن محمد بن عبد السلام المالكي[1] مذهبا الصوفي مشرباً، التونسي مولداً، المغربي محتداً، وما أملاه عليَّ من نُخَب الأشعار، ومُنْتخب الأحاديث والأخبار، لأدباء الأعصر الغابرة، وما اتّفق للبعض فيها من النّكاتِ النادرة، سيّما ما نظمه في المسائل العلمية، واللطائف الرائعة الأدبيّة، مسؤولاً فى ذلك من أُهَيْل عصره، وأدباء الآفاق سيّما شامه ومصره، وذلك أثناء قراءتي عليه فى بعض الفنون، وما حدثنى به من فيه، والحديث كما قيل شُجُون، سقى الله ثراه صَيِّب غفرانه، ولقّاهُ الغُرْفَة من جِنانه، وسميتها «سانحاتُ دُمى القصر، فى مطارحات بني العصر»، وذلك في عام إحدى وثمانين وتسعمائة، ثم أضفت بعد ذلك إلى ما جمعتُ ما اتفق لى كتابته إلى بعض الموالي ممن له شان، ومشايخ هذا العصر والأوان، بالديار الرومية والشامية، والقاهرة المعزِّية، وما سُئلت فى عمله من مكاتبات فائقة، ومراسلات رائقة، عن لسان بعض العلماء الأجلاء، والأهالي من الأخلاّء، في أزمنة مختلفة، ووقائع شتى غير مؤتلفة، سيما بدار الخلافة السنية، قسطنطينية المحمية، وقد انتظمتُ في سلك علمائها، وقارنتُ فيها بدور سمائها، وها أنا الآن فيهم وما أنا منهم، لما سأخبرك إنْ سألتَ عنهم، وقد أَفَلَتْ عن سمائها تلك الشموس الطوالع، وغُيِّبتْ بُدُورُها عن هاتيك المنازل والمطالع، واستسرَّتْ بيدِ المَحَاقِ غُرَرُ أقمارِها، وأظلمتْ جيوبُ الآفاق بمحو أنوارها، وما ذاك إلاّ باندراج من كان فيها من أساطين علمائها، وأفاضل مواليها، وانتقاص أرضِهم من أطْرافها، بموت أولئك الرُّؤساء من أشرافها، فى زمانٍ لم يكن في القِصَر، إلاّ كلمح البَصَر، أو كطرفة عين، حتى صارُوا أثراً بعد عين:

(١) سوف نذكر ترجمته عند ذكر المؤلف لجملة من شعره وأخباره فيما يلي.

جَرَتِ الرياحُ على ممرِّ ديارهمْ — فكأنّهم كانوا على ميعادِ
أتى على القوم أمرٌ لا مردَّ له — حتى قَضَوْا فكأن القوم ما كانوا
وصار ما كان من علمٍ ومن أدبٍ — كما حكى عن خيال الطيف وسنانُ

لا جرم وقد بلغ الأمر إلى ما ترى، وسترى أن زال ما سترا، اتخذ الناسُ رؤوساء جُهَّالا كما ورد في الحديث[1]، فحقتْ عليهم كلمةُ (ومِن النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الحديث)[2]، وإن كنتَ مما قلتُه في رَيْب، فاستجْلِ من سِرِّ حروفها الغيب، تجدْها ناطقةً بيِّنة، فلا تَرُمْ بعدها بينة، فلهذا أصبحت مدارس الروم، فوضى ما بين اغربة وبوم[3]:

وشر ما اقتنصته راحتي قنص — شهب البزاة سواء فيه والرخم
بل شر ارض بلاد لا صديق بها — وشر ما يكسب الانسان مايصم[4]

---

(١) من قوله صلى الله عليه وسلم «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق أحد عالماً اتخذ الناس رؤوساً جُهّالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» انظر صحيح البخاري باب العلم ٧، وصحيح مسلم باب العلم أيضاً ١٣، ١٤، والترمذي ٤، وابن ماجة المقدمة ٨.

(٢) سورة لقمان، الآية ٦، ويعقب المؤلف في هامش الصفحة بقوله: قيل نزلت في النضر بن الحارث، اشترى كتب الأعاجم وكان يحدث بها قريشاً، ويقول «إن كان محمد يخبركم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار والأكاسرة»، وهو أحد الأقوال في شرح قوله تعالى «لهو الحديث» وثمة أقوال أخرى، أهمها: إن المقصود به الغناء، انظر تفسير القرطبي ٥١٣٣/٥٦، وتفسير أبي حيان ١٨٤/٧.

(٣) يشارك الشهاب الخفاجي صاحب كتاب ريحانة الألبا المؤلف رأيه فيما وصل إليه الحال في عاصمة الدولة العثمانية، من انعدام العلماء واستيلاء الأدعياء على مراكز العلم في الدولة، وكتب في ذلك فصلاً كاملاً، انظره في الريحانة ٢٨١/٢ - ٣٠٧.

(٤) البيتان للمتنبي، ديوانه ٢٧٧، والشهب: الذي يخالط بياضها سواد، والبزاة، الصقور، والرخم: طائر غزير الريش أبيض اللون مبقع بسواد، يشبه النسر، لكنه ضعيف القدمين والمنقار.

تسوَّرُ محاريبها البيضِ سودُ الزنوج، وتنزو عليها كالقردة حمرُ العلوج، أما تراها الآن بين أسود نوبيّ، وأحمر من بني أصفر شعوبيّ، كما قلت فيما غبر:

لا دارسٌ عندها سوى طَلَلٍ　　تعرفُـــه العـــينُ ثم تنكِرُهُ

جَلَّتْ جُثثُهم، ودقّت أحلامهم، فإذا رأيتَهم تُعْجِبُك أجسامهم، صيغتهم في الجموع جمع تكسير، وآيتُهم فى البحث إن أنكر الأصوات لصوت الحمير:

في شجر السَّرْوِ منهمُ مَثَـــلٌ　　لَـــهُ رُوَاءٌ ومالـــه ثمرُ[1]

فرحم الله أبا الطيب الجُعْفيّ[2] فكأنما نظر إليهم من طَرْفِ خفيّ، حيث نطق عن مثل هذه الحال؛ بلسان المقال، حيث قال:

تشابهــتِ البهــائمُ والعِبِــدَّى　　علينــا والموالِــي والصَّمــيمُ[3]
كــأنَّ الأسْوَدَ اللابــيَّ فيهمْ　　غُــراب حولـــه رَخمٌ وبومُ[4]

---

(١) البيت في بهجة المجالس ١/١٨٢.
(٢) هو المتنبي كما لا يخفى، وبيتاه التاليان في ديوانه ٤٣٠، من قصيدة في هجاء كافور الأخشيدي والي مصر.
(٣) العبدي: جمع عبد، والموالي جمع مولى، وهو الذي كان عبداً فعتق، والصميم: الحر الخالص النسب، وهو يقول: عم الجهل الناس حتى لحقوا بالبهائم، وملك الموالي حتى التبسوا بالأحرار، وفي الأصل: الصريم بدل الصميم ولا معنى لها في هذا المقام.
(٤) اللابي: نسبة إلى اللاب وهي بلد بالنوبة.

العلّامة عبد الحليم أخي زاده

هذا، وقد أسأر منهم الدهرُ، في إناء هذا العصر، صُبَابَةَ سَادة، وبقية قادة، هم الآن - واللهِ - حَلْيُ جِيده، وواسطةُ عِقْدِ فريده، من جمع بين أشْتات الفضائل وكَرَم الخِيم، كالعلَّامة أخي زاده عبد الحليم[1]، الذي قلتُ فيه من قصيدة غَرَّاء، وفريدةٍ عذراء:

علّامـةُ الروم قاضي العسكرين بها ... مَنْ حُكمهُ في القضايا تَابع القدرِ

عبدُ الحليم أخي زادةَ الذي تُليت ... فينـا مناقبـهُ كـالآي والسُّورِ

محمـدُ الاسـم ميمون النقيبة في ... أسِرَّةِ الوجـه منـه طلعةُ القمرِ

وسأفرد له بعد هذا دفتراً في ذكر مآثره، موشّحاً أعطافه بعقود محاسنه ومفاخره، بمثلها تُشنَّفُ آذان الدَّهر، وتَحْسُدُ فيها اللَّبةُ[2] الجيدَ والنَّحْر، ولا كزواهرِ دُرَرٍ نَظَمَتْها يراعةُ براعته، وجواهِرِ فقر نثرتها على الأسماع روايةُ عبارته، وقد شاهدتُها بالروم عام عشرة بعد الألف حين أنشاها، وماء البلاغة يكاد يقطر من مُحَيّاها، فكأنّها روضةٌ سقاها نوءُ الثريّا، فأصبحت بمياه الحسن ريّا، أو خميلةُ وادي الأَرَاك[3]، باكَرَها

---

(١) عبد الحليم أخي زاده بن محمد القسطنطيني الحنفي، فقيه، مشارك في بعض العلوم، ولد بالقسطنطينية عام ٩٦٣ هـ ونشأ بها، وولي قضاء العسكر، وتوفي سنة ١٠١٣ هـ، من تصانيفه: رياض السادات في إثبات الكرامات، للأولياء حال الحياة وبعد الممات، وشرح الهداية للمرغيناني في فروع الفقه الحنفي، وتعليقة على الأشباه والنظائر في الفقه لابن نجيم. انظر خلاصة الأثر ٢/٣٢٢، هدية العارفين ١/٥٠٤.

(٢) اللبة، القلادة التي تحيط بالعنق أو واسطتها، أي الجوهرة الفريدة في وسطها.

(٣) الأراك جمع واحدته أراكة، وهي شجرة المسواك: شجيرة كثيرة الفروع رقيقة الأعواد متقابلة الأوراق، لها ثمار حمر داكنة تؤكل.

وسميُّ السِّماك[١]، إذا لحظتها الأعين. فيا خجلةَ الرَّوض الأريض، أو تشنَّفتْ بها الأسماعُ فيا خيبة مَعْبَدِ[٢] والغَرِيض[٣]، فهي فوق ما قلت فيها، من دون واصفيها:

لِلَّـهِ ما فِقَرٌ في الطـرس تحسبُها ... وسْطَ البياض سوادَ العينِ والبَصَرِ
أو كالرياض كستْها السُّحْبُ ساريـةً ... مطـارفَ الوشي أو موشية الحَبَرِ
مثل الكواكب ليلا قد طلعْن على ... نهر المجرَّة أو كالروض ذى الزَّهر
تودُّ لو حلَّت الجوزاءَ من شَغَفٍ ... فيها النطاق وإن أمستْ على خطر
كـأن دُرَّ يواقيـتِ الحسانِ به ... قد رُصِّعتْ في الحواشي موضع الظُّفُرِ

أدام الله سعده، وخلّد عافيته ومجده، ولا برحَتْ شموس العلوم طالعةً من سماء فضله، وبدور الفضائل مشرقةً فى آفاق عدله، آمنة من وصمة النقص وصفة الزوال، محفوظة عن وسْمة التحول وسمة الانتقال، ٥ ب/ ما رَقَى خطيبُ يراعة منبرِ بنانِ أديب، واختلفتْ أسجاعه ما بين نطق وبيان غريب.

هذا وقد آن لنا أن نُصَرِّفَ عنان القلم إلى ما أسلفناه سابقاً ثم نُجريه

---

(١) الوسمي: مطر الربيع الأول، والسماك واحد السماكين، وهما نجمان نيران في السماء.

(٢) هو معبد بن وهب المدني، نابغة الغناء العربي في العصر الأموي، مولى بني مخزوم ويقال مولى ابن قطن مولى معاوية، نشأ في المدينة يرعى الغنم لمواليه وربما اشتغل بالتجارة، ولما ظهر نبوغه في الغناء أقبل عليه كبراء المدينة، ثم رحل إلى الشام فاتصل بأمرائها وارتفع شأنه، وكان أديباً فصيحاً، أصواته وأخباره كثيرة، انظرها في الأغاني ٥٩/٣٦/١.

(٣) اسمه عبد الملك، ولقب الغريض لنضارة وجهه وجماله، كان من مولدي البربر، ويعد من أشهر المغنين في صدر الإسلام، ومن أحذقهم في صنعة الغناء، سكن مكة وغنى سكينة بنت الحسين، وكان بارعاً في الضرب على عدة آلات، إذ كان ينقر بالدف ويوقع بالقضيب ويضرب بالعود، انظر أخباره في الأغاني ٣٥٩/٢.

في مضماره بما وعدناه لاحقاً، بإعطائه بداهته في جريه وقصده، وحمله على عُلالته من كَدّه ووُكْدِه[1]، ومن الله العصمة والتوفيق، إلى أعدل جادّة وأقوم طريق.

في تهنئة محمد بن بستان بقضاء الشام

فمن ذلك ما كتبتُه إلى الحضرة العلية، والدوحة الساميّة السنيّة، الضاربة سُرادقَ مجدها على فَرْقِ الفَرْقَدين وهامة كيوان، حضرة المولى محمد بن المولى بستان[2]، وقد تشرَّف به قضاءُ دمشق الشام، عام واحد وثمانين وتسعمائة،

بما لدى موقفُ التوديع قد كانا	يا دارُ إلَّا أبنتِ القول تبيانا
ما غالها الفِكْرُ حتى صرتِ مألفةً	للرَّامسات تُعَفِّي منكِ أركانا
فأين عهدُ الحِمى كنّا نلوذ به	من عهدتُ وأين الحيُّ مُذْ بانا
حيث المعالمُ والأطلالُ مشرقةٌ	لا ترتضي أنجمَ الجوزاء سُكَّانا

---

(١) المضمار: حلبة السباق، والبداهة: أول الجري، والعلالة: الجري المستمر، أو الجري بعد الجري، والكد: الجد في العمل، والإلحاح في محاولة الشيء، والوكد السعي والجهد، ويقال: هذا وكدي أي فعلي.

(٢) هو محمد جلبي بن مصطفى بن بستان قاضي القضاة بن بستان زاده، تولى منصب قاضي القضاة بدمشق سنة إحدى وثمانين وتسعمائة فقدمها وباشر الأحكام الشرعية بها، وكان لديه فضل زائد وتودد إلى الناس مع المداراة لهم، وعنده معرفة في دربة القضاء مع حسن أخلاق ولين جانب.

ثم صرف عن منصبه سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة.

انظر قضاة دمشق ٣٣٢.

أيامَ أهصِرُ غُصْنَ القدِّ فيْنانا وأجتني من ثمار الوصل ألوانا
يا منزلاً بجنوب الغُوطتين غدا يَهيجُ للصَّبِّ بالتّذكار أشجانا
هل راجعٌ ليَ ماضٍ من جديد هَوًى أبليتُه في رُبَى مَغْناك رَيْعانا
إنْ أخلفتْ منك أخلاف السَّحاب رُبَى
فلي دموعٌ ترَوِّي رسمك الآنا
كأنها في عِراصِ الدار هامِيةٌ نوءَ السِّماكين تسقي الرَّبْع تهتانا
ويا شباباً كطيفٍ زارنى ومضى هل كنت إلاَّ لعين اللهو إنسانا
عَهْدى بربعك حُسَّانُ المرابع من حُسَّانةِ الجيد تُولي الحسن إحسانا
ساجِيَّةُ الطرف[1] من أتْراب غافلةٍ ترنو إليك بلحظ الرِّيم وسنانا
هيفاءُ صَبَّ الصِّبا ماءَ الشباب على أعطافها وكساها الحسنُ فتّانا
رُعْبُوبةٌ ذاتُ فَرْقٍ لو يُقابله[2] بدرُ الدُّجى لاختفى في الأفق خجلانا
تَفْتَرُّ عن ذي لَمًى أشهى إلى كبدي[3] من الزُّلال وقد وافيتُ ظمآنا
لم أنْسَها إذ خطَت نحوي تعانقني والبينُ يبعثُ في الأحشاء نيرانا
أهوتْ بقامتها عند الوداع إلى صَبٍّ غدا لفراق الإلف حيرانا
وقد تساقط دُرُّ الدمع منتثراً بينا يُرى لؤلؤاً إذ صار مَرجانا
تقول والبَيْنُ قد زُمّت ركائبه والدمعُ يجرى على الخدَّين طُوفانا:
بما لدى موقف التوديع قد كانا إلاَّ عَمرْتَ برُجْعَى منك أوطانا

---

(١) ساجية الطرف: أي ذات طرف فاتر ساكن.
(٢) الرعبوبة: الغضة الطويلة المتلئة الجسم، أو البيضاء الحلوة الناعمة، والفرق: ما تقسم به المرأة شعرها قسمين، ويكون رائع الحسن إذا كان أبيض في وسط شعر حالك السواد.
(٣) اللمى: سمرة في الشفة تستحسن.

فقلتُ: لا والذي سَوّاك إنسانا ... أو تلجىء لِحِمَى ظلٌّ ابن بستانا
قاضي قضاة دمشق الشام سيدُنا ... كنزُ الهدى عَلَمُ الإفضال مولانا
وافى حمى روضها الزّاهي فحلَّ بها ... أمنٌ ويمنٌ حِمَى سكّانَها صانا
وغرَّد الطيرُ في أرجائها سَحَرًا ... بروضةٍ انبتتْ ورداً وريحانا
فأصبحتْ من جنان الخلد جَادَ بها ... رضوانُ يبغى من الرحمن رضوانا
لما رَسَا طودُ عِلْمٍ في معالمها ... أقرَّ كلٌّ له بالفضل إذعانا
بَحَبْوتيْهِ يبيتُ الحِلم معتصماً ... إذا أطارتْ رياحُ الطيش ثَهْلانا
لا تزدهيه من الدنيا مطامِعها ... ولا يُرى بسوى الإحسان جذلانا
يجرُّ ذيل فخارٍ ما تعلّقَهُ ... سوى العفاف برأي لُبُّه صانا
بهمّةٍ في سماء المجد ساميةٍ ... لا ترتضي أنجم الأفلاك اخدانا
وطلعةٍ زانها الباري بقُدرته ... فخطَّها لكتاب الحسن عُنوانا
وراحة كالسحاب الغرِّ وقع ندًى ... لو لم يكن خُلَّب الأنواء خوّانا
وحسنِ خُلْقٍ كزَهْرِ الرَّوض مُزدانا ... لو كان حُلْو الجَنَا بالبشْر ملآنا
وخاطرٍ لو سرى فى ليل غامضةٍ ... أعيتْ من القوم ألباباً وآذانا
أضحت تُجَلّى لدى الأفهام مُسْفِرَةً ... عن وجه أوْطَفَ ساجي الطرف نعسانا
ومنطق لو وعى سحبانُ منطقه ... يوماً لأسحب ذيل العِيِّ سحبانا
حلاّلُ مُشكلة فتّاح مُقْفَلةٍ ... كشّافُ معضلةِ الأفهامِ عِرفانا
يا أيها الفاضل المُغْني بمنطقه ... مصاقعَ العُرب عدنانا وقحطانا
لك اليراعُ الذي يحكي تسارعُه ... وقد مشى فوق مَتْن الطرس ثعبانا
طورا نراه على الأرواح محتكما ... وتارة يَهَبُ الأرواح منّانا
مولاي يا كعبة الفضل الذي وقفت ... ببابها نُجُبُ الآمال ركبانا
وخير منتجع أمّتْ نداه على ... نأي الديار مطايا العزم أظعانا

ما البحر ملتطماً والدهر معوانا | والليث منتقماً والغيث هتّانا
أندى يداً منك أولى منك عارفةً | أمضى شَباةً أدنى منك إحسانا
وهاكها غادةً صِغر الوشاح خَطَتْ[1] | إلى حِمَى عالِمٍ لم يَرضَ أقْرانا
حِمَىً غدا معقِل الأهواء متّشحاً | بالبيض والسمر أسيافا ومُرّانا[2]
ذخرٌ لقاصِدِهِ روضٌ لرائده | بَحْرٌ لوارده وافاه عَطْشانا
مأوًى لعارفةٍ مثوًى لعاطفةٍ | مَغنًى لسالفةٍ عَيْشِي بها لانا
خوطيّة[3] ما انثنى خَطّيٌّ قامتها | إلا وأخجل وسط الروض قُضبانا
تبغي قَبولا وترجُو منك عاطفةً | نحو امرئٍ وُدُّه بالمذق ما شانا
عُبَيْدُ بابك نجلُ الطالويِّ فقد | أخْنَتْ عليه يدُ الدهر الذي خانا
وليس شكواي إلّا من بنيه وإن | كَنَيْتُ عنهم به فأفطن لما كانا
٧ أ ومَنْ سواك لهذا الأمر يا أمَلي | فامنُنْ وكنْ لى على الأحداث معوانا
والأبْ لما أثأتِ الأيام من دَنَفٍ[4] | لا زلتَ ترفعُ للمعروف بُنيانا
وأسلَمْ ودُمْ ماسرى نجمٌ وما طلعتْ | شمسٌ وهزّ نسيم الروض أغصانا
وناح بين رياض الغوطتين ضحًى | قمريٌّ مُقْرًى لإلفٍ وامتطى بانا[5]

---

(١) الوشاح: ما يتشح به القضاة أو رجال النيابة من قماش يوضع على العاتق (وهو ما بين العنق والمنكب، إلى الكشح وهو ما بين الخاصرة والضلوع)، وقد تلبسه المرأة للزينة، وصغره كناية عن لطافة جسمها ودقته.

(٢) المران: الرماح الصلبة لدنة، واحدته مرانة.

(٣) الخوط: كل قضيب ما كان، والخوطية: الخفيفة الحسنة الخلق الممشوقة القد.

(٤) الثأي: الصدع والكسر، ورأبه: لأمه وأصلحه، والدنف: المرض الشديد، والمقصود به هنا الفقر والحاجة إلى المعروف.

(٥) القمري: نوع من الحمام مطوق حسن الصوت، ومقرى لإلف: أي مشتك ما به من ألم أو جوى لأليفه.

وكتب يطلب خدمة القسمة

ومما كتبتُ به إلى جنابه الرفيع، وبابه المنيع، أيضاً في التاريخ المذكور بدمشق الشام، وقد انتظمتُ في سلك خَدَمِهِ، ورتعتُ في مراد كرمه، مُعرِّضاً أثناءها لخدمة القسمة[1]، قولي:

ذنــبٌ إلى الدهر مالــه شافعْ ونَبْوَةٌ مــا لخَطْبهــا دافــعْ
فضــلٌ بَعيــدُ المنــال يَصْحبُــه قلــبٌ ذكيٌّ ومنطــقٌ رائــعْ
وشيمــةٌ شأنُهــا الوفــاءُ إذا خــان زمــانٌ أُهَيْلَــهُ خانــعْ
فعادهـــا تُمْسِي في بُلَهْنِيَـــةٍ وخفْــضِ عيشٍ فنــاؤُهُ واسعْ
واهجُرْ دُروس العلوم هجر قَلىً فهي عــن الرزق مانعٌ قاطعْ
واجْفُ أخا الفضل كي تنال مُنى واصحب أخا الجهل يَسْعَدِ الطالعْ
فمن يكن فـى الزمان ذا أدبٍ يأكـل ما عاش فى مِعًى ضائعْ
والشعر فاطرقْـه كم طرقتُ به آذانَ قوم فــلم تجــد سامــعْ
من كــل سيّــارة غـدت مثـلا حــدّثَ عنهــا المهذَّبُ البــارعْ
لا عيـب تُرمى به سَلِمتَ سِوَى جفوة حظ - وُقِيتَه - هاجعْ
أخرَّهــا دهرُهــا العَقُورُ إلى دهرِ بـذي الفضل لم يكن ساجعْ
بــه شموسُ العلوم قـد أفلتْ وأنجم الفضــل مــا لها طالعْ
سادتْ بـــه ثُلَّـــةٌ وأردفهـــا شاءٌ من النــاس هامــل راتع

---

(١) المقصود بها قسمة المواريث بين الرعية في محكمة القسمة، ويتولاها أحد نواب قاضي عسكر أفندي، انظر الإدارة في مصر في العصر العثماني ٤٥٢.

٧ ب ومغرمٍ بالعُلا نصَحتُ له | والدين نُصحٌ أتى به الشارع
دعْ عنك تَطْلابَه فغير فتى | يغترُّ منه بآله الخادع
وضَعْ عن النفس بعض ما حملتْ | من عبء دهر لِقَدْرها واضع
العَرَجُ فيه إلى السماء عَرجَتْ | أما ترى نَسْرُها غدًا واقع
تمسي بأيدي النَّوْكى مدارسُه | نُهبى ولا مانعٌ ولا دافع
لا دارسٌ عندها سوى طَلَل | ولا علومٌ بل معلِّمٌ خاشع
هذا وليلُ لَحْظِ سَاهِره | يلوح فيه المجرُّ كالشارع
تظلُّ فيه النجُومِ حائرةً | تمشي على الأفق مشية الظالع
أبيت لا أطْعَمُ الرقادَ به | على شباب من شرخي الرائع
عهْدى به والغرام يشفَعُه | والشرخ عونٌ إلى الهوى شافع
حُسَّانُ ربعٍ زاهى المعالم من | حُسَّانَةِ الجيد لحظُها خادع
طارحتها سَورة الزمان ومَا | مُنيتُ فيه من حظّي الوادع(١)
فقهقهتْ وانثنتْ مُعاتبةً | والعَتبُ للحُرِّ رادعٌ قامع
عجبتُ تشكو وقد رأيتُك في | روضِ ابن بُستان غُصْنه اليانع
قاضي قضاة الشآم سيِّدنا | من لم أزل في نواله طامع
خيرُ امرئٍ يَمَّمَتْهُ واخِدَةً(٢) | نُجْبُ الأماني من مهمهٍ شاسع
من دَوحة العلم مجد سُؤددها | كفضله في الورى غدا شائع
إليه أفضتْ علوم والِدِه | طاب ثراه فحازَهَا نافع
بهمةٍ لا يزالُ قائدها | عزمٌ يقدُّ المهند القاطع

(١) سورة الزمان: غضبه وبطشه، والوادع: الساكن الهادىء، والمقصود به هنا: الهابط الخامل.
(٢) الواخدة: السريعة الواسعة الخطو، وهي حال من نجب الأماني الآتية.

ومنطــقٍ لو وعــى فصاحَتَــه سحبــانُ أضحــى لنفسه باخع

مولّــى أياديــه جُودهــا هامِع وبــابُ ناديــه ملجــأ الفَــازع

إلى ذُراهُ أتيــتُ مشتكيــاً بــين يديــه لِقصّتي رافــع

دَيْنــاً على الدهر قد ألطَّ به[1] ألــدُّ خَصْمٍ عــلى الفتى رائعْ

من ذاك مــا الناظر البصير يرى توزيعَــهُ من عُلوفــة الجامــع

وحاجــةٌ ما في النفس ما قُضيَتْ عنهــا ســكوتي لديــكُمْ شافــعْ

إنجــاز وعــدٍ أوجبتُمُ كرمــاً لعبــدِ رِقٍّ ببابــكم خاضــعْ

رضــاه فــيما يراه سيــده فخــير عبــد بقسمــة قانــع

واسلم ودُم مــا رقتْ على فننٍ وُرْقٌ ومــا افتنّ في ربىً ساجعْ

تهنئة لعلي أفندى قيه لى زاده

ومن ذلك ما كتبتُ به من دمشق الشام، لا أغبَّ رُبَاها صيِّبُ غَمام، للحضرة العلية، والدوحة الزكية، حضرة علي أفندى الشهير نسبه الخطير بقيه لي[2] زاده، وأنفذتُها إلى جنابه وهو بالروم، وقد ولى قضاء عسكر المنصورة بولاية اناطولي سنة ثمان وسبعين وتسعمائة، قولي:

---

(١) ألط به: جحده حقه وأبى الإقرار به.

(٢) هو قاضي القضاة علي جلبي بن أمر الله قيلي زاده، كان عالماً فاضلاً، فقيهاً أديباً له معرفة جيدة بالأدب والتاريخ ومشاركة في بقية العلوم، تولى القضاء بدمشق سنة ٩٧١ والتقى بالشيخ بدر الدين الغزي الذي قال له بعد أن أجازه: ما دخل دمشق من القضاة أفضل منك، ورجحه على بقية علماء الروم في وقته، تولى قضاء مصر سنة أربع وسبعين وتسعمائة، انظر قضاة دمشق ٣٢٩.

رَبَعَ الغمامُ بِرَبع ذاك المنزل وسَخَا به نوءُ السِّماك الأعزلِ
وغدتْ عليه من الزمان نضارةٌ شُفِعت نضارتُها بشرخ مُقبِلِ
وكسا معالمه الربيعُ مَطارِفاً خُضراً تُسدّيها رياحُ الشَّمْألِ
ومشتْ بعقوته الرياحُ كما مشتْ صِرفُ الحُميَّا في مجاري المفصلِ
فلربما ارتبعتْ رباهُ فتيةٌ مثلُ البدور طوالعا لم تأفُلِ
طارحتُها قِدماً حديثَ صَبابةٍ وهو سُلافٌ كالسُّلاف السَّلسَلِ
حتى ارتقتْ شرفَ السيادة والعُلا وبقيتُ مُلقًى في الحضيضِ الأسفلِ
وَلْهَانَ في تلك المعاهد منشداً في إثرها حُزناً مقال مُفَضَّلِ
٨ب/ لله درُّ عصابــــــــــة نادمتُهمْ يوماً بجِلَّق في الزمان الأولِ[1]
حيث الشبابُ الغضُّ مقتبلٌ ولي بهوى الغواني غمرةٌ ما تنجلِي
ولقد وقفتُ على المعاهد سائلا عهدَ الشباب وخاب من لم يسألِ
وذكرتُ أيام الصبا فبكيتُها ذكرى حبيب يوم بان ومنزلِ
وغدوتُ أنشد في معالم رسمه والعين سكرى بالدموع الهُمَّلِ
حُيِّيتَ يا ربع الصِّبا من منزل وسُقيتَ ريعانَ الغمام المسبلِ
ورسا النسيمُ بساحتيك فأصبحتْ عَرَصاتُ دارك نزهة المتأملِ
يا منزلاً نَزَلَتْه أحداثُ النوى وخطوبُ دهر للصِّعاب مذلِّلِ
إن يُمسِ رَبْعُك مُبْدلاً من ديمةٍ بالرِّيم أو من طِفلَةٍ بالمُطْفلِ[2]

---

(١) البيت مضمن هنا، وهو لحسان بن ثابت من قصيدة طويلة في مدح الغساسنة ملوك الشام في الجاهلية، انظره في ديوانه. وجلق: اسم لمدينة دمشق.

(٢) الريم: الظبي الخالص البياض، والطفلة: المولودة ما دامت رخصة ناعمة وإلى حين البلوغ، والمطفل: ذات الطفل من الإنس والوحش.

فلقد شهدتُ بك الحسانَ كواعباً بيضاً طوالع كالبدور الكُمَّلِ
من كل غيداء التثنّي ألبستْ أعطافها بُرد الشباب المُسْدِلِ
رُودٌ سقاها الحسنُ ماءَ شبيبة فغدتْ كزهر الروض غاداه الولي[1]
قالت وقد بَصُرتْ بوجهي شاحباً أزجي الركاب إلى العلا بتنقلِ
أقفُ المُطِيَّ على الطول رواسماً أبكي رسوماً في محل مُحْولِ
أتروم إدراك المعالي جاهداً نِضْوَ القريض بمَعْلَمٍ وبمَجْهَلِ
تالله لن ترقى محلا سامياً حتى تُلِمَّ بصدر ذاك المحفلِ
هي حضرةُ المولى المعظَّمِ قدرُهُ قاضي العساكر مَنْ سَمَا شَرَفاً علي
مَنْ رأيُه للمهتدي ونوالُه للمجتدي وعطاؤه للمُرْمِلِ.[2]
كُسِيَتْ به الأيام ثوبُ نضارةٍ وغَدَتْ تميسُ من الغضارة في حُلِي
فأتت به كالبدر ليلة تِمِّهِ متهلّلا كالعارض المتهلّلِ
طلقُ المحيا قد علتْهُ مهابةٌ فكأنه من نورها في جَحْفَلِ
٩ أعفُّ الإزار يجرُّ أذيال التقى والدينُ بالرأي الأسَدِّ الأكملِ
لا تزدهيه مطامع الدنيا ولا يرنو لزخرف حسنها المتعجلِ
بنداه أمسى الجود مُلْقِ رَحْلَهُ لما اغتدى فيه محطّ الأرحلِ
بوأتُ أطماعي به فكأنما بوأت رحلي في المَرَادِ المُبْقِلِ[3]
يا من له قلم شباةُ قناتِه امضى وقوعاً من شباة المُنصُلِ[4]

---

(١) الرود: التي تسير في تمهل وتؤدة، والولي: المطر يسقط بعد المطر.
(٢) المرمل: من نفد زاده وافتقر.
(٣) المراد: اسم مكان من الفعل راد أي طلب، يقال: راد أهله منزلاً وكلأً، والمبقل: الذي نبت فيه البقل، والمقصود به أي زرع يصلح للمرعى.
(٤) شباة الشيء: حد طرفه، والمنصل بفتح الصاد وضمها: السيف.

إن يُمْطِهِ الخمسُ الجداول مُفْرغاً من بحر فكرٍ فيه دُرُّ المِقْوَل[1]
خضعتْ له فرسانُ كلِّ بلاغةٍ وسطا بناديها لخطبةِ فَيْصلِ
حتى يُرى عبدُ الحميد حميدَ[2] ما أنشاه من إنشاء حُسن ترسّلِ
وابنُ العميد عميدَ نشر بلاغة[3] في طيِّها دُرُّ النظام المرسَلِ
لك هضبةُ العلم التي فرعتْ عُلاً هَامَ النّعائم والسماك الأعزلِ[4]
لو رام رِسْطاليسُ يدركُ شأوَها لم يستطعْ وكذا الرئيسُ أبو علي[5]
مولايَ يا من جُود راحةِ كفِّه يربُو على جود السحاب الأهطلِ
لا تُغْبِبُ الأنواءُ ربعك إنّه من حادث الأيام أحصنُ معقلِ

---

(١) يمطه: يركبه، أي يجعل الجداول الخمس مطية وركوبة له يستولي عليها ويفرغ فيها درر القول من بحر فكره، وجواب الشرط في البيت الذي يليه، أي ان يمطه الخمس الجداول... خضعت الخ.

(٢) هو عبد الحميد الكاتب، أعظم الكتاب المترسلين في العربية، وكان كاتباً لمروان بن محمد آخر خلفاء الدولة الأموية بالشام، وقد قتل في مفتتح حكم الدولة العباسية حوالي عام ١٣٣ هـ، وقوله حميد ما أنشأه: أي حامداً فهي فعيل بمعنى فاعل.

(٣) هو محمد بن الحسين بن محمد المعروف بابن العميد، أديب، كاتب صاحب طريقة في الكتابة عرف بها، وكان من أعاظم كتاب العربية حتى قيل فيه وفي عبد الحميد الكاتب: «بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد» وكان وزيراً لركن الدولة البويهي في فارس، وتوفي عام ٣٦٠ هـ. وقوله: عميد نشر بلاغة أي مشغوف بها حبًّا.

(٤) النعائم: منزلة من منازل القمر، صورتها كالنعامة، والسماك أحد السماكين، وهما نجمان نيران في السماء أحدهما في الشمال وهو السماك الرامح، والآخر في الجنوب وهو السماك الأعزل.

(٥) هو الشيخ الرئيس أبو علي ابن سينا الفيلسوف والطبيب الشاعر الكاتب المعروف بالرئيس، من تصانيفه الكثيرة: الشفا في أنواع الفلسفة، والقانون في الطب، وتقاسيم الحكمة، ثم ديوان شعر، ترجمته في عيون الأنباء ٢/٢٠، تاريخ حكماء الإسلام ٥٢ – ٧٢، النجوم الزاهرة ٢/٢٥.

وليَهْنِ مَنْصِبُ دولةٍ قُلِّدتَهُ عفواً كما مِن قبلُ قيلَ لأوّل
ما منصبٌ إلَّا وقدرُك فوقه فبمجدك السَّامِي يُهَنا مَا يَلِي
وإليك وافتْ غادةٌ أمستْ على فَلَكِ القريضِ بوصفِ مدحك تعتلي
شاميةُ المنشا غدتْ لكنها طائيةُ الأنساب مهما تُسألِ
لو أنها عرضتْ لقُسٍّ خاطباً بعكاظه لعرَتْه هِزّةُ أفْكِلِ[1]
قصدتْ إلى عُليا ذُراك لعل أن يرنُو لها لحظُ السعادة من عَلِ
فتعودُ صادرةً وقد أنْهلتها من وردِكَ الفياضِ أعذبَ منهلِ
لا زلتَ محروسَ الجناب بدولة تسمو بسؤدد مجدها المتأثِّلِ
٩ب/ وعراصُ ربعك للوفود محطةٌ تأوي لها آمالُ كُلِّ مؤملِ
ما راق مدحٌ في عُلاك وما شدتْ وُرْقُ الحمائم في الغُصُون المُيَّلِ
وسرى نسيمُ اللُّطْفِ منك مُبَشِّراً ببلوغِ آمالي بغير تَعلُّل

شيخ الإسلام عماد الدين العمادي

ومن ذلك ما كتبت به إلى سيدنا الشيخ الفاضل العلامة الكامل المحقق العلامة والمدقق الفهامة، فخر مدرسي دمشق الشام، وعمادها

---

(١) قس بن ساعدة الإيادي، خطيب العرب وحكيمها في الجاهلية، وكان يخطب في سوق عكاظ يدعو الناس إلى التأمل في الكون والإقرار بأن له خالقاً عظيماً هو أجدر بالعبادة من أصنامهم، أنظر.
والأفكل: الرعدة من برد أو خوف.

العمدة وشيخ الإسلام[1]، عام ثمان وسبعين وتسعمائة، وهو المدرس بالناصرية الجوانية يومئذ طالباً الجواب:

عهدَ السرور وريعانَ الهوى النَّضِر	سقاكَ عهدُ الحيا رقراقَ مُنْحدرِ[2]
وجـاد ربْعَك وَسْميٌّ تُكَرْكِرُهُ[3]	ريحُ الصَّبا بين منهلٍّ ومنهمرِ
وغردت في رباك الوُرْقُ وابتكرتْ	بلحنِ مَعْبـدَ تتلُو أطيبَ الخَبَرِ
ولا برحـتَ مُعَانـا للحسان ولا	رمتكَ أيدي النوى بالحادث الغررِ
ولا أغبتــك أرواح النسيم ولا	عَدتْ مغانيك أخلافٌ من المطرِ[4]
كم لي بها وشبابي الغَضُّ مُقْتَبِلٌ	من منزل آهـلٍ بالشوق والذِّكر
كم اجتليـتُ بدوراً من مطالعها	كم نيل تحت سناها من سنا قمر[5]
من كـل رُعبُوبةٍ تهفو بمصطبري	قد زانها الحسن بين الدَّلِّ والحوَر[6]

---

(١) هو شيخ الإسلام عماد الدين بن عبد الرحمن بن محمد العمادي الحنفي الشامي، وكان فاضلاً وقوراً متواضعاً، لطيف المعشر، صادق الود.
وهو مفتي الحنفية بالشام وابن مفتيها.
توفي سنة ثمانية وستين بعد الألف.
انظر خلاصة الأثر ٢٠٣/٣، ريحانة الألبا ١٣٣/١ - ١٣٧، تراجم الأعيان ٣٠٢/٢ - ٣١٠ وفيها قصيدة المؤلف الواردة هنا ورد العمادي عليها.

(٢) في أ، ب: ينحدر.

(٣) الوسمي: مطر الربيع الأول، وتكركره ريح الصبا: تضمه وتجمعه بعد تفرق، وفي الريحانة: تكرره.

(٤) أغبته: جاءت يوماً بعد يوم، والأخلاف من المطر: التي تأتي ثم تنقطع ويأتي خلفها وهكذا، وفي تراجم الأعيان: أخلاق.

(٥) في الريحانة أتت رواية هذا الشطر:

قد لحن تحت سناء من سنا قمر

(٦) في الريحانة: الخفر بدل الحور.

رُودٌ كستها يدُ الأيام ثوب صبًا وصيّرتها الليالى فتنة البشر

هيفاءَ صَبَّ الصِّبا ماءَ الشباب على أعطافها وكساها حُلّة الخَفَر[1]

قامت تُعانقني يوم الوداع وقد قلدتُها من دموعي رائقَ الوُرَر

تقول والبين تغشاها ركائبه والدمع يقطر فوق الخد من حذرِ[2]

لا تَعْتَبِ الدَّهْرَ إن حالتْ خلائقُه فصفوُ رونقه لم يخلُ من كَدَر

١٠أ/ وإن تُرِد[3] تَتّقي من صَرْفه نُوَباً فالجأ لظل عماد الدين تستترِ

مولىً حِماهُ غدًا[4] أمْنُ المَرُوعِ كذا جنابُهُ الرَّحْبُ مأوى الخائف الحذر

لا زال يسمو إلى العلياء مرتقياً بسُؤددٍ مجدهُ سام[5] على الزُّهرِ

حتى امتطى صَهواتِ المجد سامية يَختالُ في حُلل الأوضاع والغُرَرِ

بهمةٍ تُجتلى كالليث ذي أشَرٍ وعزمةٍ كمضاء الصارم الذَّكَرِ

ما فاضلٌ قطٌّ جاراه إلى أمَدٍ في البحث إلا أنثنى بالعيِّ والحَصَرِ

أقلامُهُ السُّمر في بيض الطروس إذا مشتْ أرتْك فعال البيض السُّمْر

له سجايا كنشر الروض ذي الزَّهَرِ[6] وقد توشَّحَ بالانهارِ والغُدُرِ

يلقاك طلق المحيا وهو مبتسم بمنطق وِرْدُهُ أحْلَى من الصَّدَرِ

ما الروضُ جادتْ له الأنواء بالبُكر وكلّلت دوحَهُ المخضلَّ بالزهرِ

---

(١) رواية هذا الشطر في الريحانة:

بدمع فوق روض الخد منحدر

(٢) في الريحانة: ترم.

(٣) في الريحانة: مولى غدا ربعه.

(٤) في الريحانة: عال.

(٥) رواية هذا الشطر في الريحانة:

له سجايا كزهر الروض غب ندى

جــاد الغمام لــه سرًّا بوابلــه ... وأكسبته[1] الصَّبا من رقة السَّحَرِ
فازدان بالنور غِبَّ القطر فهو على ... نهر الأُبُلَّـة حُسْناً راق للنظرِ[2]
تخالُ زهر الأقاحي في خمائله ... زهر المَجَرَّة صِينت عن يد الغِيَر
تشـدو الحمامُ عـلى أغصانه سَحَراً ... فتبعثُ الشوق في أحشاءِ مُستعِرِ
يومـاً بأحسن مرأى من شمائلـه ... ولا بأذكى شذاً من نشرها العطر[3]
يا فاضلا كم جلَتْ أبكارُ فكرتِهِ ... غُرَّ المعاني لنا في أحسن الصورِ
وابن الكرام ومن شادوا بعزمهم ... ركن العلا سامياً في سالف العُصُر
ويا عماداً لبيت الفضل يرفعُهُ ... وكان من ضعفه يَلْقَى على خطر
إلى ذُرَاك أتـت فاقبل على دَخَلٍ ... نسيجَها يا رئيس البدو والحضرِ
لا زلـت في نِعَمٍ تسمُو بسؤدَدِها ... هامَ السِّماكين حيث النَّسْرُ لم يطرِ
مـا ناح بالأيك قُمْري وما سجعتْ ... وُرْقُ الحمائم بالآصـــالِ والبُكرِ
١٠ب/ وما وشى الطِّرسَ تنميقُ اليراع بمـا ... يُزْري بوشي الرُّبَا بسَّامة الزهر[4]

فكتب إليّ بهذا الجواب - ثبت الله وطأة الآداب بطول بقائه، وصرف السوء والمكاره عن شريف جوبائه[5] - وبعثه إليَّ بدمشق الشام:

أحَلْيُ حوراءَ أم عِقْدٌ من الدُّرَرِ ... أم زاهرُ الزُّهْر أم زاه من الزَّهَرِ
أم الحَبَـابُ عـلى راحٍ مُرَوَّقـةٍ ... أم نفثةُ السِّحر ذي أم نسمة السَّحَر

---

(١) في الريحانة: وقد كسته.
(٢) لم يرد هذا البيت في الريحانة.
(٣) وأيضاً لم يرد هذا البيت في الريحانة.
(٤) كذلك لم يرد هذا البيت فيها، وفي التراجم: يبسمن بدل بسامة.
(٥) الجوباء: النفس.

أم نظم من بهرت[1] آيات منطقه ... فأعجزت كل ذي نظم ومنتثرِ
يا نافث السِّحْر مِنْ فِيهِ بمُعْجزةٍ ... عقدت ألسُنَ أهل البدو والحَضرِ
ويا مُديراً سُلاَفا من بلاغته ... هَلَّا ترفقْتَ بالألباب والفِكرِ
ويا ابن طَالُو وإن طال الزمان فما ... لنا بلوغٌ إلى علياك فاقتصرِ
أخذت فَصَّ المعاني من معادنه ... وغُصْتَ فى أبحر الآداب للدُّررِ
وحزت جمع المزايا وانفردْتَ بها ... ولم تَدَعْ للسُّوَى شأواً ولم تَذَرِ
وجئت من كلٍّ معنى رائق حسن ... بكل ما قد حلا في الذوق والنظرِ
كأنه ضَرَبٌ قد شَابَهُ شَنَبٌ ... أو عاتقٌ عابقٌ من ريحه العَطِرِ
وقد شهدنا بما أوتيت مُعجزةً ... جمع الفضائل فى فرد من البشرِ
أهديتَ لى غادةً جلَّتْ محاسنُها ... وقد تجلَّت لنا فى أحسن الصورِ
رُعْبُوبةٌ من بنات البدو مُذْ خطرت ... قلبي بها صار من وجد على خطرِ
لها انتساب إلى زُهْرٍ ومُرسلُها ... بحسن منطقه يَنْمي إلى مُضَرَ
حَيَّتْ فأحيت بألفاظ منمقةٍ ... وغازلتْنا بلُطْفِ الدَّلِّ والحَوَرِ[2]
وأسفرتْ عن سَنَا بَرْقٍ وعن شَفَقٍ ... وعن ضياءٍ وعن شمس وعن قمرِ
زارتْ على حِينِ أشواق لبهجتها ... ومتَّعتنا بذاك المنظر النَّضِرِ
وضاع عَرْف شذاها عندما برزت ... مِسْكاً وعطَّرت الأقطار بالقطرِ
سألتها قبلة أُطْفي بها حُرَقاً ... شَبَّتْ بقلبٍ بنارِ الشوق[3] مُسْتعرِ
فأومأتْ لثتيت زانه شَنَبٌ ... وأنعمت بنعيم الوِرْد والصَّدَرِ
ونادمتْني بليلٍ قد سررتُ به ... لكنه ساءني والله بالقِصَرِ

---

(١) في الريحانة: در زهت بدل من بهرت.
(٢) في الريحانة: والخفر.
(٣) في الريحانة: شديد الوجد.

وبتُّ أنشِدُ مدحاً فى محاسنها ما قاله شاعرٌ فى سالف العُصُرِ
يا نزهة النفس يا من فاق منطقهـــا قُسَّ بن ساعدة المشهور في السِّيَرِ
إنى عجبتُ لمن أنشاك رائِقَةً رقيقةً كحُلاَهُ كيف لم تطرِ[1]
يا من له همةٌ ما نال غايتها بدرُ السماء ولا السَّيارةُ الزُّهرِ
ومن هو الغيثُ فى يوم النَّوالِ بل الـ ـبحر الزُّلال يتيحُ البذل كالقَدَرِ
ومن هو الجَلْدُ في يوم الجِدال وفي يوم النوال حديد الناب والظُّفُرِ
ومن له نَسَبٌ كالشمس مشتهرٌ عن مجده النَّشْرُ يروي أرفع الخَبَرِ
من معشرٍ نُجُبٍ لولا تأخرُّهُم جاءتْ مناقبُهم فى محكم السُّوَرِ
خُذْها إليك وإن كانت مُقصرةً فشأنُ مثلك سترُ العيب بالسُّتُرِ
وإن تكن أوجزَتْ فـى المـدح واختصرتْ
فالعــذبُ يُهجر للإفراط فــى الخَصَرِ[2]
وإن تكن من بليغ[3] القول عاطلةً فقد تحلَّتْ بعقْدٍ من مديحِ سَرِي
واعذُر فإني تركتُ الشعر من زمنٍ لشاغل عنه غشّى مقلة الفكرِ
لا زلتَ تسمو إلى الأقران مُرتدياً ثوب البلاغةِ فى أمْنٍ من الحَصَرِ
ما طرَّز الطِّرسَ تنميقُ اليراع بما يزهُو على الرّوض وشتّه يدُ المطر[4]
وشبَّب المادحُ المطري بمدحك في بيتٍ من الشِّعْر في رَوْضٍ على نَهَر

(١) هذا البيت وما بعده من أبيات خمسة لم ترد في الريحانة، وفي تراجم الأعيان: كحلاء بدل كحلاه.
(٢) لم يرد من الأبيات الاثني عشر التالية في تراجم الأعيان: الأبيات الثلاثة الآتية، ثم الخامس والأخير.
(٣) الخصر: شدة البرودة.
(٤) في الريحانة: من بديع.
(٥) في الريحانة: أو يعلو على الزهر بدل وشته يد المطر.

مما كتب به إلى العماد على سبيل المطارحة

ومما كتبت به أيضاً لسيدنا العماد، لا زال حماهُ لروّاد الأدب أخصب مَرَاد، ولا خَلَّى جيد دمشقٍ من نظام عُقوده، وربوتُها الغناء من مطارف وشْيِ آدابه وبُرُوده، قولي ١١ب

طَحَا به في الحسان الغِيد حيثُ طَحَا[1]
قلبٌ على العهد من لَمْيَاء ما بَرِحَا

هيفاءَ تُخْجل غصنَ البان منعطفاً | والريمَ ملتفتاً والظبيَ إن سنحا
صِغْر الوشاحين ريَّا الحجْل ما سَفَرتْ | إلا أغار سناها الشمسَ وقت ضحى
رُودٌ تُخَطِّرُ في بُردَى صِباً وهَوًى | وتنْثني التِّيهَ من سُكر الصِّبا مَرَحا

سقى الصِّبا والشبابُ الرُّوقُ[2] وجنتها
ماءً من الحسن مغبُوقاً ومُصطَبَحا

حاولتُ رشفَ اللَّمي من بَرْد رِيقتها | أُطفي به من لهيب الوجد مالقحا
فأعرضتْ لبياضٍ لاح قائلةً | يا بُعْدَهُ مُنْتَبِذاً عنَّا ومُطَّرِحا
هيهاتَ وصلُ الحسان الغانيات وفي | ليل الشَّبيبة صبحُ الشيب قد وضحا
فقلتُ - والعينُ شَكرى والفؤادُ به | رَسٌّ أكابدُ منه الوجد والبَرَحَا -:[3]

ما ذاك - عُوفيتِ - يا لمياءُ من كِبَرٍ
إنّي - وطَرْفِ الصِّبا المقرور - ما قَرَحَا[4]

---

(١) طحا: بعد، وطوح به في كل ناحية، يقال: طحا به هواه وقلبه وهمه.

(٢) الروق: أول الشباب.

(٣) الرس: الألم الثابت الذي لا يحيد، والبرح: شدة العذاب.

(٤) المقرور هنا السعيد الفرح، وقرحا: القارح: من ذي الحافر ما استتم الخامسة وسقطت سنه التي تلي الرباعية ونبت مكانها نابه، وحينئذ يكون في تمام قوته.

وإنما نُوَبُ الأيام جئن به كما تَرَيْنَ ودهرٌ طال ما اجترحا
غَدَتْ تكلّفني فيه العُلاَ شِيَمٌ وعَزْمَةٌ لا تَنِي تنحوهُ حيث نَحَا
وهمّةٌ ليس تَرْضى النجمَ منزِلةً تُعْزَى لقلب إلى العلياء قد كَدَحا
ومنطقٌ تنظم الجوزاء رؤيته لكن بوصف عماد الدين قد كدحا
مولًى مآثِرُهُ تستغرقُ المِدَحا لذاك يَقْصُرُ عنها كلُّ من مدحا
من سادة ورثوا العلياء واقتسموا مآثر المجد فيما بينهم مِنَحا
من كلّ أزهرَ بادي البشْر غُرّتُه تَلُوح في مُدلهمّاتٍ دجتْ وضُحا
يُبدي محيًّا يُريك البدر طلعته يَغُضُّ منه حياءً كلُّ من لحا
إلى شمائل تَنْدَى كالرياض إذا ما وابلُ المزن فيها دمعهِ سفحا
إمام أهل التقى والعلم، شيمتُه بذلُ الندى من أيادٍ سيبُها رَشَحا
تغدو الأمانيُّ حَرى دون همته إذا يروح على العلياء مقترحا
فَلُذْ به طودَ علم لو تُوازنه
هضابُ رضوى على مقدارها رجحا
يريك من لفظه الكشاف إن نطقتْ عُليا بلاغته ما يُخْرِسُ الفُصَحا
فكم به من مشكل للفهم قد وضحا ومُقْفَل بدقيق الفكر قد فُتِحا
له يراعٌ إذا يعلُو أنامله شاهدْتَ أروع بالخطيَّةِ اتَّشِحَا
وإن مشى في أعالي الطرس مَرْقَمُه تَخَالُ أرقمَ وسط الروض فاهُ شَحَا
ما الليثُ إن جرحا والغيث إن رَشَحا والدهرُ إن سَمحا والبحر إن طفحا
أمضى شَباً منه أدنى منه وقعُ فدًى أندى يداً منه أوفَى منه إن سَمَحا
فقل لمن رام في فضل يُماثِلُه أقصرْ عدمتك واقبل نُصح من نصحا
إن المعاليَ ما بين الورى مِنَحٌ مقسومةٌ وإلهُ العرش قد مِنحا
وهاكها من بنات الفكر غانيةً فؤادُها لسوى مغناك ما جَنَحا

تخالُها روضةً غنّاء قد لبستْ	مطارفَ النُّور في أعطافها وشحا
حلَّتْ عُرى الدلو فيها للجنوب يدٌ	بيضاءُ والطيرُ في أغصانها صَدَحا
من عبد رقٍّ تَرَجَّى أن تكاتبه	فضلاً ليرتاض دهر بعدما جمحا
لا زلت تحمي حريمَ الفضل في بلد	بـه أناس لبُهْم القاع إذ سرحا
تظاهروا بنفـــاق الغيِّ بينهمُ	حتى ادّعاهُ على مكروهه الفُصَحَا
ما أمَّ ساحَك طلّابٌ وما حملتْ	غواربُ الإبلِ الغادين والرُّوَحا

فكتب إليّ بما يخجلُ الدّر في أسلاكه، ويزري بالدُّريِّ في مطالع أفلاكه، أمتع اللهُ الآدابَ بطول بقائه، وأسبغ على الأفاضل ظلال نَعْمائه، بقوله:

أروضةٌ عَرْفُها المسكيُّ قد نفحا	وبلبلُ الحسن في دَوْحَاتها صَدَحا
جادتْ عليها أكفُّ الجود فابتسمتْ	ثغورُ أزهارها من جوده فَرَحا
والغصنُ مال لتشبيب الصِّبا طرِباً	فيها وجَدْوَلُها بالأنس قد طفحا
وأصبحتْ راحةُ الأرواح جالبة الـ	أفراحِ سالبةً من لُطفها البَرَحا
تلوحُ فيها لرَائيها مُشَعْشَعَةً	كأنَّها في سماء الكأس شمسُ ضُحى
يُديرها أغيدٌ كالظبي في كَحَلٍ	والغصنُ في مَيَلٍ والبدر ملتمحا
أم عِقْدُ درٍّ بديعٌ زان غانيةً	حسناءَ إن قابلتْ بدر الدجى افتتحا
أم غادةٌ من بنات الفكر أنتجها	ربُّ البلاغة من دانتْ له الفُصُحا
العالِمُ العَلَم الفردُ الذي جُمعتْ	فيـه المزايا فأضحتْ ذاتُه مُلَحا
ومن أضاءتْ به الأيام وافتخرتْ	بفضله وفسادُ الدهر قد صَلُحا
ومن له نسبٌ عالٍ إلى حَسَب	كالشمس مشتهراً في الناس مُتَّضِحا
من معشر ورثوا العلياء واقتعدوا	سِنَامَها فعُلاهم عنه ما بَرِحا
طالُوا مآثر عنهـا قصَّرتْ هِممٌ	لغيرهم عمّتْ الدَّاني ومن نَزَحا

لو أنَّهم في قديم العُصْرِ كان لهم ... حديثُ فخرٍ أتى في الذكر مُمْتَدحا

يا نافثَ السِّحر مِنْ فِيه عَقَدْتَ به ... لسانَ كلِّ بليغ طال ما طَمَحا

فكلُّ ذي لَسَنٍ أعيا بمنطقهِ ... حتى يُظَنَّ به قبلُ ما فَصُحا

ومن سُلاَفِ المعاني قد أدرتَ على ... أهل البيان فكلٌّ قد حسَا قَدَحا

وأصبح القومُ سكْرى من فصاحتك التي ... بها لفظك الخمْريُّ قد سمحا

أورى افتكارك أنواراً مُشعشِعَةً ... من الفضائل لمّا زَنْدُه قَدَحا

وفاض سَيبُكَ في الطُّلّابِ يغمرُهم ... فكلُّ ذي طَلَب في بحره سَبَحا

١٣أ / وقد جَلَيْتَ ظلامَ الجهل حين دجا ... وجلَّ حتى غدا بين الورى وَضَحا

بعثتَ لي من قريضٍ عقْدَ غانيةٍ ... ما الجوهرُ الفردُ مذكوراً إذا لُمِحا

بل جنةٌ أخذتْ بالحسن زُخرفَها ... بديعُ صورتها قد جاء مقترحا

نزّهتَ فِكْريَ في زاهي أزاهرها ... وطَرْفُ طَرْفِيَ في ميدانها مَرَحا

وبتُّ أجْلُو صَدَى فكري برؤيتها ... وعن فؤادِيَ زال الهمُّ والبُرَحا

تبارك اللهُ قد أوتيتَ مُعجزةً ... مِنْ فِي يراعِك قطرُ الفضل قد وشحا

يا من له انقاذتْ الألفاظُ طائعةً ... وكلُّ معنى عويص بعدَ ما جَمَحا

خُذْها إليك فقد جاءت مُقصِّرة ... عن وصف كامل معناك الذي رجحا

واعذرْ أخا فكرةٍ بالتُّرك مقفلةٍ ... لولا امتداحك بابَ النظم ما فتحا

لا زلت تبقى لأهل العلم قاطبةً ... بالمجد مُرْتدياً بالجود مُتشحا

ما رصّع الطِّرسَ نظّامٌ بجوهره ... وطرّزَ الفكر مداحٌ بما مدحا

ومما كتبه إلى ابن المنقار مطارحة

ومن ذلك ما كتبتُ به إلى سيدنا الشيخ العلامة، والمحقّق الفهّامة، زبدة العلماء العاملين، عمدة الفضلاء الكاملين، شمس الملة والدنيا والدين، الشهير نسبُه الخطيرُ في الأقطار، بابن المنقار[1]، والمدرس يومئذ بالمدرسة القَصَّاعِيَّة، بدمشق المحمية، سنة ٩٧٨ ملغزاً له في اسم نجم لا زال ثوب الفضل عليه ضافياً، ومَشْرَبُه من العلوم والآداب صافياً، قولي:

سقى الصِّبا واللَّهو عهدُ الرَّبَاب[2] ... ولا عدا الوَسْمِيُّ عهَد الرَّبَابْ[3]

ولا أغبَّتْ رَبْعَهُ دِيمَةٌ ... مجلوبةُ المِزَرم ذات انصبابْ[4]

١٣ب/ حيث الشَّباب الغضُّ نوارةً ... نسيمُها الخفّاق رطب المهابْ

أيام روضي بالمنى زاهرٌ ... وربعُ لَهْويَ آهلٌ بالتَّصَابْ

وظبيُ ذاك السِّرب لي مُنْيَةٌ ... والدهر طلْقٌ والمغاني رحاب

وإذ غصونُ الأُنسَ فينانةٌ ... قد جاذبتها الوصل أيدي العِتاب

والحبُّ يُزْهي بين ريحانةٍ ... يانعةٍ تُسْقَى بماء الشباب

---

(١) هو محمد بن القاسم، المعروف بشمس الدين ابن المنقار الحلبي الدمشقي، ولد سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة، وكان فاضلاً من أعيان العلماء، مناظراً قوياً في العلوم، وكان شاعراً أديباً إلا أن شعره شعر العلماء وأدبه أدب الفقهاء، توفي سنة خمس بعد الألف.
ترجمته في خلاصة الأثر ١١٥/٤، الريحانة ١٢٨/١ - ١٣٠، وانظر من المدرسة القصاعية الدارس للنعيمي ٥٦٥/١.

(٢) العهد: مطر أول العام، والرباب: السحاب الرقيق.

(٣) عهد الرباب هنا معناها زمن معرفتنا بمن تدعى رباب، فبينها وبين عهد الرباب في الشطرة الأولى جناس تام.

(٤) المرزم: الريح، أو ريح الشمال الباردة، ومجلوبة أي تحدث جلبة من شدتها.

كأنها والبشرُ بادٍ بها ... غرة شمس الدين سامي الجناب
موليّ علا بالمجد هام العُلا ... فاقتعدَ الجوزاء أعلى هضاب
أخلاقُه الزُّهْر حكين الرُّبى ... حُسناً وأزرين بغُرِّ السحاب
ما وجَّه الفكرَ إلى مطلبٍ ... إلا أتى فيه بأمر عُجاب
بهمّةٍ كالليث عند انسياب ... وراحةٍ كالغيث عند انسكاب
إذا مشت في الطِّرس أقلامُه ... أهْوِنْ بفعل السُّمْر ذات الكعاب
وإن جرى والخَصْم في حَلْبةٍ ... ووجهت تلك القضايا الصِّعاب
أتى من الحكم بفصل الخطاب ... فيها وحاز الخَصْمُ غُنْم الإياب
يا فاضلاً سُؤدده باهرٌ ... وفضلُه بادٍ بغير احتجاب
أنت فتى الآداب في عصرنا ... وفيك لا عنك تُنَصُّ الرِّكاب[1]
رُضت لنا شوس القوافي وقد ... كانت على من يمتطيها صعاب
فلم نجد قافيةً أحْكِمت ... إلا لها نحو ذُراك انتساب
إليك وجهتُ بها مُلغزاً ... وقد أتتْ من خجل في انتقاب
في اسمٍ ثلاثيٍّ يُرى سامياً ... يُهدى به الساري سبيل الصواب
يرعاه طرفي بالدياجي كما ... يرعاه طِرفي بثنايا الشِّعاب
مقلوبُه يا صاحِ ما يُتقى ... به من الأعداء وُقِّيت المصاب[2]
/١٤أ ماضيه فعلٌ إن تَزُل عينُه ... فذلك اسمٌ لجنًى مُستطاب[3]
حكي سجاياك واقعاً لها ... ومن سجايا المرء ما يُستطاب

---

(١) تنص الركاب: أي تستحث حثاً شديداً على السير.

(٢) أي الجن، وهو مقلوب كلمة نجم الملغز بها.

(٣) يعني به النم أو النام، وهو نوع من السعتر البري أو نعنع الماء.

أوضِح لنا .معناه مَنَّا وَجُدْ   بحلِّه أثناءَ رُودِ كعاب
لا زلت تسمُو الدهر في نعمةٍ   مضروبةَ الأوتاد حيث القباب
ما وشَّع الطِّرس أديبٌ[1] وما   وشَّحت الأقلام يوماً كتاب
ولعلع الحادي بسَلْعٍ وما   شُبِّبَ في الحيِّ بصوت الرباب[2]

جواب ابن المنقار عليه

فأجاب مدّ الله ظلالَه، وضاعف اقتدارَهُ وجلالَه، بما يسحر الألباب من الجواب، بل يفعل فيها فعل البابليّ المعتّق، والعَانيّ[3] المروَّق، وهو قوله:

جاءتْ وقد حيّتْ برفع النِّقاب   فخِلتُ بدراً قد بدا من حجابْ
وأشرق النادي بأنوارها   وعَطَّرتْ بالطيب تلك الرحابْ
وأسفرتْ شمساً ومالت قَناً   والتفتتْ ظبياً ولاحت شهابْ
وكحّلتْ من نورها مُقْلتي   وأودعتْ سمعي لذيذَ الخطابْ
ونادمَتْنيَ - صَاحِ - بألفاظها   فرُحْتُ سكرانَ بغيرِ الشرابْ
وراقتِ الأسجاعُ حتى لقد   أنستْنِيَ العُودَ وصوتَ الربابْ

---

(١) التوشيع: التوشية والتزيين، يقال ثوب موشع أي مزين مرقوم وأعلام مخططة، وقوله: ما وشع الطرس أديب... فيه استعارة مكنية، فقد شبه الكتاب بالثوب المزين، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو التوشية، وهذه الأنواع البلاغية كثيرة في شعر المؤلف كما لا يخفى.

(٢) لعلع: علا صوته، والسلع: الطريق في الجبل، والرباب: هي الآلة الموسيقية الشعبية ذات الوتر الواحد.

(٣) العاني: الأسير المقيد.

فرحتُ مفتوناً بها مُغْرماً   كأنني مما دهاني مُصابْ
وليس ذا بدعاً لأن الذي   نمّقها حَبْرٌ إمامٌ مُهابْ
محمد ذو الفضل من معشرٍ   سادُوا لهم فضل وأي انتسابْ
بَنَوْا من المعروف رُكن الندى   وأسَّسوا مجد العلا والثواب
نالوا سماء العِزِّ من فخرهم   واقتعدوا أوجَ العلا والهضابْ
أكرم بنجل الطالويّ الذي   طُولُ يديه كالحيا في انسكاب
١٤ب/ أقلافه السُّمر إذا صَرّها   تُزري ببيض الهند عند الحرابْ
بنانُه قد عاد سِحْراً لذا   يلعبُ بالألباب فَهْو اللُّباب
ونثره كالزهر في روضة   وشعره دُرٌّ ونظمُ الحُبابْ
وجُودُه كالبحر في مَوْجِهِ   وفكْرُه كالنار عند التهابْ
أيا إمام النظم أذكرتني   ببنتِ فِكْرٍ لك عصرَ الشبابْ
فحرّكت ساكنَ شوقي إلى   نظمِ قوافٍ أحكمتْ للجواب
ألغزت في عالٍ سَمَا وانتمى   لقُدرك العالي بغير ارتياب
يرمقه العاشقُ مما به   وكم هدى السّائرَ عند الذهابْ
لكنْ مُحيَّاك إذا ما بدا   في السَّير يُغني عن طلوع الشهابْ
يا ملك الافضالِ أبشرْ فقد   مَلَكْتَ بالآداب حُرَّ الرقابْ
أتحفتني بالدُّرِّ من بحرك الْ   ـعذبِ فأضحى مَوْرداً يُستطابْ
وطال ما شنّفتَ أسماعَنا   بدُرِّ لفظٍ ومعانٍ عِذابْ
فاسْلَم ودُم ذا نعمةٍ راقياً   أوجَ المعالي ورفيع الجناب

★ ★ ★

ومما كتبتُ به أيضاً إلى جنابه لا زال منبع الفضائل، ومَنْجع رُوّاد

الأفاضل، مستدعياً من فضله السّامي، بعضَ حواشي المحقّق الجامي[1] قولي:

أمولاي شمسَ الدين يا من غَدَتْ له	سجايا كزَهْر الروض غِبَّ سِجامِ
وفكرٌ إذا يسري بليلِ غوامِضٍ	غدتْ تنجلي كالبدر عند تمامِ
وعزمٌ يقــدُّ المشْرفيَّ وهِمَّــةٌ	تزاحِمُ رُكْــني يَذْبُــل وشَمام
مُحِبُّك يرجو من حواشٍ رقيقةٍ	لديك على الشرحِ الشهير بجامي
يحلُّ بها من مشكلات سُطُوره	عُراها ليَعْرى فيه كل عُرَامِ[2]
لعبد الغفور الحَبْر أولاً فعِصمتي	إذا لم تكن في حلِّها بعصام
ودُم مقصداً للفضل والعلم ما رَقى	منابر قضبانٍ خطيب حَمامِ

ومما كتب به إليه محمد الصالحي الهلالي مطارحة

ومن كتب إليّ من أفضل أدباء دمشق الشام، لا أخلفتْها أخْلافُ الغمام، مولانا العلامة الأديب الفاضل، عين أعيان الأفاضل، مَنْ كوكبُهُ في سماء الآداب متلالي، سيّدي نجْم الملة والدِّين الأخُ في الله محمد الصّالحي

---

(١) هو عبد الرحمن بن أحمد بن محمد الشيرازي، نور الدين أبو البركات، المعروف بالجامي. عالم مشارك في كثير من العلوم العقلية والنقلية، ولد بجام إحدى بلاد خراسان سنة ٨١٧ هـ ونشأ بهراة، وعاش بها معظم حياته وتوفى بها عام ٨٩٨ هـ.
من مؤلفاته الكثيرة: الدرة الفاخرة في تحقيق مذهب الصوفيين والحكماء والمتكلمين في وجود الواجب، وتاريخ هراة، وشرح الكافية لابن الحاجب في النحو، وشرح النقابة مختصر الوقاية في الفقه الحنفي. انظر معجم المؤلفين ١٢٢/٥، شذرات الذهب ٣٦٠/٧، البدر الطالع ٣٢٧/١.

(٢) العرام: وسخ القدر أو الوسخ مطلقاً.

الهلالي[1]، لا زال جيدُ الدهر من عقود نظمه حالي، ما بقيتِ الأيامُ والليالي، وذلك في حدود سبع وسبعين وتسعمائة، بقوله:

حَذارِ فؤادي فالظِّباءُ فوارسُ ... وما غيرُ آسَادِ العرين فرائسُ
وإياك والإقدام في حلبة الرّدى ... فخيلُ المنايا للنفوس تُخالِسُ
فللَّهِ من قلبِ عصاني كأنّه ... خصيمٌ لطرد القول مني يُعاكِس
فيا قلبُ كم هذي الغواية فى الهوى ... فحتى متى فى الموت هذا التنافُسُ
ألم يأن من سُكرِ الغرامِ إفاقةٌ ... فيصحو فؤادٌ للهموم مُجَالِس
ويا ظبيُ ما هذا النِّفارُ إلى متى ... أما آن تعطو الظباء الكوانس[2]
سرى الطيفُ فى وَهْن من الليل يبتغي ... طُروق عليل أقلقتْه الوساوسُ
فهوَّمَ جفنُ الصَّبِّ ساعةَ قُربه ... يظنُّ بأن الطيف ضيف مُؤانسُ
ودارت كئوسٌ للعتاب وأنيعتْ ... قطوفُ الأماني والظنونُ الهواجسُ
فما دام إلاّ أن أفاق إفاقةً ... إذا الدارُ شَنْعَى والقِفَارُ البسابس
لقد أبلتْ الأيامُ فينا بلاءَها ... وجارتْ صُرُوفٌ بينهن تجانسُ

---

(١) هو محمد بن نجم الدين بن محمد، شمس الدين الصالحي الهلالي، ولد بدمشق عام ست وخمسين وتسعمائة، ورحل إلى مكة فقرأ على علمائها.

وكان من سنته الاعتزال عن الناس، منقطعاً للعلم، وبرع في الفقه والأدب والتفسير، مع ذكاء وحسن فهم وقد ربطت بينه وبين المؤلف صداقة ومودة تتضح في كثرة المطارحات التي يوردها المؤلف معه في كتابه هذا.

توفى سنة اثنتي عشرة بعد الألف، انظر الريحانة ٢٧/١ - ٣١، خلاصة الأثر ٢٣٩/٤.

(٢) تعطو: أي تتناول ما يعطى إليها، وتأنس بمن يعطيها، والكوانس: جمع كناس وهو بيت الظبي.

وقائعُ أنستنا حروبَ ابن وائلٍ وأربتْ على أضعاف ماجرَّداحِسُ[1]
أما علمت أنّي وإن كنتُ عاجزاً سينصرُني شهمٌ من الترك فارسُ
طويل نجاد السيف يوم كريهةٍ إذا قصّرت عنها الرجال العوابسُ
إذا خفقتْ في البحث رايات فكرهِ تلتْها جيوشٌ للطعان تُداعسُ
كثيرُ رماد القِدْر دانٍ نواله وليس على أبوابه الدهرَ حارسُ
إذا عصفت نحو القِفارِ رياحُه سقاها الحَيَا والهاطلاتُ البواجسُ
فيا ابن الكرام الأقدمين ومن لهم فخارٌ على أم السماكين جالسُ
نظمتُ عقوداً من عُلاَك استفدتُها وأقبسني من نور وصفك قابسُ
فدونكها كالزهر تُجْلَى لناظر كما جُلِّيتْ في الروض منه عرائسُ
فإن صادفتْ منك القبولَ فحسبُها فخاراً به طولَ الزمان تنافسُ
عسى السَّيِّدُ المولى يكاتبُ عبده ليرتاض دهرٌ بالأحبة شامسُ
وشَرِّفْ بنظمٍ قد حكته أزاهرٌ نواضرُ لم يَقطفْ جناهن لامسُ
فأنت حياة العلم تنشرُ ميتهُ إذا ما عفت تلك الدروس الدوارسُ
فما زالت الآداب منك نواضِراً مدى الدهر لا تذوي لهن مغارسُ

ولما سقط بسؤاله على خبيره، أجبته ناسجاً على منوال حبيره، لا زال ربعُ الأدب معموراً بطول بقائه، ورياضُهُ غضّة بحسن رَوِيَّته ورُوَائه، بقولي:

أتت تنثني كالغصن والغصنُ يابسُ وترنو بطرف أوطفٍ[2] وهو ناعسُ

---

(١) ابن وائل هو كليب بن وائل التغلبي الذي حدثت بسبب قتله حرب البسوس، وقد أشرنا إليها فيا سبق، أما داحس فهو فرس.
(٢) الوطف: كثرة شعر الأهداب مع استرخائها.

رَداحٌ بخُوط البـان تُزري رشاقةً   وتهزأ بالخطِّـيِّ حـين تقايَسُ[1]

من القاصراتِ الطَّرف مهضومـــــــةُ الحشا   لطيفـةُ طَيِّ الكشح هيفاءُ آنسُ

يفوق سناها البـدرَ ليلـة تِمِّـهِ   ويأوي لداني أفقه وهو ناكِسُ

إذا ما رنَتْ نحو الحليم استفزَّهُ   هوى واستمالتْـه ظنونٌ هواجسُ

أتـتْ منزلي تختالُ والليل دامسٌ   كما زارني وَهْنـاً حبيبٌ مؤانسُ

فما الروضُ بالأزهـار كلَّه الندَّى   كما كلـــــت يتجانهن عرائسُ

بَكَاه الحيا حتى تضاحَكَ نَوْرُهُ   وحلّت عَزَالِيَها عليه البواجِسُ[2]

كستْـه يـدُ الأنواءِ وشيـاً كأنما   حبتْـه بأنواع التصاوير فـارسُ

فأصبـح غبَّ القطر يُزهى لِجنّةٍ   جنـيٌّ جناها لم يصافِحْه لامسُ

بـه الزّهر بالأكمام يسطـع نَوْره   كزُهر لها سيف المجرة حارسُ[3]

يطيـفُ به واشي النسيم فتنثني   غصونُ رُبَاه الهيفُ وهي موائسُ

وقـام خطيبُ الدَّوْح فيها مغرِّداً   عليه قميصٌ حاكه الطلُّ وارسُ

تجاوبـــه ورقٌ بألحـــان مَعْبَـدِ   وتشدُو على الأغصان وهي أوانسُ

تذكرُني عهدَ التصّابي فأنثني   وفي القلب من فرط الغموم وساوسُ

بأحسن منها بِهجةً حين أقبلتْ   وحيّـت كما حيّت ظباءٌ كوانسُ

وكيـف ومنْ وشّى معاطِفَها فتىً   نمتْـه إلى نحو المعالي مغـارسُ

رقى من ذَرى الآداب أرفع هضبـــة   فمن ذا يضاهيـه ومن ذا يجانسُ

---

(١) الرداح: ثقيلة الردف والأوراك، وقال: وهي مع ذلك رشيقة تشبه الخطي، وهو شجر مستقيم تتخذ منه الرماح.

(٢) العزالي: جمع عزلاء وهو فم القربة، وحلت السماء عزاليها: أي أرسلت أمطارها.

(٣) الزهر: النجوم.

فيا ابن الأُلى شادوا الفخار بعزّهم | وليس لهم في غير مجد تنافُسُ
بعثـتُ بنظم كالليـالي مُنظماً | حكى دُرَّ دمعي حين بان المجالسُ
وكلّفتَني عنـه الجوابَ وحبّذا | سؤالٌ ولكن أين منـي تجانسُ
أثبتك بالرضراض[1] من دُرر حكتْ | عرائس زهر قد جلتها الحنادسُ
فـإن يك منه ما يروق لناظر | فإنّـى له من نور وصفك قابسُ
ودونكهـا تمشي الهوينى وتنثني | حيـاءً وطَرفُ العين فيها يخالسُ
إلى بابـكمْ ترجو القبولَ تفضُّلا | عساها بقرب منك تحظى وتأنَسُ
فـلا زلت بالآداب تُتْحف صاحباً | مدى الدهر ما طنَّتِ بعلمٍ مدارسُ
ومـا ناح قُمْرِيُّ الرياض مغرِّداً | وحنّ مشوق نـازح الـدار آيسُ

يرد على من ادعى أن أبياته لبعض أدباء المغرب

وبلغني أن المولى الأخ المرسل إليه، لا برحتْ أدباءُ الأفاضل تُعَوِّل عليه، أنشدها بالمسجد الجامع، فى مجلس لأعيان الفضلاء جامع، ممن يُرجع فى فنون الآداب إليه، ويعوِّل من مضائقه إليه، فأفاضوا عند انشادها في الاستحسان، وأخذ كلٌّ يذكر بجميل الإحسان، وكان من جملة أولئك الفضلاء مولانا عمدة المدرّسين، الشيخ الأسد بن معين الدين، التبريزي[2]-- أمتع الله بحياته - فذكر للأخ المشار إليه، أن هذه

(١) الرضراض: الحجارة الصغيرة في مجرى الماء.

(٢) هو المنلا أسعد بن معين الدين الشيرازي الشافعي نزيل دمشق، الإمام العلامة المحقق، كان أكثر انتفاعه بالشيخ علاء الدين بن عماد الدين، قرأ عليه مختلف العلوم الشرعية واللغوية، وقد كتب بخطه المطول وديواني المتنبي وأبي تمام وشرح ابن المصنف على الألفية وغير ذلك، =

الأبيات ربما تكون لبعض فضلاء المغرب فانتحلها لأنها تشبه طريقتهم في بعض التشابيه، فكتبت إليه مضمناً للبيت المشهور أسدٌ عليّ... بهذه:

قسماً بصبح جبينِ بدرٍ باهر ... وبطلعـةِ القمر المنير الزّاهر
وبفترة الأجفان[1] ترشُقُ في الحشا ... سَهْمَ المنيـة عن لحـاظ جآذر
وبكـل هيفاء القوام إذا انثنت ... أزرتْ بخُوطِ نقا الرياض الناضر
من كلِّ رُودٍ وازنتْ شمسَ الضحـى ... غيـداءَ تهزأ بالغزال النافِرِ
ريَّـا المخلخـل ذاتُ قـدٌ ناعم ... غرْثَـى وشاحٍ ذات طرف فاتر
رُعْبوبـةٌ تختال من مَرَح الصِّبا ... كخميلـةٍ بالروض ذات أزاهرِ
لا بـل بعزمٍ كالحسام الباتر ... وبثبـت حزم للأعـادي قاهرِ
وبهمَّـةٍ هـامَ المجرةِ قد علتْ ... فسمَتْ على نَسْر السماء الطائرِ
وبطارفِ الشرف الرفيع مَحَلُّهُ ... وبتالـدِ الحَسَب المنيـع الطاهرِ
لأنـا الكَمـيُّ بحومةِ الهَيْجَا إذا ... شَنَّـت لـيَ الحُسّادُ غـارة ثائر
من كـلِّ من لم أرْضَهُ خلاًّ ولم ... أعْـدُدْهُ يوماً فى سَرَاة عشائري
أَسَدٌ علـيّ وفـى الحروب نعامةٌ ... فتخاءُ تنفر من صفير الصّافر[2]
زعم الغـداةَ بأنّنـي متنحِّـلٌ ... مـا قلتُـه يا ويحه من جائرِ
إن شاء وشَّيْـتُ القريضَ لمدحهِ ... ونعتُّــــه ووصفـتُـه بمآثر

ودرس بالناصرية البرانية ثم بالشامية وجمع له بينهما، ثم تولى منصب الفتوى، وعنه أخذ أكثر فضلاء الوقت، وله شعر رائق لميغ توفى سنة ٩٩٨ هـ.

انظر شذرات الذهب ٤٣٨/٨.

(١) فترة الأجفان: ضعفها ولينها، ويقال: طرف فاتر، فيه ضعف مستحسن.

(٢) البيت في عيون الأخبار ١٧٠/٢، وقد قيل في الحجاج وبعده بيت آخر هو:

هلا كررت على غزالة في الوغى ... بل كان قلبك في جوانح طائر

مَن كـل قافية إذا ما أُنشِدَتْ　　تركـت جريراً في العديد الآخرِ
حتى يرى أني امرؤٌ من أسرةٍ　　شادوا المعالـي فى الزمان الغابر
لكنّ لي جُرْثُومَـةٌ قـد أسبلتْ　　ذيـل الوفاء على الزمان الغادرِ
يـا فاضـلاً قـادت لنـا أفكاره　　غَرَّ المعاني فى النسيب الباهرِ
حَلَّيْت جيد الدهر عقد فرائد　　وكسوتـه وشى الثنـاء الفاخرِ
بقصائـد ظنَّانَـةٍ مـا غـادرت　　لبنـي القطيعة من عجاج ثائرِ
خذهـا إليك أرقُّ من نَفَس الصَّبا　　سحراً وألطـف من خيالٍ زائر
تغـدو على سحبان تسحب ذيلها　　وتجرُّ مِرط الزَّهْوِ فوق الحاجرِ
وكن الضنـين بهـا فـإنّ محلَّها　　بمكـان أسْود ناظري من ناظري
لا زلـت روضاً بالفضائل مُمْرَعاً　　تُنشي قريـض الشعر بين معاشرِ
مـا نـاح قُمريٌّ بروضٍ زاهر　　وغدتْ تطارحُهُ حمامةُ حاجرِ[1]

رد الصالحي على القصيدة

فكتب إليّ بهذه الحسناء الغانية جواباً، وأدار على مسامعي من سُلاف أدبه أكواباً، وهي قوله:

أسَمَـاءُ زُهر أم ريـاض أزاهر　　سحبتْ عليها الذيلَ نَسْمة حاجرِ
مبلولـة الأذيال تُسْنَدُ عن شَذَا　　دارين نَشْرًا عن عبـير عاطرِ[2]

---

(١) الحاجر: ما يمسك الماء من شفة الوادي، أو هو موضع قبل معدن النقرة ودون فيد، انظر معجم البلدان ١٨٣/٢.

(٢) دارين: فرضة بالبحرين يجلب إليها المسك من الهند، فينسب إليها، انظر معجم البلدان ٥٣٧/٢.

أم دُرَّةٌ مكنونــة مــا ثُقِّبَـتْ   أصدافَهـــا فكرُ الذكي الماهرِ
٧ ب أم شمسُ أفـق بالسَّنَا قد برقعتْ   وَجْهـاً وجاءت كالحبيب الزائرِ
أم بنـتُ فكر بالحيـاء تلفعتْ   وأتــتْ تهزُّ الرِّدْف تحت مـآزرِ
مُـذْ غازلتْني من جفونِ نواظر   ونضَـتْ نِقاباً عن جبينٍ زاهرِ
غضَّيـتُ طَرفي خوف بارق ثغرها   من أن يمرَّ كلمح لحظِ الباصرِ
سامرتُهـــا والنجمُ في آفاقـــه   يرنو كَخِـــلٍّ للنـــديم مُسَامِرِ
وتلتْ حديثـاً كالأمـان لخائفٍ   وألـذَّ من غفوات عَيْنِ السّاهرِ
أكْرِمْ بهـــا من غـــادَةٍ فتّانــةٍ   تَسْبي العقول بسحر طرف فاتر
جـاءتْ تعرِّفُنـا بـأنّ مقامها   فوق السِّماك وفوق نسْر طائرِ
فعجبـتُ من شمسٍ تُرينا نُورَها   هـل تنكر الأضواءَ عَيْنُ الناظرِ
وشكـتْ من الحُسّاد بغيـاً أنهم   جـاءوا بُزورٍ في المقالـة ظاهرِ
يــا قاتـلَ اللهُ الحواسدَ دَأْبُهُم   تنكـــيرُ معروف وكتْمُ مفاخرِ
يا ليت شعري والحوادثُ جمّةٌ   والدهرُ يبـدي كـلَّ أمر نـادر
مـاذا يريـدُ المفسدون بما سَعَوْا   حتى أذاعوا الزُّورَ بين معاشري
تَعِسَ الذي يرجُو الوفاء من امرئٍ   أو مـا يرى فلكَ الزمان الدائر
يا فاضـلاً سَحَّتْ سَحَابُ بيانه   ببديـع نظم كالعبـاب الزاخر
أنت الحُسَامُ المنتضَى من أُسْرة   إن سوجلوا أو فوخروا بمآثر
برقـــتْ غمائهم بغيـــثٍ ماطرٍ   وروى غَطَـــاءُ برِّهُمْ عن جابر
ولأنـت عندي في سواد الناظر   وحللتَ مني في سوايداءِ خاطري
بيني وبينك في المحبة نِسْبَةٌ   مَدْلُولها في الصِّدْق صدقُ الخاطرِ
خذهـا إليك ونظمُها من ضعفِهِ   يُبـدي قصوراً من ضعيف قاصر
لا زلت أفقـاً بالـدَّراري نيِّراً   تُهـدي السبيـلِ لِحائد أو حائرِ

مـا اعتلّت النسماتُ مِن شوقٍ بها ... ورقى خطيبُ الوُرْقِ عودَ منابرِ
ثم الصـلاةُ عـلى النّـبيِّ وآلِـهِ ... أهـل المفاخر والنجـار الطّاهرِ
مـا غنّتْ العُشّاقُ في ركبٍ وما ... قَصَدَ الحجازَ وحنَّ قلبُ الذاكرِ

لا يجده في بيته فيترك له قصيدة

قصد منزلي يوماً بدمشق الشام - جادَ رُبَاها الحيا، وصافحتْها كفُّ النسيم وَحيًا - لداعيةٍ دعت، وحاجة عرضت، فلما لم يسعد الطالع بالاجتماع، ولا ساعد التقدير، كتب إليّ بهذه الأبيات المخجلة الروض المطير، وهي قوله:

مَنْ مُبْلـغٍ عنّي سَلامـاً ناسماً ... عَطِر العبـــير وبالمسرة باسِما
من سَامَ كـلَّ فضائـلٍ وفواضل ... وغَـدَا لبـرق العلم حقًّا شائما[1]
قـد جئتُ أمسِ مقبِّلاً أعتابَهُ ... وبقيـتُ كالظّامِي عليـه حَائِما
وطفقـتُ في تلـك المعالم ناشداً ... خِدْنَ الصّفا النِّطِس الأغرّ العالما
ورجوتُ من تلـك الربوع إجابةً ... فوجـدت لا متكلما بـل كالمـا
ورجعـــتُ لمّـــا لم أجـد من مخبر ... عمّنْ أتـاح مغانمـاً ومكارمـا
والآن أشرحُ مـا أتيـت لأجله ... فاسمع وُقيت من الزمان مَغَارِما
عزم الفقـير إلى المصير إليكمُ ... يبغي زكـاةَ الجاه عزمـاً جازمـا

---

(١) سام الفضائل: لزمها ولم يبرح عنها، وشام البرق: نظر إليه يتحقق أين ينزل مطره، ويمكن أن يقاس ذلك على العلم على سبيل الاستعارة أي نظر إلى العلماء ليجالسهم ويأخذ عنهم ما يلقون إلى الناس منه.

وأتى يَؤُمّ جنابكم في حاجةٍ حاشاك أن تُلْفَى لديها خائما[1]
والأمرُ شيءٌ هيّنٌ لكنني عظَّمته لتكون فيه قائما
إنَّ العظيمَ من الرجال يهزُّه جُلُّ الأمور إذا غدون عظائما
قد رام إسعافي بذلك معشر فغدوت إلاّ عن نوالك صائما
وقصدتُ أن القول يَلْفَى حظهم ويكون منك الحظ فعلا صارما
والعبدُ يصرفُ ما تقرر رسمه للسادة الكتّاب صرفا لازما
ولكون يُغْييني المسيرُ إليهم صيّرتُ عزمَك في القضيةِ حاكما
فاسمح لنا بوفاء وعدٍ سابق لتنال مني الدهرَ شكراً دائما
لازلتَ كعبة قاصدٍ تسري لها نجب الأماني وُخَّداً ورَوَاسِما[2]
مازان جيدَ الدهر عِقْدُ عُلاكم وغدوتَ منثور الفضائل ناظما

رد المؤلف على هذه اللفتة

فمضيتُ على حاجته في الحال، وكتبتُ لجنابه بالارتجال:

مولاي شرَّفتَ الرُّبوعَ وطال ما زهتِ الدِّيارُ بكم ربًى ومعالما
وبعثتَ من أبكار فكرك غادةً نَحْوِي فرحتُ بها مُعَنًّى هائما
عذراءَ ساجٍ طَرفُها مهما رَنَتْ سَلّتْ عليك من اللّحاظ صوارما
وإذا انثنتْ تختالُ من مَرَحِ الصِّبا أزرتْ بخُوطِيِّ الأراكة ناعما

---

(١) خام عن الشيء: جبن وتراجع.

(٢) الوخد: نوع من سير الإبل توسع فيه الخطى كمشي النعام، والرسيم: ضرب آخر من السير فيه إسراع فوق الوخد.

كالرَّوْضِ فِي رَأْدِ الأصيل شدتْ على ... أغصانــــهِ وُرْقُ الحمام روائما
قد طرَّزته يدُ الجنوب بعارضٍ ... أحْوَى وعَرْفُ شذاه أضحى فاغما
أهدتْ تحيةَ من تَسَامَى قدرُهُ ... فَغَدا على نَجْم المجرَّة ناجما
مولًى حوى جنس الفضائل كلَّها ... وغَدَا بفصلٍ في بنيها حاكما
قد حُمِّلتْ في طيِّها من نشره ... أَرَجاً يفوقُ من العبير لَطَائِما[1]
فورَتْ زنادَ الشوق بين جوانحي ... إذْ لم أكن وقت الزيارة عالما
لكنني لما فَضَضْتُ ختامها ... ولثمتُ منها الثغر أشنب باسما[2]
بادرتُ أنْحُو ما أتَتْ من أجله ... وأرى المصير إليه حتما لازما
وإذا الخليلُ أَمَتّ يوماً خِلَّهُ ... بالقول كان لديَّ فعلا جازما
أيجوزُ في دين الوفاءِ بأن يُرى ... غيري بهذا الأمر يوماً قائما
كلّا إذاً لا سَرَتْ قطُّ ولا سعتْ ... قدمي لإدراك الأمور عظائما
مولاي يا خِدْنَ الصَّفَاءِ ومن غَدَتْ ... أخلاقُه مثلُ ـ الرياض نواسما
١٩ أ دع ذكر من ضيّعت عمرك مُطريا ... في مدحه بين العساكر دائِما
حتى دعتْك إليه يوماً حاجةٌ ... ألفيتَه فيها مريبا خائما
ولقد سبرتُ بني الزمان فلم أجدْ ... فيهمْ سوى نِكْس يُسمَّى حازما[3]
فاتركهمُ ترك الرئال تَريكَةً[4] ... في مَهْمَةٍ عافي المسالك قاتما
واهجر سوى خِدْنِ الوفاء ولا تُرَى ... أبداً لأبناء الزمان مسالما

---

(١) اللطائم: جمع لطيمة، وهي وعاء المسك.

(٢) الثغر الأشنب: هو الذي صفت أسنانه وابيضت، والعامة استعارت الشنب للشارب واستعملته فيه حتى نسي الأصل.

(٣) النكس: المقصر عن غاية النجدة والكرم.

(٤) الرئال: جمع رأل، وهو فرخ النعام والتريكة البيضة التي يخرج منها.

لا زلتَ روضاً بالفضائل ناضراً | تُهدِي لنا زُهرَ المعاني باسما
ما غرَّدَتْ قمريّةٌ في أيكةٍ | وغدا اليراعُ لخدِّ طرسٍ راقما

الصالحي يهنئه بمولود

. ومما كتب به إليّ مهنئاً بمولود طلع في سماء منزلي هلالا، فاستهلّتْ به المسارُّ[1] استهلالا، متعرضاً لنصْبَةِ[2] طَالِعِهِ، وقد بدا كالقمر في مطالعه، مشيراً أثناءه بطلب ديوان الشريف الرضي، وذلك عام إحدى وثمانين وتسعمائة، قوله:

من بعد تقبيل أرضٍ قد سمتْ شرَفا | أفق السماء وآضَت روضة أُنُفا[3]
وودت الشهب لو نيطتْ بلَبّتها | عِقداً وفي أذنها لو عُلِّقت شُنُفا
وبعد إهداء دَاريّ السلام إلى | دار الذي حيث حلّ المجد ما انصرفا
ووصف شوق وما بالعهد من قدم | كابَدْتُ منه على قُرب نوًى قذفا[4]
وليَهْنه نجم سَعْدٍ من قران ذُكا[5] | أتى به بَدْرٌ، فضل قطُّ ما خُسِفا
الدلْو مع زحل قد جاء طالِعُهُ | سُعُودُه قد حواها تُلَّداً طُرَفا
عُطارِدٌ فكرُهُ بَهْرام[6] عَزْمَتُهُ | والمشتري سعدُه إنْ سار أو وقفا

---

(١) المسار: جمع المسرة، والمسرة: مصدر ميمي بمعنى السرور.
(٢) النصبة: العلامة.
(٣) آضت أنفا: أي عادت جديدة.
(٤) القذف: البعيد، يقال نية قذف ونوى قذف أو فلاة قذف أي بعيدة تتقاذف بمن يسلكها.
(٥) ذكاء اسم الشمس ممدودة، وقصرها هنا للضرورة.
(٦) بهرام: اسم لكوكب المريخ.

لنعم مولودُ سعدٍ في العلا ظهرت ... آياته واغتدى عمن مضى خلفا

وابعث إلينا بديوان الشريف ومن ... حوى المعاليَ عن آبائه الخُلَفا

١٩ ب واسلمْ ودُم ماسرى صُبْحاً نسيمُ صَبَا ... وما أضاء عِشاءً بارقٌ وهفا

وما أهاجتْ أغاريد الحمام ضحًى ... صبا له صبٌ دمع حسْبُه وكفا

فكتبت إليه بهذا الجواب، لا زال يُرشِفُ سمعي من راح آدابه أكواب:

قد أذكرت من عُهود الصَّب ما سلفا ... فكاد يُقضي على تذكاره أسَفا

جيداءُ[1] منصلَتِ القُرطين في غَيَدِ ... خطتْ إليّ كخُوطٍ تنثني قُطُفا

بعيــــدة المرتمى ترمي بناظرة ... من ريم وَجْرة يُبدي جفنه وَطَفا[2]

خطتْ على بَرْحٍ وَجْدٍ بتُّ أكلؤُهُ ... وحرٌ وقَدْ شعافِ القلبِ قد شَعَفا

فخلتُ شَرْخَ شبابي رُدَّ ريِّقُه[3] ... على من كنت مشغوفاً به كَلِفَا

إذا الرُّسُوم تُرَى بالبِيض ناضرةً ... وبالكواعب تُلْفَى روضةً أُنُفَا

وآفت كقطعةِ روض غِبَّ ساريةٍ ... سقتْ أقاحيه من رَقراقها نُطَفا

ترعرعت فيه أطفالُ الرُّبى وغدا ... بيت القرار إلى الحَوْذانِ منعطفا[4]

في طيِّها نشرُ داريٍّ به عَطِرتْ ... أرجاءَ رَبْع نديها طال ما شَرُفا

لله كم جمعــت عُليــا بلاغتِهــا ... من كلِّ رائق معنى راق أو لَطُفا

---

(١) الجيداء: الطويلة العنق في جمال وحسن، ومنصلة القرطين: بارزتها، في غيد: أي في نعومة وتثن، والخوط: الجسمة الخفيفة، تنثني قطفاً: أي تنثني في بطء وتكاسل.

(٢) الوطف: كثرة شعر الجفنين مع طول واسترخاء.

(٣) الرَّيْق: (بفتح الراء وسكون الياء وتشدد): أول الشباب.

(٤) الحوذان: نبات عشبي من ذوات الفلقتين، منه أنواع تزرع لزهرها الجميل، وأخرى تنبت برية.

وضمّنتــه من الأشواق في فِقَر   كأنها الزُّهر أو زَهر الرُّبى تَرفا
منهـا التهاني بنجم الدين عبدِكُم   وحسبُ أمثالـه أن تمدحوا شرفا
وهـا بعثنا بديوان الشريف إلى   جنابـكمْ وبوَشْيٍ إثر ذلـك قَفَا
لكنـه لا كَوَشْيٍ حكـتَ بُرْدته   يُلْفَى اللآلي وما قد حكته الصَّدَفا
لا زلـتَ تُرْشِفُ سمعي كلَّ رائقةٍ   تغـدو لأسماع آذان الورى شُنُفا

رسالة الصالحي إليه من دمشق يطمئنه على أهله

ومما كتب به إليَّ لا برحت رباع الفضل بذكره معمورة، ومعالم العلم بسحائب آدابه مغمورة، هذه القصيدة العَيْنية، والفريدة المخجلة بحسن طلعها الظباء العِينِيَّة[١]، وأرسلها إليَّ من دمشق الشام إلى مقام دار الخلافة قسطنطينية مناط الأحكام، تِلْو نثر أبدع فيه غاية الإبداع، وأتى بدُرَرِ فِقَرٍ بمثلها تحلَّى أجياد الآداب وتشنف الأسماع، وذلك مستهل محرم الحرام سنة ثمانين وتسعمائة، قوله:

«يقبِّل الأرضَ المُقبَّلة بشفاه المُقُل لا بشفاه الثُّغُور، الضاربة سرادق المجد فوق هَامَة النَّسْرَيْن[٢] وهالات البدور، السامية بَهْرامَ وكيوانا، الساحبة على فَرْق الفَرْقَدين أذيالا وأردانا، المتخذة الجوزاء لها نطاقا، والثريا شُنُفا وأقراطا، والنجوم قلائدَ وأعلاقا.

---

(١) العِينية (بكسر العين): الواسعة العينين مع شدة بياض بياضها وسواد سوادها.

(٢) النسرين: هما النسر الطائر وهو مجموعة من النجوم معروفة بشابهتها للنسر، النجم ذو القدر الأول فيها هو الطائر، ثم النسر الواقع، وهو مجموعة من النجوم، النجم ذو القدر الأول فيها يسمى الواقع، وكلا النسرين في النصف الشمالي من القبة السماوية.

أرضاً أَوَدُّ بِهُدبِي لو كَنَسْتُ بها تراب نعل الّذي للقلب قد شاقا
وأنَّ دمعَ عُيُوني لَو رَشَشْتُ به رحابَ مَن أودع الأحشاء إحْراقا

ويُنهي بعد رفعِ دُعاءٍ إلى حضرات القَبُول عُرُوجُه، وفي مواطنِ مَوَاطىء الملائكةِ دخولُه وولوجُه، وبَثٌّ ثناء خُطوطه الخارجةِ من نقطةِ دائرة العبارة مستقيمة، وحفظِ ودادِ أُمرَّتْ حبال عُقوده[1]، فليست بواهية ولا رميمة، وصدقِ إخاء احكِمَت أواخيه[2]، فلم تُفصم عراها، وسرد أنباء سارة ما تلاهى عنها لما تلاها:

تولَّعتِ الركبان شوقاً بذكرها فتنشدها في البيد عند سُراها
وتحدّى بها العيسُ التي مضّها الونى[3] فتغدُو سِراعاً بارتقاصِ خُطاها

٢٠ ب ووصفِ أشواقٍ زنادها له بين الجوانح وَرْى، وعَضبُها الماضي الشّبا له في أديم القلوب شَقٌّ وفَرْي، ولَوْعات وُفُود همومها مُتتابعة، وزَفَراتِ تضيق الأنفاسُ في بيدائها الواسعة:

وحَرٌّ غرامٍ في القلوب ضِرَامُه يؤجِّجُ ناراً بين جنَبيَّ ساطعه
وفيض عيونٍ بالدُّمُوع كأنها سحائب أنواءٍ مدى الدهر هامِعَه

وشكوى فراق تمنته الأعداءُ فجاء على وفق الاقتراح، وعدم المحبّ معه صبراً لِفراق خليله من وقت راح، قد حلَّ عُرى التجلُّد والاقتدار، ودار بكئوس مَنُونه المترعة فأرهق الأرواح من وقت دار، وأجلب بخيله

---

(١) أمرت الحبال: أحكم فتلها.
(٢) الأواخي: جمع آخية وهي عروة من حديد تثبت في الأرض أو في الحائط وتربط بها الدواب وغيرها.
(٣) الونى: الضعف، وفي ج: السرى.

ورَجْله فَفَلَّ من الاصطبار مقانبه[1] وكتائبه، ورشق سهامَ حتفٍ كلُّها في أغراض القلوب صائبة:

وسلَّ سيوف الموت تَدْمَى غُروبُها وصَيَّر رُوحَ الصَّبِّ بالفتك ذاهبه
ويا ليتَه لو مَنَّ يوماً بعتقها فكان يُرى بالمنِّ والعتقِ ذاهِبَه[2]

إن المملوك منذ استولى عليه من مولانا فراقه، وذاق صاب هجره وبعده المرير مذاقه، ماخِيطَتْ جفونُه على سِنَةٍ مع وجود إبر أهْدَابه، ولا ألف جنبه المضجع منذ فارقه ظبيُ الكُنَاس وانحصر مع ليث في الفراق في غابه، وليس له في الليل إذا عَسْعَس، مُسامر غير النجوم الكنس، ولا في النهار إذا أسفر معاشر غير تمثل شخص مولانا وخياله المستحضر، قد نبذ الأخْدَان والإخوان ظِهْريًا، وهزّ إليه بجذع نخلة ٢٠ أ وِدَادهم فتساقطتْ عليه حَشَفاً بالياً، وكان يَجِدُ بقرب مولانا رُطَباً جَنِيًّا، وتطلّب أخاً صادقاً وخِلّاً مثلَ مولانا سَرِيًّا، فناداه الزمان لقد حاولتَ مُحالا، وجئت شيئاً فريًّا، وليعلم سيدنا - أعزّه الله، وبمزايا كرمه ووافر نعمه حباه - أن المملوك قائمٌ بأوراد الدعوات ووظائفها، متتبعٌ مواطن الإجابات عارف بعرفات القبول ومواقفها، ما أحْصَرَ قطُّ عن مكة قصدِه، ولا طاف بغور تقصيره منذ سعى إلى مشاعر نجدِه، متطلبٌ من الله أن يمتّع سمعَه بما حصل لمولانا في صعوده من المراتب العلية، مستكشف من كلِّ آتٍ عن خبر سارٍ تُرمى به الجمرات في قلب كلِّ حاسد

---

(١) المقانب جمع مقنب بكسر الميم، وهي الجماعة من الفرسان والخيل دون المائة تجتمع للغارة.

(٢) ذا هبة أي صاحب هبة وهي المنحة أو العطية، وبين هذه الكلمة وبين سابقتها في آخر البيت الأول جناس تام كما لا يخفى، وهو واضح كثير في القطعة كلها من مثل قوله: وفق الاقتراح... من وقت راح، والاقتدار... وقت دار الخ.

قصَّر عن المجد وما فاز بأمنيته، فكأني بمولانا وقد طلع هلالُ قصده في سماء النجح بدراً، وآصَن ثمام بُعده عنَّا غصناً يقِلُّ نوَّاراً وزَهْراً[1]، وشفى بكُحل رؤيته رمد عيون أوليائه، وأبرأ بدرياق قرب القلوب السليمة من أودَّائه، وليعلم - سيِّدنا - أن المملوك استعلم عن أهل بيته من أحرار وعبيد، وكلّ طارفٍ منهم وتليد، فإذا الجميع بسلامة من الله وخَيْر، ما أخنى عليهم الدهر ولا مَسَّهم بضَيْر، وخصُوصاً الولد العزيز جعله الله للعُيون قُرَّة، وأطلعه في سماء الفضائل بدراً بل شمساً، وإن تنزلنا لرعاية السجع زُهْرَة[2]. ولم يتجدّد في البلدة بعد مولانا شيءٌ تشنِّفُه المسامع، ولا حادثة تتداولها الألسنة في صدور المحافل والمجامع، حتى نُعْلم المولى بها، ونُوقفَد[3] على كُنْه حقيقتها وسببها، وقد أرسل المملوك هذه القصيدة العينية وطَرْفُها من الحياء والخجل غضيض، وجناحُها عن مطار قريض مولانا في جَوِّ البلاغة مَهيض، وأَوْجُها بالنسبة إليه في الحضيض، والعذر واضح فإنها مُذْ حاولتْ وصفَ مولانا وقعتْ في الطويل العريض، فليُغِضّ المولى طرف النقد عن عَيْبها ويُغضي، ولُيسْبل عليها رداء الستر إن رأى منها ما لا يُرضي، وهي:

هـذي منازِلُهم عليهـا فاربَـعِ ... واسكُبْ دموعَ العينِ وسطَ الأربُعِ[4]

---

(١) آصن: عاد ورجع، والثام: عشبٌ من الفصيلة النجيلية يرتفع إلى مائة وخمسين سنتيمتراً، ويقل: يحمل ويرفع، ومنه الآية الكريمة: (حتى إذا أقلت سحابا ثقالاً سقناه)... الخ.

(٢) الزهرة هو الكوكب المعروف بهذا الاسم وهو كوكب شديد اللمعان يدور حول الشمس بين عطارد والأرض.

(٣) الأصح أن يقول: نقفه فالفعل المعتل الأول يحذف أوله مع حرف المضارعة مثل وعد يعد.

(٤) أربع: أمكث وانتظر، والأربع جمع ربع وهو الدار.

واحبس على تلك المعالم فتيةً شربوا بكأسٍ من سُراهم مُترع

متهافتين على الرِّحال كأنهمْ أشباهُ قومٍ في صلاة رُكّعِ

والثم بجفنك تُرْبَها واشْتَمَّهُ فترابُها كالعنبر المتضوِّع

واقض المعالم حقَّها من وقفةٍ سنّت بخد الصّبِّ فرض المَدْمَعِ[1]

ولئن وقفتُ فما أراني ناظراً تلك الرسوم لفرطِ سَحيِّ أدمعي

فبِمَعْلمٍ في سفح جلَّق محنتي لا بالعقيق ولا النَّقا والأجْرعِ

ما ارتعتُ قط لحادثٍ أو واقعٍ من صَرْف دهر بالخطوب مُرَوِّعِ

مثل ارتياعي يوم سار خليطُهم وبقيتُ فرداً في الطلول الخُشَّعِ

لِلَّـهِ كم لي بَعْدهم من عبرةٍ أزكت لهيبَ النارِ بين الأضْلُعِ

أسَفي يزيدُ ولوعتي ما تنقضي إذ لم أكن لأحبَّتي بمُوَدِّعِ

وكذاك قلبي لم أكن لمّا سَرَى سَحَراً له في إثْرِهِمْ بمشيِّعِ

أضْحِي وأمْسِي ليس لي شُغْلٌ سوى سكبِ الدموعِ ومُقْلَة لم تَهْجع

فسحتُ من دمعي بِدَرٍّ أبيضٍ حتى بدا مَرْجانُ تلك الادمع

لم يدر جنباي المهاد كأنّما شَوكُ القَتادِ لبُعْدهم في مضجعي

وغدوتُ من يوم الفراق وليس لي عقلٌ يفيق وليس لي قلبٌ يَعِي

ما لي وهذا الدهر جرَّعني الأسى يومَ النوى عمداً ورَنَّق مَشْرِعي[2]

قد قال لي سيَّانَ بعد فراقهم ورحيلهم أجَزِعْت أم لم تجزَع

لا ذنب عندي للزمان مكفِّرا ما لم يَجُدْ بعد النّوى بتجمُّعِ

---

(١) سنت بخد الصبّ: أي احدثت فيه، والفرض: الحز في العود وغيره، ويقال أيضاً: سنت العين الدمع: صبته صبا سهلاً، والشاعر هنا يستعمل مصطلحات الفقه استعمالاً لطيفاً.

(٢) رنق الماء: كدره، والمشرع: مورد الماء الذي يستقى منه بلا رشاء كالجدول والنهر وما أشبه ذلك.

وأرى خدين الوُدّ دَرْويشاً ومن ... سَنَّ الوفاء على قويم المهيعِ
الكامـلُ الفردُ الرفيعُ جنابُه ... فوق المجرَّة والبدور الطُّلَّعِ
الفاضل النَّطسُ الألدُّ تجادلا ... في يوم بحث مَعْ صُدور مُجَمَّع
عـذبُ الحديث كأنّ مُعربَ لفظِهِ ... لحنُ الغَرِيض وصَدحُ وُرْق سُجَّعِ [1]
المحرزُ القَصَبـاتِ يوم رهَانَـة ... بجياد عزم في المجال الأوسع
عزمٌ لمتقـد السَّعـير ضِرامُـهُ ... يَسْري ويهزأُ بالبروق اللُّمَّعِ
همٌ لـه تركت حضيضاً سافلاً ... وسَمَتْ إلى أوج السِّمَاك الأرْفعِ
قلمٌ لـه فيـه المنون مع المنى ... في حالتيـه مُوقِـعٍ ومُوَقِّعِ
سُقِيَ المـدادُ فمَجَّةٌ في طرسه ... أرْيـاً [2] وآونـة كَسَمٍّ مُنْقَعِ
يأتي بأنواع الغرائب إن مشى ... فوق الطروس وكل أمر مُبدع
قـد قلت للساعي ليدرك شأوَهُ ... أين الهجانُ من الهجين الأظْلَعِ [3]
خفِّف عليك فدونَ ما قد رُمْتَه ... وقعُ الصوارم والقنا المتزعزعِ
فالمجدُ مثـل الملك يحمي دائماً ... بمدجـج يوم الوغـى ومدَّرع
كم عِقْدُ درٍّ منـه قَلَّدَ فضلُه ... جيـدي وشَنَّفَ بالفوائد مسمعي
أشكو إليـه وَحْشَةً من بُعْـده ... مذ فارق الغادي وأوحش موضعي
ومراتعي من بعـده قد صَوَّحَتْ ... والغيـث أقسم لا يَلُمَّ بمربعي

---

(١) القريض: سبق الحديث عنه.
(٢) الأري: عسل النحل.
(٣) الهجان من الأشياء: أجودها وأكرمها أصولاً، والهجان من الإبل: البيض الكرام، ويقال: رجل هجان: كريم الحسب نقيه، وامرأة هجان: عقيلة قومها، أما الهجين فهو غير الخالص النسب فهو من الخيل ما كان من برذونة وأب عربي، ومن الناس ما كان أبوه عربياً وأمه أعجمية.

وهجرت إخوان الزمان فلم أجد منهم أخا ثقة ولا عضُدا معي
كم مظهر ودًّا خبرتُ وداده فوجدته مثل السراب ببلقع
فكففتُ عنه غرب مُرهف مِقولي[1] وإذا تكلَّم مسمعاً لم أسمع
أفبعد خلٍّ غاب عني بَدْرُهُ أرضى بنَجْم بل بليلٍ أسْفع
من كان يقنعُ بالتبدُّلِ في الهدى فأنا بغير أحبَّتي لم أقنع
والله يجمع عن قريب شملَنا مَعَ وصْل أُنسٍ حبله لم يُقطع
ويعيده في نعمة مشفوعة ببلوغ ما يرجو بغير تمنع
ما بشرت رُسْلُ التهاني مُغْرماً عن جيرةٍ شطّت بقرب المَرْجع

قصيدة لجناب المولى أبي السعود

ومما اتَّفق لي نظمُه وأنا بالديار الرُّومية قسطنطينية المحمية - لا زالت ساحتها، مقر الخلافة مصونة باحتها، عن كل وصمة وآفة، سنة ٩٨٠ ما كتبت به بإشارة بعض الإخوان إلى شيخ إسْلامها، وعَلَّامة علمائها، المولى أبي السعود[2]، معدن الفضائل والفواضل والجود، شيخ

(١) الغرب: القاطع الحاد.

(٢) هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، المعروف بالمولى أبي السعود، صاحب التفسير المعروف باسمه، وقد سماه هو «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» ولد بقرب القسطنطينية عام ٨٩٨ هـ، ودرس في بلاد متعددة، وتقلد القضاء في بروسة فالقسطنطينية فالروم ايلي، وأضيف إليه الإفتاء سنة ٩٥٢ هـ.

وكان حاضر الذهن سريع البديهة، كتب الجواب مراراً في يوم واحد على ألف رقعة باللغات العربية والفارسية والتركية تبعاً لما يكتبه السائل، وكان مهيباً حظيا لدى السلطان، توفي عام ٩٨٢ هـ.

انظر خلاصة الأثر ١٨٩/٤، وريحانة الألباء ٧٧/٢، وشذرات الذهب ٣٩٨/٨.

تلك الديار على الإطلاق، ومُفْتي الفرق الإسلامية في جميع الآفاق بالاستحقاق، قولي:

يـا رَبْـعَ رامـة مَربَع الآرام — درسَتْ معالمـه عـلى الأيـام
مـا آض طرفُ اللحظ فيك مُسلِّماً — إلّا وفاضـتْ مهجـتي بسلام
هـل وقفـةٌ بعراصِـهِ أشْفي بها — من حُـبّ ساكنـه غليلَ أوامِي
رَبْـعٌ أَذَلْتُ[1] به مصونَ مدامعي — وأطلـتُ فيـه تَوَلُّعي وقيامي
لم تُبـق نازلةَ النَّوى منه سوى — طَلَـل عـلى حُكمِ الزمان رِمام
نُؤيٌ بمنعَطَفِ الدِّيار ورَسْمهـا — يبدو كما انعطفَتْ حنيَّةَ رامي[2]
وثـلاث جـاراتِ أقمن بساحـه — سُفـع الوُجُوه كرائمات حَمام[3]
ولقـد حبستُ على الديار عصَابَةً — حنَـتِ الضلوعَ على جَوًى وضِرام
متهافتـين على الرِّحال كفتيةٍ — خرُّوا سجوداً بعد طُول قيام
شربَتْ بكاساتِ السُّرَى خمر الكرى — حتى اغتدتْ صَرْعَى بغير مُدام
طَلَـلٌ وقفتُ عـلى رباه نائحاً — غَرْبَ المدامعِ[4] مثلَ فيضِ غَمام
ولهـانَ أنشدُ في معاهـد رسمـه — عهد الشباب مضى كطيفَ مقام

---

(١) أذلت: أي أذللت فحذفت إحدى اللامين، وهو حذف جائز، ومثله قوله تعالى: «وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً» أي ظللت، وقوله جل ذكره: «فظلتم به تفكهون» أي فظللتم.

(٢) النؤي: مجرى يحفر حول الخيمة أو الخباء يقيها السيل، والحنية: القوس.

(٣) ثلاث جارات: يعني بهن أثافي القدر، وهي ثلاث حجارة كانت تلتقط وتشعل بينها النار ثم يوضع عليها القدر، وسفع الوجوه أي سود الوجوه، والرائحات: الحانيات على أولادها، وهو يشبه أثافي القدر في اجتماعها وقربها من بعضها البعض بحمامات سود تر أم أولادها وتحنو عليها.

(٤) غرب المدامع: سيلها.

يا مُذكري زمن الصبابة والصِّبا ذكرتك ذكرى هاطلات رهام
وكسَتكَ من خلع الشباب ورقِّهِ خِلَعاً تروق لناظر مُستَام[1]
قد كنتَ مألف كلّ ريم أهيف يهفو إليك وربْع كل غرام
من كل مُخْطَفة الحشا كأخي الرشا للحاظها في القلب وقع سهام
رُعبُوبة سُقِيَتْ مياه شبيبةِ فغدت كزهر الروض غب سجام
بدرٌ بليل الشعر مهما أسفرت فيه أرتك الشمس جنح ظلام
قالتْ وقد نثرت فريد مَدامع في خَدِّها كفريد عِقد نظامِ
والبينُ زُمَّتْ للرحيل ركابُه ويدُ النوى تعطو بفضل زمامِ
ليت الذي خلق النوى جعل الحَصَى بخفافهنّ مفاصلي وعظامي
فأجبتُها لما سمعتُ مقالها والدمعُ من حَذَر التفرُّق هام
لا تجزعي مما دهاك فربما جُعل الترحُّل وصلة لمقام
وإلى جناب أبي السعود وربعه نُصِّي الركايب تظفري بمرام[2]
بجناب أفضل عالم وَطِيءَ الثرى في ذا الورى اوفاهُمُ بذمام
خير امرىء لم تشتبه آراؤُه عند اشتباه البيد والأعلام[3]
بذراه يُلقَى الجودُ ملقِ رَحْلَه والمجدُ لا بأباطِح وأكام
علَمَ الهدى بحر الندى مَولى الجَدَا طُولَ المدى لذويه خير إمام
من لم تزل أعتابه لذوي النُّهى حرم النوال وكعبة الإكرام
مولى إذا يممت ساحة جُوده أولاك من نعم لديه جسام
بل إن تَمُتَّ إلى ذراه بنسبةٍ هذي أمِنْتَ إذاً من الإعدام

---

(١) رقه: رقته ونضارته، والمستام: الذي يطلب شراء السلعة ويرغب فيها.
(٢) نص الركائب: استحثها للجري.
(٣) الأعلام: جمع علم، وهو ما ينصب في الطريق ليهتدى به.

أسَرَتْ[1] لـه الآفاقُ عزمةُ همِّه ضربتْ رُواق المجد فوق الهام
واحتـاط هذا الدينُ منه بصارم ماضي الشبا كالصَّارم الصمصام
ورَسَا لـه طودا تقاعسَ دُونه هَضَباتُ رضوى من ذراها السامي
يـأوي إليـه الحلم معتصماً إذا طـارت رياحُ الطيش بالأحلام
عـفُّ الإزار يجرُّ أذيال التُّقى والــدين لا بتغطْرف وعُرَام
لا تَطَّبيه[2] مطامعُ الدُّنيا ولو بسمتْ له عن ثغرها البسّام
مولايَ يا ركن الهداية والهُدى ومن اغتدى للدين خير قوام
لا تُغبب الأنواء رَبْعك إنـه حصنٌ لنـا من حادث الأيام
وإلى حِماك الرَّحب وافت غادةٌ بسَّامَةٌ تُزهي كبدر تمام
قصدتك من عُليا دمشق رجاءَ أن تحظَى ببرِّك يا أبرَّ هُمام
لا زلتَ محروسَ الجناب بدولةٍ تسمو مدى الأيام والأعوام
ما حنَّ للوطن الغريب وما شدَتْ وُرْقُ الحمام على فروع بَشَام[3]

وقصيدة إلى جناب المولى أم ولد زاده

ومما اتفق لي أيضاً وأنا بالروم في التاريخ المذكور، ما نظمته بإشارة الأخ الأفضل، والبارع الأكمل، بل صديقي وحميمي، تقي الدين

---

(١) أسرت: شدت وقوت.

(٢) تطبيه: تسحره وتملك لبه، فالطب هو معالجة المرض، وهو السحر أيضاً.

(٣) البشام جمع بشامة وهي شجرة طيبة الرائحة والطعم يستاك بها.

المقدسي التميمي[1]، إلى جناب المولى علي أفندي الشهير بأمّ ولد زاده[2]، زاد الله من الآدب والفضائل زاده، وقد ولي قضاء حلب، قولي:

سَقَى عهدَ الصِّبا عَهْدُ الوَلِيِّ رَوَى وحَبَا حِماه ذو حَبِيٍّ[3]

وخَصَّ دُوين منزله محلاً حَللتُ ذراه في عيش رَخيٍّ

وألبسه الزمانُ قشيبَ بُردٍ وشَتّه يدُ الغمائم سندسيٌّ

وغردت الحمائمُ في رُباه بلحنٍ يبعث الشكوى شجيٍّ

فيا لله كم غازلتُ فيه غزالَ نَقاً لطرفٍ أحْوريَّ

وجُؤْذَرَ رمْلةٍ يسبي لحاظا لحاظ مَهَا الصَّريم بحسن زيَّ

---

(١) تقي الدين بن عبد القادر التميمي الغزي المصري الحنفي، عالم أديب، كثير التأليف جم الفائدة.

ولد سنة ٩٥٠ هـ، وجال في البلاد ودخل القسطنطينية فأخذ عنه علماء كثيرون.

تولى القضاء بالجيزة وتوابعها (ولم يكن سعيداً به)، واشتغل بالتأليف ومن أهم مؤلفاته كتاب (الطبقات السنية في تراجم الحنفية) ولما كان المذهب الحنفي هو مذهب الدولة الرسمي آنذاك فقد جمع فيه جملة من علماء الروم وعظمائها وأكابر سراتها ورؤسائها فجاء من أوسع الكتب في هذا الباب، وقد صدر جزؤه الأول منذ فترة بتحقيق عبد الفتاح محمد الحلو.

وله من المؤلفات غير ذلك: حاشية على شرح الألفية لابن مالك، والسيف البراق في عنق الولد العاق، ومختصر يتيمة الدهر للثعالبي، وله نظم ونثر.

توفي التميمي سنة ١٠١٠ هـ.

انظر خلاصة الأثر ٤٧٩/١، ريحانة الألبا ٢٧/٢.

(٢) هو علي بن عبد العزيز بن حسام بن حامد المعروف بابن أم ولد زاده الرومي، من القضاة ولي القضاء بحلب، وتوفي بها سنة ٩٨٠ هـ.

من مؤلفاته: الرسالة الشمعية، ورسالة الامتحان، والرسالة السيفية.

انظر هدية العارفين ٧٤٨/١.

(٣) عهد الولي: المطر المتتابع، والحبى: السحاب.

يُجَلِّي عن سنا قمر سَنيّ ويُجلي عن لَمَى خصر شهيّ
رخيمٌ دَلُّهُ خفرَ المُحيَّا يروق بحسن مرآهُ البهيِّ
تصولُ صوارمُ الألحاظ منه فتُصْمي مهجة البطل الكَميّ
حَوَى في ثغره المعسول راحاً لها فِعْلٌ كفعل البابليِّ
حَلَتْ بفم المُعَنَّى مثل ما قد حَلَتْ حَلَبٌ بذي قدرٍ عليٍّ
إمام في الفضائل اوحديٍّ همام في المكارم أريحيٍّ
أريبٍ ماجدٍ شهم أبيٍّ مهيبٍ باسلٍ قَرْمٍ سَرِيّ
له مجدٌ رفيعُ القدر يرنو إلى الجوزاء والفلك القصيِّ
وخُلْقٌ مثل زهر الروض يزكو شذاه على شذا المسك الذكيِّ
وكفٌ كالسحاب تجود سَحًّا على العافي بشُؤْبوب رَويّ
بنى لبني الدُّنا بُنيان مجدٍ أوَتْ منه إلى رُكن قويّ
وشيّد للعُلى أركان فخرٍ رسَتْ في المجد كالطَّودِ العَليّ
بعزم في الأوامر مَاضَوِيٍّ وحزم طار عن زَنْدٍ وَرِيّ
فيا لله كم جادت يداه على راجي نداه بصوب ريّ
تصدّر للندى بحراً ومن ذا رأى بحراً تصدر في نديّ
ونوّل من علوم العقل ما لم ينله سواه بالفكر الجليّ
وأحيا من علوم الدين ما قد أمات الجهل في الزمن الخليِّ
فيا مولى لـه رُتَبٌ تسامتْ على الشِّعْرَى بسؤددها السَنيِّ
ويا حرمَ الندى يا ركنَ فضلٍ ويا قمرَ الندامي والنديِّ
ويا خيرَ امرىء أمّتْ إليه مطايا العزم من بلد قصيٍّ
إلى عُليا حِماك الرَّحب وافتْ مهنئةً بمنصبك الهنيٍّ
ودونك قد تبدّتْ فاجتليها عروسُ حُلًى تَهَادَى بالحُلِيِّ

وَمُوشِي بُرْدها الفضفاض يُنْمي إلى كرم النجـــار الطَّالويِّ
فتى الآداب من زمن التَّصَابي يعانيهـــــا بفهم أحْوَذِيِّ
غريـبٌ في ديـار الروم أمسى يعــــاني سَوْرة الزمن الأبـي
يحنُّ إلى دمشق وساكنيهـــــا حنـــينَ حمامـــةٍ بفنـــا أُشَيِّ
إذا ناحـتْ عـلى إلـفٍ تراه يـاجلُهـــا بمدمعـــه السخيِّ
وقـد وافـى جنابَـك يـا إماماً ولم يعـدل عن النهـج السويِّ
فهـل لـك يـا عليَّ القدر يوماً لمن والاك من عهـــــد وفيِّ
بقيـتَ بنعمـــة تنمى وعيش ثوتْ بظلالـه النُّعْمـــى هـنيِّ
ولا تُغْبِبْ لـك الأنواءُ رَبْعاً رواءً بالغـــــــداة وبالعشيِّ
مـدى الأيام ما حنَّ اشتياقاً غَريــــبُ إلى الوطن الرخيِّ
وزمزمتِ الحُـدُاة بذكرِ سَلْمى وغنَّــت في الحمــى شوقـاً لميِّ

قصيدة إلى النعيمي في طلب حاشية المواقف

ومما اتفق لي أيضاً بالروم في ذلك التاريخ، ما كتبت به للخطيب شهاب الدين النُّعَيْمي، وقد ابتاع أحد أولاده حاشية المواقف للفاضل الشهير بخواجه زادة البُرْسَوي[1] وأنا على جناح سفر ارتجالا، فكان

---

(١) هو مصطفى بن يوسف بن صالح البرسوي الحنفي، المعروف بخواجة زاده، عالم حكيم، جعله السلطان محمد بن مراد معلماً لنفسه، وعينه قاضياً للعسكر، ووهبه تدريس سلطانية بروسة ومدرسة السلطان محمد بالقسطنطينية، ثم ولي قضاء مدينة أدرنه ومدينة ارقيق وتدريسها، وتوفي بمدينة بروسة سنة ٨٩٣ هـ.

استخلاصها محالاً، وصورة ذلك، قولي:

مولايَ يـــا بَحْر النَّـــدى ... يــا ذا الأيــادي الوافِيــه
يـــا خَيْر حَبْرٍ عـــالِمٍ ... آراؤُهُ لِيَ كافِيَـــــــه
وشهـــاب فضـــل ثاقِـــبٍ ... حـــلَّ المجرَّة ســاميــه
ومن اغتـــــــدتْ أنوارُهُ ... لـــذوي الضَّلالـــة هادِيَــه
وافتـــك مِنِّي قطعـــةٌ ... كالروض عُـــلَّ بسَارِيَـــه
فتفتحـــــــتْ أنواره ... كخلائـــق لـــك زَاكيَــه
وآفَـــتْ من الملوك تنحُو ... نحو بابـــك جاريَـــــه
تبغى رضـــاك وحَسْبُهـــا ... منـــك الرضـــا والعافيـــهْ
وتروم نجـــح القَصْـــدِ في ... أمرٍ أتَتْـــهُ راجيَـــــهْ
وتراه شيئـــاً هَيِّنـــاً ... يـــا ذا العطايـــا الفاشيَــه
هو أن سيِّدنـــا الـــذي ... حـــاز العلومَ السَّامِيَــــه
النجـــلُ مِنْ فرع العـــلاءِ ... من الأصُول الزاكيــــــه
من دوحـــةٍ عربيّـــةٍ ... لسُمُوِّهـــا متساميــــه
وافى لسُوق الكتـــب من ... بعـــد الصـــلاة الثانيــه
وابْتـــاع من لُطْـــفٍ عـــلى ... شرح المواقـــف حاشيـــه

= له من المؤلفات، حاشية على شرح المواقف لعضد الدين الإيجي لم تكمل، (وهي التي أشار إليها المؤلف)، وحاشية على شرح التنقيح للتفتازاني في الأصول، وحاشية على شرح هداية الحكمة، وغير ذلك.

انظر شذرات الذهب ٣٥٤/٧، والبدر الطالع ٣٠٦/٢ - ٣٠٨.

هي بُغيـــــــةُ الملوك من عَصْرِ الصِّبـــا ومـــراديه

فعسى أعامـــل سيـــدي منـــه برِقَّـــة حاشيَـــه

خُذْهَـــا إليـــك ونظمُهـــا في ســاعـــة أو ثانيَـــه

لا زلتَها في نعمـــــــةٍ ومَسَرَّةٍ متماديَـــــــه

مـــا نـــاح قُمْريٌّ عـــلى فنن الريـــاض الزاهيـــه

وصبـــا الغريـــب إلى الحِمَـــى بعـــد الديـــارِ النائيـــه

من المطارحات بينه وبين ابن العجمي

ومن جملة المطارحات ما كتب به إليّ الأخ الفاضل، الألمعيُّ الأديب الكامل، أعزُّ إخوان الصفا؛ وأبرُّ خُلَّانِ الوفا، الشيخ مصطفى الشهير بابن العجمي الحلبي[1] نزيل دمشق المحمية، وأرسل بها إليّ من الديار الحلبيّة، ويُبدي ما يكابده من الغرام؛ لبعض سانحة آرام[2] دمشق

---

(١) هو أبو الصفاء مصطفى بن محمد العجمي الحلبي الدمشقي الشافعي. كانت له معرفة بالفرائض والحساب ومشاركة في عدة فنون، وله شعر لطيف. توفي سنة خمس وتسعين وتسعمائة.

انظر ريحانـــة الألبـــا ١/١٤٥، الكواكب السائرة ٣/٢٠٧.

(٢) سانحة آرام: السانح هو ما انطلق عن يمينك من طائر أو حيوان، وكانت العرب تتفاءل به، والآرام جمع ريم وهو الغزال، ويشبه به المحبوب عادة.

وهـــذا والقصيـــدة التاليـة أوردها الشهاب الخفاجي في الريحانة، ولكنه ذكر أن ابن العجمي قالها تشوقاً إلى أصدقائه في دمشق، وليس تلهفاً إلى حبيب كما ذكر المؤلف، انظر الريحانة ١/١٤٧.

الشام، وقد عَلِقَ هواه بقلبه، واستولى منه على شغاف لُبّه، وذلك في عام ٩٧٧:

يُقَبِّل الأرضَ صبٌّ مُغْرَمٌ عَلِقا ... بكم وذلك من تكوينه عَلَقا
حِلْفُ الصبابة أمَّا قلبُه فَشَجٍ ... من الفراق وأما جسمه فَلَقَى[1]
يشتاقكم كلَّما هبَّتْ يمانيةٌ ... ولا محالةَ أن يشتاقَ من عشِقا
به من البين ما لو حَلَّ أهونُهُ[2] ... يوماً بمعظم رَضْوَى هُدَّ أو طَفِقَا
يا هل تعود أُويقَاتٌ بكم سلفتْ[3] ... دموعه خَدَّدتْ في خدِّه طُرقا
متيمٌ أضْرَمَتْ ما بين أضلعه ... نارُ الغرام فلولا دمعه احترقا
اللهُ يعلمُ ما إن عنَّ ذكركُمُ ... إلّا تناثر دُرُّ الدمع واستبقا
ولا تغنتْ على غصنٍ مطوقةٌ ... إلّا أهاجتْ لي الأشجانَ والأرقا
ليت الزمانَ الذي أبدى مُعاندتي ... حتى بَعُدْتُ عن الأحباب قد رفقا
كفى اكتئاباً بأنِّي بعد بُعْدِكُمُ ... أكابدُ الهمَّ والأسقام والحُرُقَا
يا ليتَ شعرِيَ والآمالُ مطمِعَةٌ ... والدهرُ في عكس ما يهوى الفتى خَلِقَا
هل لي إلى عَوْدِ أوقاتٍ بكم سلفتْ ... رَجّى فأظفرَ باستجماع ما افترقا[4]
للهِ أيامُنا والشملُ مجتمعٌ ... أيامَ لا فرقة أخشى ولا فَرَقا
وإذ بكم كان عيشي أخضراً نضِراً ... وأسودُ الليل معكم أبيضاً يَقَقَا

---

(١) اللقى: ما طرح جانباً.

(٢) في الريحانة: أيسره.

(٣) في الريحانة: لفتى.

(٤) في الريحانة: فأظفر أحياناً.

يـا صاحـبيَّ فـلا رُوِّعتما بنوًى ... وعنكما ظـلَّ جفنُ الدهر منطبقا
إن جئتما الجامع الزَّاهي برونقه ... سقاهُ من غاديات السُّحب ما غَدَقا
ميممين لـه عُوجَا كَـذا كَرَماً ... لِتَحْـتِ قُبَّتِـهِ الشَّماء وانطلقـا
فبلِّغـا لي سلامي[1] من محبّتـه ... لم تُبـق لي منذ حَلتْ مهجتي رَمَقا
وخبِّراهُ بمـا ألقـى بعيشكما ... من فرط لاعجِ أشجان أتت نَسَقَا
أنِّي لـه ذلك المُضني المشوق[2] كما ... اشتاق صحبيَ إخوان الصفا خُلُقا
لا سيَّما- الأروعُ المحمودُ سيدنـا ... المسكتُ اللُّسْن تبيانا إذا نطقا
الشهمُ درويشٌ الغرَّاء طلعتُـه ... من فـاق فضلاً به على السِّماك رقى
رَبُّ الفصاحة لا بل حازَ غايتَها ... من ذا يجاريـه في ميدانها طَلَقا[3]
طوراً تراه بكأس الحمد مصطبحاً ... وتـارة من سُلاف الجود مغتبقـا
كـذا محمـد الدرويش سيدنـا ... مَنْ زَيّن اللطف والآداب منه تقى[4]
يـا غائبين فـلا عهدي بمنتقض ... منكم ولا حبلُ ودّي واهياً خَلِقا
سَرَى لـكم سلامي الجمُّ أعطَرَهُ ... مـا حنَّ ناءٍ مشوق قلبه لِلقا[5]
تحدُوه ريح الصَّبا وهناً لأرضكم ... يُزرى شذاهُ بريّا المسك إن عَبقا

---

(١) في الريحانة: سلاماً.

(٢) في الريحانة: المغني المشوق، وهي محرفة عن المضنى كما لا يخفى.

(٣) هذا البيت والذي قبله لم يردا في الريحانة.

(٤) ولم يرد هذا البيت أيضاً في الريحانة.

(٥) وكذلك هذا البيت.

قصيدة المؤلف في الرد عليه

فأنفذتُ إليه من دمشق الشام بهذه القصيدة الغرّاء جوابها، فكانت عنده من حُسَّانةِ أترابها، وهي قولي:

وافتْ فأرَّجَتِ الأرجاءَ والأفقا ... أمنيّةٌ من شذاها قُطْرُنا عَبقا

وافت كأن الصَّبَا باتت تعلِّلها ... بالشَّحْرِ بين رياضٍ طلعُها بَسَق[1]

أو نفحة من رُبى دارين عاطرةٌ ... أهدتْ لها أرجاً جنح الدجى غَسَق[2]

هيفاءُ تزهُو بقدٍّ زانه هَيَفٌ ... كخوط بانٍ غضيضٍ مثمر بنَق[3]

ترنُو إليّ بطَرْفٍ كلُّه حَوَرٌ ... مهما انبرتْ لفؤادٍ هام أو عَشِقا

لو شاهد ابنُ عُنَين[4] حسن طلعتها ... لأذكرتْه زماناً يبعثُ الحُرَقا

يا حسنها حين زارتنا مُحَبَّرةً ... قد نُظم الدُّرُّ في لبّاتها نَسَقا

---

(١) الشجر بفتح الشين، بطن الوادي أو مجرى الماء، وفي الريحانة: بالسحر.

(٢) الغسق: ظلمة الليل، وفي الريحانة: عبقاً وهي كلمة وردت قافية في البيت الأول أي قال هذا البيت ببيت واحد، وهو ما لا يجوز عند العروضيين، إذ لا يجوز عندهم تكرار لفظ القافية بلفظه ومعناه إلا بعد ثلاثة أبيات أخرى من القصيدة.

(٣) النقا: الكثيب من الرمل.

(٤) هو محمد بن نصر الله بن مكارم بن الحسن بن عنين، أبو المحاسن شرف الدين الدمشقي الأنصاري.

كان أعظم شعراء عصره، وبدأ بالهجاء فلم يسلم أحد من شره في دمشق، حتى السلطان صلاح الدين فنفاه، فذهب إلى العراق والجزيرة وخراسان والهند واليمن ومصر، ثم عاد إلى دمشق بعد وفاة السلطان صلاح الدين، فمدح خليفته الملك العادل وتقرب منه.

وتولى الوزارة للملك المعظم بدمشق ثم للملك الناصر، ثم انفصل عنها أيام الملك الأشرف، ولزم بيته حتى توفي عام ٦٣٠ هـ. =

أو انبرتْ لحبيب[1] وهو ذو لسَنٍ | أزرتْ به وكذا سحبانٌ إن نطقا
أهدتْ تحية وُدٍّ من أخي ثقةٍ | يُزرى شذاها بريّا المسك إذ فتَقا[2]
لا غرو أنّي مشوقٌ في الأنام له | فالحُرُّ يشتاقُ إخوان الصبا خُلُقا
أشتاق طلعتَه[3] الغراءُ ما طلعتْ | شمسُ النهار وأبدى صبحه شفقا
وكلما سَحَراً هبَّتْ شآميةٌ | بسفحِ جلَّقَ أو برق الحمى خَفَقَا[4]
أحبابنا والذي أرجُوه مبتهلا | بأن يَمُنَّ على مُضناكم بلقا
ما إن تذكرتُ مغنًى راق لي بكم | إلّا ورحتُ بدمعي جازعاً شَرِقا
ولا شَدَتْ برياض الغُوطتين ضُحًى | ورقاءُ تندب إلفاً نازحاً شَفقا
إلّا وغاض اصطباري أو وَهَى جَلَدي | وفاض من مُقلتيَّ الدمعُ وانطلَقا
سُقْيا لأيامنا والشملُ مجتمعُ | والضدُّ منصدعٌ لا نختشي فَرَقَا
إذ جانبُ العيشِ طَلْقٌ رائق بهجٌ | والدهرُ قد غضّ عنا الجفَن منطبقا[5]
نلهُو بكلّ كحيل الطرف ساحِرِه | يُزْرى بغزلان عُسْفانٍ إذا رفقا[6]

= وكان ابن عنين يوصف بأنه أملح أهل زمانه شعراً، وأحلاهم قولاً، ظريف العشرة، ضحوك السن، طيب الأخلاق، مقبول الشخص، من محاسن الزمان، له ديوان شعر، طبعه مجمع اللغة العربية في دمشق.

انظر وفيات الأعيان، معجم الأدباء ٧/١٢١، النجوم الزاهرة ٦/٢٩٣.

(١) يعني به حبيب بن أوس الطائي، أبا تمام.

(٢) فتق المسك: خلط به ما يذكي رائحته، وفي الريحانة: إن عبقاً، بدل إذ فتقا.

(٣) في الريحانة: رؤيته.

(٤) في الريحانة: برقا.

(٥) في الريحانة: فانطبقا.

(٦) عسفان: قرية جامعة على ستة وثلاثين ميلاً من مكة، وهي حد تهامة، وقيل: هي منهل من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة.

لا سيّما إن غـدا بالكأس مُصْطبحاً   أو راح في دِلِّـهِ بالكاس مُغْتبقا
ليـت الزمان الذي فينا غداه قضى   بشتٌ مَلْمُومنَـا في الدهر لا خُلِقا
يا هَلْ أُوَيقاتُنا اللآتي بكُم سلفتْ   تَعُودُ بومّـا فأجـني منـكم بلِقا
إنّي لأرجو من الرحمن عَوْدكُم   يوماً فننظم شملي بعدما افترقا[1]
سقى العواصم[2] سحًّا غير مُفْسدها   وجَادها من روايا المزن ما غَدَقا
وخصّ من بينها الشهبا فإن بها   تعلّق القلبُ من تكوينـه عَلَقا
عليـك منّي سلامُ الله ما بقيتْ   صُبابـةٌ تبعـث الأشجان والحُرَقا
تهديـه ريح النُّعامى[3] نحو أرضكم   كمِسْكِ دارين يزكو كلما نُشِقـا

قصيدة ابن العجمي في تهنئته بالقدوم إلى دمشق

ومما كتب به إليّ لا زال جيدُ الآداب مُحلًّى بعقود نظامه، ورياضها موشَّحة الأعطاف بحبير كلامه، مهنئاً بقدومي من سفر الروم إلى دمشق منزل أحبابي، وملاعب أترابي، أواخر سنة ۹۸۰، وانشدنيها بمنزلي في عصابة من أدباء الإخوان، وفضلاء الأخْدان، فوقعَتِ الموقع من أولئك السادة الأعلام، لما اشتملت عليه من كمال الرقة وحسن الانسجام، قوله:

مـا اجتـاز بـارقُ ذاك الشعب مُبتسِما   ولا النسيم بأخبـار الحمى نَسَما

(۱) البيت وبعده بيتان لم ترد في الريحانة.
(۲) العواصم: حصون بحلب، كما فسرها المؤلف في هامش النسخة.
(۳) النعامى: ريح الجنوب، أو ريح بين الجنوب والصبا.

إلّا وعــاوَدَه من دائــه طَرَبٌ حتى كأنّ به ما يُشبه اللَّمَا[1]

لا يستقرُّ لــه مما يهيِّجُــهُ قلبٌ إذا رام تسكيناً له عَرَما[2]

متيمٌ لعبَتْ أيدي الغرام به فغادرتـه كأنفـاس الصَّبـا سَقَما

يبيت يثني على الأحشاء كفَّ شَجٍ تضمُّ صدراً خَفُوقَ القلب مُضْطرما

حلـفُ الخليلين تسهيدٌ يسامره ليـلاً ودمعٌ مَراهُ الشوقُ فانسجما

كأنــه والدُّجــى مُرْخٍ عذائرُهُ مُوكـلٌ بسُرى النجم الـذي نجما

سُقيـاً لناضر عيشٍ بان لا سِيَما شمــلٌ تقضّى بمن أهواه ملتئما

أيام لا العهدُ من ذيه بمنتقض واهٍ ولا حَبْلَهُ إذ ذاك منصرما

أيـا خليـليَّ لا زالـتْ مُجَلِّلـةٌ من البوارق تَهْمي في عِراصِكُما

حتى تظـلَّ لها الأرجاءُ باسمةً تبـثُّ من سرِّها ما كان منكتما

فتبصران بهـا الحَوْذَان منعطفـاً نحو العَرارِ يناغِي الرند والسَّلَما[3]

إن جئتُما حيَّ مَنْ أودَى بمصطبري فبلّغــاه بمــا يلقــى خليلكما

لعـلَّ يسمح لي بالطيف منه وهل تُجْدِي لعلَّ غلى المشتاق أو رُبَما

أمــا ومَبْسَمُــهُ الزاهي لُمُتَّسِقِ يُزرِي مفلَّجــهُ بالــدُّرِّ منتظما

ومـا حَوَى من رضابٍ طيِّب شَبِمٍ عـذبٍ يفُوق الزُّلال البارد الشَّبِما

ومنظرٍ لاح كالروض النضير إذا ترقرقَـت في نواحيـه عيونُ سَمَا

ومـا تضمّن من وردِ نـدٍ تَرِفٍ عنـه يحدّث زهر الروض مُبتسِما

---

(١) اللمم: الجنون أو طرف منه يلم بالإنسان ويعتريه.

(٢) عرم: شرس واشتد.

(٣) الحوذان: نبات عشبي من ذوات الفلقتين، منه أنواع تزرع لزهرها، وأخرى تنبت برية، والعرار: زهر طيب الرائحة ينبت في الربيع، والرند: شجر طيب الرائحة كذلك ينبت في سواحل الشام والجبال الساحلية، أو هو العود، والسلم: شجر له نبت أحمر يدبغ به.

وأوطــفٍ فاتر أجفانُــه غنــجٍ　إذا رنـا سَلَّ منه صارماً خَذِماً
ولفتــةٍ تــذرُ الألبــاب شاردةً　أيـدِي سَبَـا وتَرِدُّ الفكر مُنقسِما
وسمهريٌّ قوامٍ منــه منعطـفٍ　إلّا عـــلـيَّ يمينـــاً بَرَّةً قَسَما
لا حُلت عن حُبه الأشهى إلى كبــدي　من الزُّلال وقـد كادتْ تَذُوب ظِما
ولا تبدلــتُ إنسانـاً سواه ولو　أضحى وجودي كصبري في الهوى عَدَما
يا قاسيَّ القلب يا لَدْنَ القوام أما　تراقـبُ اللهَ في هذا الصُّدودِ أمَا
عَطفاً على مستهامٍ مُغرمٍ دَنِفٍ　يعالجُ الوجدَ والتبريحَ منذ زَمَا[1]
وحـقّ عينيْك يا مَنْ قد أباح دَمِي　لم يُبقِ مني شديـد الشوق غيرَ ذِمَا[2]
دع ذا فـإنّ من التوفيق تركك ما　لم يُجْدِ نفعا وإشغال الزمان بما[3]
وانثُرْ مآثر لا تُحصى عجائبهـا　للطّالويِّ الـذي هام السِّماك سَمَا
القائـلُ الفصْلَ قد فاقتْ فَصاحته　والباهرُ الفضل قد جُلِّي به غُمَمَا
كالبحرِ مُلْتطِماً والدهرِ محتكِماً　والغيــثِ منسجماً والليـث منتقما
مفوهٌ لو دَعَـا سحبـانٌ منطقَه　لراح يسحبُ ذيل العيِّ منفحِما
حلّالُ مشكلــةٍ فتّــاح مقفلــةٍ　كشافُ معضلــةٍ طريُقهــا انبهما
أمــا المكـارمُ والرحمنُ يمنحهــا　لمن يشاءُ فقـد أضحـت لـه شِيَما
فردٌ من النَّفَرِ المحسودِ جَارُهُمُ　بِهم لِما خَوَّلُوهُ منهم نِعَمَـــــا
ذو عَزْمـةٍ لغرار السيـف ماضِيةٌ　تَردُّ غَرْبَ خُطوب الدهر مُنْثلِما

---

(١) منذ زما: أي منذ زمان نحذف النون للعلم بها لكي تتسق له القافية، وقد وضع المؤلف النون في هامش الصفحة.
(٢) الذما: بقية الروح في الجسد.
(٣) بما: أي بما يفيد كما هو مفهوم من السياق.

والنـاسُ إمّـا أخو شك يُرَيِّنُـهُ ... عن شأنه وأخو عزم مَضَى قُدما[1]

تُطيف منـه بنو الآمـال قاطبةً ... بأريحيٍّ يرى الإعطـاء مُغْتَنَما

رحبُ المباءةِ فيّاضُ الأكفِّ ندًى ... إذا الثرى بضرامِ الأزمَة احتدما

لـه مواهبُ تسعى وهي مُسْرعةٌ ... لمن عَرَى هل رأيت البحر حين طما

تلك المكارم لا قعبان من لبنٍ ... شِيبًا - كما قال بعض الغابرين - بما[2]

يأيها الفاضل المُبْدي العُجابَ ومن ... في علمه الجمِّ أضحى مفرداً عَلَما

لـك اليراعُ الذي يحكي تَسارُعُه ... مشي الأراقم وسط الطِّرسِ إن رقما

فللأزاهير تَنْدَى ما يُوَشِّعُه ... من رائق النظر فيه أو لزُهرِ سَمَا

لله ما أنت في الآفاقِ تَنْشُره ... هو اللآلىء ظنّتـهُ الورى كلِما

من كـلِّ زاهيـة الألفاظ زاهرةٍ ... لا ترتضي الشعر إن تُغْري لـه شَمَما

من اللواتي إذا ما أنشدت ملأت ... عُليـا بلاغَتِهـا أسماعَنـا حِكَما

تُغني عن الشمس يوم الروع مشرعة ... والبيض يقطر ماضي غربهن دما

لو أنهـا أنشدتْ في يوم معركـة ... بـين الخميسين ولّى الضّدِ منهزما

هُنّيت فيما حباك الله من منح ... فإنهـا بـدءُ حـظٍّ قدرُه عَظُما

فالوابل الجود قد غصت سحائبه ... بينا يُرَى قطراتٍ إذ تراه همى

خُذْهـا مقبِلَـةَ الأيـدي مُهنئـةً ... تَبْغِي التغاضيَ عن تقصير ما كرما

بكراً تهادى بأنواع الثنـاء لـكم ... يَضُوع كالمسك مَبْـدوًّا ومختـتما

---

(١) يرينه: أي يغطيه ويحجبه.

(٢) القعبان: مثنى قعب، وهو قدح ضخم غليظ، ويشير ببعض الغابرين إلى الحطيئة في قوله:

تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

يقترح عليه ابن العجمي استدعاء صديق

وضمّني وإياه نَدِيُّ أُنس حفت حافاته بأنواع الزهر الأنيق، ما بين وردٍ ونَرْجس وشَقِيق، فتعاطينا أكْؤُس الحديث من قديم وحديث، إلى أن قال: يا سيِّدي لو استدعيتم فلاناً بأبياتٍ فحضر مجلسنا هذا لتم لنا السرور باستجلاء قمر طَلْعته، وكان يومُنا هذا عِقْداً في جيد الدهر ولَبَّته، فدعَيْتُ ببراعة مَبْرية، وكتبت من غير رَويّة:

قد غازل النِّسْرِينُ[1] لَحْظَ النَّرجَسِ	في مجلسٍ سُقِيَ الحَيَا مِنْ مَجْلسِ
يرنُو إليـه كما رنت من خشية الـ	رُّقبـاء غيـدٌ عن لحـاظٍ نُعَّسِ
والوردُ أخجلـه الحَيَـا فكأنَّـه	خــدٌّ تورّد من لهيـب تنفُّسي
في فتيـةٍ نشرتْ حدائق وُدِّها	فزهتْ على زهر الجواري الكُنَّسِ
دارتْ سلافُ الذكر منـك عليهم	فغـدتْ تمَايَـل كالغصون المُيَّسِ
ترجو قدومـك كي يتم سُرورُهـا	وتَقَرَّ عينـاً يـا حيـاة الأنفسِ
لا زال وردُك يانعاً في رَوْضِـهِ	وشبَابُـك الفيْنـانُ زاهي الملبسِ
مـا غرّدتْ وُرْقٌ بأعـلى أيكـةٍ	في روضة كُسَيت مطارف سُندسِ

ابن العجمي يستدعيه بعد قدومه من حلب

ومما كتب به إليّ عام ستّ وثمانين وتسعمائة، وقد قدم من حلب إلى دمشق دار إطرابه، وملعب أترابه، مشيراً إلى تجديد معاهد اللذات،

(١) النسرين: ورد أبيض عطري قوي الرائحة، واحدته نسرينة.

وتشييد معالم المسرات، مورياً في المقال، وبمن يُنظم به شمل الأنس يسمى إقبال، بقوله:

يا من له مَعْ بديع الفَضْل إفضالُ ... تَحْيَا به لبني الآمال آمالُ
ومن له الأدب الغضُّ الذي ضربتْ ... بسحر رائقه الفتان أمثالُ
ومَنْ قصائده الغُرُّ الحسان لها ... على القصائد إحسانٌ وإجمالُ
إن أنشدَتْ عند قوم أنشأتْ طرباً ... كأنما لعبتْ بالقوم جريالُ[1]
ومن فواضَل كفيّه لها أبداً ... عن الذي يبتغي المعروفَ تَسْآلُ
نرتاحُ للرّاح ما دُمنا وساعَدَنا ... دهرٌ مُواتٍ كما نهوَى وإقبالُ
يسعى بها تكتسي من خدِّه شَفَقاً ... حُلُوُ الشمائل بالألباب مَيَّالُ
له إذا طاف بالكاسات مترعةً ... على الحشا برخيم الدّلّ إذلالُ
ومقلة ما رنتْ يوماً إلى أحد ... إلّا وعمّته بالأهواءِ أهوالُ
وقامةٍ كقضيب في كثيب نَقَا ... إذا انثنت لعقل الصَّبِّ تَغْتالُ
ثوب التجلُّد إن لاقاك أسمالُ ... ومربَعُ الصبر إن عاطاك أطلالُ
فهل يكون لنا بدراً ونحن له ... كهالةٍ في سماء البَسْط تختالُ
يا من به شَرُفت أيامُنا وسَمَتْ ... إلى السماء به فخراً بنو طالو

يكتب المؤلف إليه مستدعياً إلى قاعة الوعساء

ومما كتبتُ إليه مستدعياً له إلى منزل يعرف بيننا بقاعة الوعساء

---

(١) صبغ أحمر، تشبه به الخمر.

والربوة الفيناء يفوق بحسنه روضة يبرين، ويُزري بريّاه نفحة دارين، بقولي:

داعي الصَّبُوح دعا إلى الصَّهباءِ والوقتُ راق بقاعة الوعساءِ
ما بين وَرْديّ وَجَنةٍ جال الندى فيـــه وآخر يجتليـــه الرائي
ومَدامـةٍ راض المزاج مِزاجهـا فغدت تثيرُ الشوق في الأحشاء
من كفِّ ساقٍ أهيف حُلْوِ اللَّمى يرنُو إليــك بمقلــة حَوْراءِ
كالبـــدر ليلـــةَ تمه فكأنمــا ربُّ البريــة صاغــه من ماءِ
فأجب أخاك ولا تكن متوانياً واغْنَم لذيذ العيشِ قَبل تناءِ

استدعاء إلى مجلس أنس

٢٩ ب أنشدني يوماً بيتاً وقد مال به هواه، لظبي بالصالحية يهواه، وهو

أحِبَّتنــا بالصالحيــة فالسفــحِ دُمُوعي فيكم لا تملُّ من السَّفْحِ[١]

وكان المَهْوِيُّ من الظباء العِين، يُدعى بابن شاهين، فكتبت إليه ارتجالاً، وقد وجدتُ للقول مجالاً، سنة ٩٨٢، مستدعياً له لمجلس أنيق، ومحذِّراً من هوى ذلك الظبي الرشيق:

كتـابي يسعى قد أتاك على العَيْنِ فبادر إلى مَغْنًى سلمتَ من العَيْنِ

---

(١) الصالحية: مدينة ذات اسواق في لحف (أصل) جبل قاسيون من غوطة دمشق، وفيها قبور جماعة من الصالحين، ويسكنها أيضاً جماعة من الصالحين لا تكاد تخلو منهم، معجم البلدان ٣٦٣/٣. والسفح الأولى: منحدر الجبل، والسفح الثانية: بمعنى انصب وهطل.

بـه حلّ من أهل الغرام عصابةٌ حديثهمُ كالراحِ بـين الرياحين
وطِرْ بجناح العَزْم نحو مطارهم وإياك بالسفح من رَبْربِ عِينِ
سفرن بُـدوراً والتفتْن جآذراً ومِسْنَ غصوناً قد تعطّفن من لينِ
فمن رام يصطادُ البزاة بِعُشِّها فلا غَرْوَ أن يُلْفَى بقبضةِ شاهينِ

صورة حسنة في أحد أزقة دمشق

مرّ معي يوماً في بعض أزقة دمشق فتراءت له صورةٌ حسناء، من غرفة علياء، فأنشد:

بينـا يقلِّـب ناظريـه بغرفـةٍ إذْ فاجـأتْ خَوْدٌ تَرُوعُ جمالا

فأجبتُه وقلتُ:

نظرتُـهُ عن حَدَقِ المهاةِ فاسأرت في عقـل ناظرها - سَلمْتَ - خَيَالا

استدعاءٌ من ابن العجمي إلى مجلس في الصالحية

ومما كتب إليّ مستدعياً، وقد ضمّه ومن يهواه نديّ أنس كما يتمنّاه، بروضٍ أينعتْ أزهارُه، وغرَّدتْ فيه أطيارُه، ورقّتْ أسحاره وأصائله، وشقّت من زَهْرِه فيه غلائله، من سفح الصالحية بدمشق المحمية، قوله:

قد ضمنا السَّعْدُ ضَم السِّلك لِلدُّررِ ولَنَـا الجَـدُّ[1] لَمَّ الجفن للبَصَر

---

(١) الجد: الحظ.

بروضةٍ كسِيتْ من سُندسٍ حُلَلاً ودُبِّجتْ من بديع الوشي والزَّهَرَ

٣٠ أ من أصفرٍ فاقع أو أبيض يَقَقٍ[1] أو أحمر قانٍ أو أخضرٍ نَضِرِ

تميل أغصانُها الهِيفُ الرشاقُ بها كأنّهـا ثملتْ من نسمة السَّحَرِ

والماءُ ينسابُ في أرجائها غَدَقاً[2] ما بين مُصْطخِبٍ منه ومُنْحدِرِ

وعندنا مَنْ تَرُوقُ العين طلعتُه ذو منظرٍ فاتن يَدْمَى من النَّظَرِ

إذا خطا صارت الألباب في خطرٍ وإن رَنَا لم يَدَعْ صبراً لمصْطَبِرِ[3]

مقابِل الخلق بين الشمس والقمرِ مُقَسَّم الحُسْن بين الدَّلِّ والحور

فالطيرُ مذ سمعتْ تغريدُه وقفَتْ بعد التشاجر تحكيه على الشَّجَرِ

فنحن دائرة في الشكل وهو بها هل أنتَ شاهدتَ يوماً دارة القمرِ[4]

إنّا لأقْصَى أمانينا قدومكُمُ فإنّه لظمَانَا وائلُ المطر[5]

وإنّه الحَلْيُ في جيد السرور وإكـ ـليلٌ على جبهة الافراح والوَطَرِ

في وصف ليلة أنس جمعته هو وصحبه

وضمّتني معه ليلة غابت شوائبها، إلى أن شابت ذوائبها، وطلعت سعودها حتى غابت نحوسها، في أدباء أكياس، وآرام كِناس، تطيف علينا حتى الصباح، من أقداح أحداقها سلافة الراح، منها أغْيَدُ مجدولُ

(١) اليقق: الناصع.

(٢) الندق: الفياض الغزير.

(٣) رنا: نظر نظرة حب، مع سكون طرف.

(٤) دارة القمر: هالته.

(٥) وائل المطر: مستقره ومآله.

مكان الوشاح، وذلك بمنزل الأخ المكين، سيِّدي يَحيى بن شاهين[1]، لا زالت أخلاقه الرضية، كأفعاله المرضية، فكتبت إليه واصفاً تلك الليلة، وبطلب (لزوم ما لا يلزم) للشيخ أبي العلاء المعرّي، وقد تقدم وعده بإرساله، وذلك عام ٩٨٣، بقولي:

سَقَـــــت عُهُودُ الدِّيَمِ	عَهْـــداً عـــلى ذي سَلَمِ
قضيـــتُ فيـــه ليلـــةً	مرَّت لنـــا كالحُلُمِ
في جبهةِ الدهرِ غدتْ	كغُرَّةٍ في أدهمِ
وصُحْبـــتي عصابـــةٌ	قد نُظِّمتْ كأنجمِ
كأنمـــا أخلاقُهـــا	زَهْرُ الرُّبـــى والأكَمِ
أو روضـــةٍ أريضـــةٍ	جيَـــدَتْ بنوءِ المِرْزَمِ[2]
وهكـــذا ألفاظُهـــا	كاللـــؤلـــؤ المنتظـــم
من كـــلِّ مُنقـــادِ الهوى	لِحُكمِـــهِ مُسْتَسْلِمِ
لكنـــه يومَ الوغـــى	ليـــثُ عرينٍ ضَيغمِ
وحولَنـــا قـــد رتعـــتْ	أسرابُ عـــينٍ جُثَّمِ
مها انثنـــتْ بعطفهـــا	تيهـــاً عـــلى المُتَيَّمِ
تُريـــك كـــلَّ ذابـــلٍ	يَعْلُوه كـــلُّ لِهْـــذَمِ[3]

٣٠ ب

(١) الثيـي الحنفي، امام جامع سنقر، كان عالماً فاضلاً قرأ العديد من الكتب على كبار العلماء في عصره بحيث تميز في الجملة في الفقه والقراءات وبعض علوم العربية، مع خير وعقل، توفى عام ٩٧٠ هـ.

انظر الضوء اللامع ١٠/٢٢٩.

(٢) المرزم: ريح الشمال الباردة، أو أحد نجمي المطر إذ يطلق عليهما العرب اسم (المرزمان).

(٣) اللهذم: كل شيء قاطع من سنان أو سيف أو ناب، يقال: سيف لهذم: حاد.

طارحتُهـــا نجوَى غَرا ... مِ من مُحِـــبٍّ مُغرمِ
ولم أذُذْ سَرْح اللّحـــنا ... ظِ عن حماهـــا المُرْهَمِ[1]
حـــتى إذا جـــال الكرَى ... بجَفْنِهـــا ذي السَّقَمِ
نامـــتْ ولـمّـــا أنم ... علَـــى جوىً مُخيّمِ
وعبـرةٍ مُرَاقـــةٍ ... كهـــاطـــلات الدِّيمِ
حـــتى إذا الصبـــح أتـــى ... في جَحْفـــل عرَمْرَمِ
والليـــلُ ولّى هاربـــاً ... بجيـــشه المنهـــزم
ومالـــت الجوزاءُ إثْـ ... ـرَ غَفْرهـــا بالفَـــدَمِ[2]
فارقتهـــا وفي الحشا ... رسٌّ هَوًى مُحكَّمِ[3]
وفي العيون لا بكـــتْ ... صوبُ دموع ودَمِ
من مُشرقـــاتِ المَبْسم ... وقاصراتِ الخـــيمِ
وكـــل رُودِ ألبستْ ... بُرْدَ الشباب المُعْلَمِ
تختالُ في وَشيِ صِبَا ... بُرداه لم ينمنم
أوّاهُ إن لم تجمَـــع الـ ... أيّـــامُ شمـــلي بهمِ
في رَوضـــةٍ مطلولـــةٍ ... بعـــارضٍ منسجِمِ
غنّـــت بهـــا وُرْقُ الحِمـــى ... بمُفصحـــاتِ النّغمِ
قضيـــتُ وجـــداً بهمْ ... وحســـرةً عليهـــمِ
إني لأرجوهـــا ومـــا ... بعهدنـــا من قـــدَمِ

٣١ أ

---

(١) المرهم: الذي أصابه الرهام، والرهام جمع مفرده: رهمة وهي المطرة الضعيفة الدائمة.

(٢) الجوزاء: برج من بروج السماء، وغفرها: سترها، والفدم: أي ساتر تستر به من البروج الأخرى.

(٣) رس الهوى: بقيته وأثره.

وهاكهـــا بَهْنَانَـــةً ذاتَ بنـــانٍ عنـــدِمِ[1]
نيطـــت بمهوى قُرطهـــا لآلىء من كلمي
عن فكرة شاردةٍ وخـــاطـــر مُقسَّـــمِ
تبغى قَبُولاً في ظِـــلا ل الأكرم بن الأكرمِ
فتَـــى العَجَمِّي من رَقَى بالفضـــل هـــام الأنجمِ
وتنتحي[2] من فَيْضِـــه وجُودِهِ الملتطمِ
إرْسالَ مـــا ألزم من لُزوم مـــا لم يلزمِ
لا زال يسمو بالعـــلا في نِعْمـــةٍ وأنعمِ
مـــا غرَّدتْ مفتنَّـــة أرَق الحمام الرُّيمِ
ويمـــتْ مُسْتَنَـــة لـــه مطايـــا الكـــلم

يستهدي كتاب صدر الشريعة

ومما كتبت أيضاً له مستهدياً على يديه من بعض إخوانه، وخُلَّص خُلانه كتاب «صدر الشريعة»[3]، بهذه الحسناء البديعة، وذلك في عام ٩٨٣ بدمشق الشام:

(١) البهنانة: الخفيفة المرحة في هدوء ورقة، قال الشاعر:
بهنانة تستعير القوم أعينهم
والعندم: نبات أحمر يصبغ به.
(٢) تنتحي: تقصد.
(٣) هو عبد الله بن مسعود بن محمود بن أحمد المحبوبي البخاري الحنفي، صدر الشريعة الأصغر من علماء الحكمة والطبيعيات وأصول الفقه والدين، له كتب كثيرة منها: التنقيح في أصول الفقه وشرحه التوضيح، وله شرح الوقاية في فقه الحنفية، توفي ببخارى عام ٧٤٧ هـ، انظر الفوائد البهية ١٠٩ - ١١٢.

٣٢ ب

طالعاه نَقْبَ الغُوَير وريعَه | ودَعَاهُ يُبْدي هواهُ مُذيعَه
خلَّياهُ ووقفةٍ في طُلولِ | دَارِسَاتٍ يقضي بهنَّ وُلُوعَه
معهدٍ من شبابه كان قِدْماً | معهد الغانيات يسْلكن ريعَه
كلُّ خمصانَةِ الوشاح دعاها | للتصابي هوًى فلبّتْ مُطيعَه
صبَّتْ في عِطفها الصِّبا مَاءَ حُسْنٍ | وكساها رَيْطَ الجمال بَديعَه
فبراها قَيْد النواظر تُزْهَى | روضةً غَضَّةَ النبات مُريعه
ذات لطفٍ كأنما ألبستْها | حَلْيُ يَدِ أبي الصفاء وشيعَه(١)
مُحرزُ السَّبْقِ يوم حُضْرِ المعالي(٢) | ببيانٍ تَلَا النظامُ بديعَه
ماجدٌ مُذْ تفوّق الفضل طِفلا | قد أبَى مَشْرَعِ المَجْنَ شريعَه
ذُو سجايا تُرى كزهر رياضٍ | وكزُهْرِ السَّماء تُلْفى منيعَه
أو كبكْرٍ أبَتْ مواقعة الشرْ | ب فشُجَّتْ عمداً بماءٍ وقيعَه(٣)
عَلَّنيها بُعَيْد هَدْءٍ نديمي | والثريَّا للغرب تهوى سريعَه
إيه فاسْمَع يا من له سَعْدُ جدٍّ | سَعْدُه نيط بالسعود الرفيعه
قد أتتْ يَمّك الفُراتَ قوافٍ | صدَرْت خِلَّ عن كلالٍ طبيعه
وردتْه ظمأى لتصدُرَ عنه | بعد بَرْحٍ روًى بصدر الشريعة
وابْقَ لا يُغبب السحابُ هزيماً | لك ربعاً يُوَلِّيَ عليه ربيعه
وكساه الربيعُ وشْياً يُحاكِي | وشْيَ صنعاءَ بل يفوقُ صنيعه
ما تغنّى قُمْرِيٌّ مُقرى بروضٍ | رقرق الطلّ في رُباهُ دُمُوعَه

---

(١) الوشيمة: الخطوط الملونة بألوان زاهية في الثوب.
(٢) الحضر: العدو مع الوثب.
(٣) الوقيعة: الأرض التي لا تنشق الماء لصلابتها.

إلى محمد بن إلياس بمناسبة توليه القضاء

ومن ذلك ما كتبت به إلى جناب دوحة الفضل السنية، وشجرة العلم الطيبة الزكية، المولى الشهير نسبه الخطير، بين الناس، بمحمد بن إلياس[1]، وقد شرُف به قضاء دمشق الشام، لا أغبَّت ربوعها غرُّ الغمام، وهي أول ما انبعث عن الجِنان، ونطق به هديلُ اللسان، وذلك في عام ست وسبعين وتسعمائة[2]:

٣٣

أطيــــفٌ سرى وَهنــــاً مُتَيّما	أم الرَّوْض بكّاهُ الحيا فتبسّما
أنفحةُ وادي السَّحْر وافتْ بها الصَّبا	سُحَـيراً أم المسكُ الذكيُّ تنسَّما
أوردٌ جنيٌّ أم رياضٌ أريضـةٌ	كستهـا يـدُ الأنواء وشياً مُنمنما
أزُهْرُ سَماء أم أزاهرُ روضــةٍ	سقتْها غوادي المزن سَجْلاً على الظَّما
فأغصانُها اللّدنُ الرِّشاقُ تراقصتْ	لطـيرٍ عـلى هاماتها قـد ترنّما
أم الشمسُ في أوج الكمال منيرةٌ	أم البـدرُ في أفق السيادة قد سَمَا
أبُشْرَى عـلى يأسٍ أوعدٌ على رَجَا	فللّـه مـا أحـلى وأجلى وأكرما
فيـا راكبا إما عُرَضت فعُجْ إلى	رُبـا جِلّـقٍ لُقِّيـتَ رُشداً مُيَمما
وعَرِّج بواديـهـا المقدَّسِ منشداً	فيا حبّذا الوادي ويا حبذا الحمى
لقـد حلَّ قُطر الشام نورُ هدايةٍ	يفوقُ سَنَـا لألائه البدر في السما
وأصبحت الأرجاءُ تُزهى منيرةً	وغُصنُ الأمـاني بالمَسرَّة قـد نما
أمـا تنظرُ الغَنّاءَ أبدتْ مَلَابـاً	من النَّوْر وشّاهـا الربيعُ وسَهَّما

(١) محمد بن الياس: سوف ترد ترجمة له فيما يلي.
(٢) كان الطالوي آنذاك في السادسة والعشرين من عمره.

وباكرهــا الوسميُّ ينــثر لؤلؤاً　　من الطـلّ في سلك البهاء تنظّما

وغنــت بــدوح النَّيْرَبَيْن حمائمٌ　　فجاوبها قمريٌّ مُقْري مزمزما(١)

لموطىء شيخ العصر قاضي قضاتها　　إمامٌ لدى أعتابه السعد خيّما

أريــبٌ مهيــب لوذعيٌّ مهذّبٌ　　كريمُ نداه يُخجل الغيث إن هَمَى

غيــاثٌ للملهوف أمــانٌ لخائــف　　مــلاذٌ لمحزون شكــا متظلّما

فيـا أوحد الدنيا ويا عالماً غداً　　لـه الفَخْرُ والشيخ الرئيس مُسلّما

ويا سيّداً حاز الفضائلَ كُلَّها　　فـلا عــالمٌ يلقــاه إلاّ وأحجما

ومن عَدْلـه قد شاع في كلّ موطن　　فأنجـــدَ في قُطر البــلاد وأتهما

قصدتُ ذُرى عُلياك فالدهر قد جنى　　علـيّ وما لي غير بابك مُنتمى

ولي مُقْلَةٌ قَرحى طويلٌ سُهادُها　　وقلـبٌ بنـيران القطيعة أُضرِما

لعلــك يا مولاي ترحمُ فاقـتي　　وتنصفني من عبدك الدهر بعدما

فـلي عَالَــةٌ ربّي العلـيمُ بحالهم　　فؤادي لهم أضحـى بجمرٍ يضرّما

ونفسٌ ترى أن السؤال مَذلّــة　　سوى أنهـا ترجو نـداك تكرُّما

لأنـك يـا قُسَّ الفصاحـة حاتمٌ　　وجُودُك يـا بحر المكارم قد طما

---

(١) النيربين: تثنية نيرب، والنيرب قرية مشهورة بدمشق على نصف فرسخ في وسط البساتين أنزه موضع يرى، ويقال إن فيه مصلى الخضر عليه السلام نظراً لحسنه، والنيرب يستعملها الشعراء أحياناً مثناة كما هنا وكما في قول وجيه الدولة ابن حمدان:

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها　　فــلي بجنوب الغوطتــين شجون

فما ذكرتها النفس إلا استخفني　　إلى برد مــاء النيربــين حنــين

انظر معجم البلدان.

والقمري: نوع من الحمام مطوق حسن الصوت، مقرى أي يحل ضيفاً في الدوح، أو يشتكي ألمه، ومزمزماً: يصدر صوتاً في ترنم ودندنة.

عسى جُودك الفيّاضُ يأتي بنائلٍ ... تُرَوِّي بـه ولهـانَ من ألم الظما
بقيــتَ بقــاء النَّيِّرين بنعمــةٍ ... مدى الدهر ما ناحبْ مُطَوَّقَةٌ وما

وقال في عتاب علي جلبي الحاسبجي

وبما كتبته من باب العتاب، لبعض خُلَّص الأصحاب، وهو جنابُ الأخ الوفيّ، والخِدن الصفيّ الوليّ، ذمر الآلاء الطاهرة، والنعماء الباهرة، «علي جلبي»[١] الحاسبجي يومئذ بدمشق الشام، دامت له النعم الجسام، وذلك سنة تسع وسبعين وتسعمائة:

سلامٌ كنشْر الرَّوْض غِبَّ تَبَسُّمِ ... علـى ربعكم مَغْنَى الهوى المُتَقَدِّمِ
علـى معهدٍ لم تُبْقِ منه يدُ النّوى ... سوى دمنـةٍ من عهدكم لم تكلمِ
وجـادت له حيث الديارُ فسيحةٌ ... سحابَةُ عهد عهدُهـــا لم يُذَمَمِ
وخصّتْ مَغانِي اللَّهو مِنه وألبستْ ... معالِمَـــه بُرْدى شبـاب وأنْعُمِ
وحيّـا إلـهُ العرش قاطنَ رَبْعِهِ ... وإن كـان لا يَرْعى ودادَ مُتَيَّمِ
تحيــةَ صَــبٌ كلّما ذُكِرَ الغضـا ... رمـى بين جنبيْه بجمرٍ مُضَرَّمِ
يحنُّ لهاتيـــك الديـارِ وأهلِهـا ... حنينَ مَشُوقٍ نازحِ الدار مُغْرَمِ
يروحُ عـلى بُرْح الهموم ويَغتدي ... بفلُوذةٍ حَرَّى وقلــب مُقَسَّمِ[٢]
ويذكرهُ القُمْري بالأيـك ساجِقاً ... زمـان الصِّبا من شرخِهِ المتقدمِ

---

(١) سبقت ترجمته.

(٢) برح الهموم: شدائدها، والفلوذة: القطعة من الكبد أو الأحشاء، والحرى: المحترقة من الهم أو الألم، وقلب مقسم: أي جعلته الهموم مشتتاً.

ورقراقِ عيشٍ راق حُسْناً ونَضْرةً … بأفياءِ شَرْخٍ قد صَفَا في تنعُّمِ
وظِـلٍّ شَبابٍ كان يَنْدى غضارةً … ووشْيِ رداءٍ رَيْعانُـه لم يُنَمْنَمِ(١)
طوى بُرْده كرُّ الجديـدين مثل ما … طَوَى وُدَّ من أهواه عـنيَ لُوّمِي
ورُبَّ صديـقٍ قد نعمتُ بقربه … زماناً وجفنُ الدهر عن وُدِّنا عمِي
تـدور شموسُ الراح بيني وبينه … بمجلس أُنْـسٍ في نَدَامَى كأنجمِ
إلى أن رَمَتْنـا الحادثاتُ بأسهُمٍ … وأقفِر رَبْعي من هواه ومَعْلَمي
طوَتْ شخصه عنّي الليالي واسأرت … بقلـبي عقابيـل السّقام المحكمِ
وهـل أنا إلاّ رَبُّ نفسٍ معارة … وقلـبٍ معـارٍ للجوى والتألُّمِ
ومـا شجـاني والحوادثُ جَمَّةٌ … تَغَيُّرُ دهرٍ في الكرام محكَّمِ
وجورُ أخٍ يُبـدي التجنّي ويثني … عليَّ بلومٍ - والكتابِ - مُحَرَّمِ
فيـا أيها الجاني ونسألُه الرِّضا … تَرَفَّقْ على صبٍّ ببينِكَ قد رُمي
وأصْغِ إلى عَتْب الصَّديق فربما … أعـاد عتـابٌ خُلَّةَ المُتصرِّمِ(٢)
فها قد بسطتُ العَتْب فاسمع هديـةً … وأودعتُـه سلـكَ الجُمان المُنَظمِ
لقد كنتُ قبل الآن جَلْداً على النوى … أبيًّـا ولم أَرْبـغ على رَسْمِ مُعْلمِ
عـلى أنّني لا غالبُ الرأي بالهوى … ولا قائـلٌ للشوق إن ضلّ يحلمِ
أروحُ بأثواب العفـاف مُسَرْبَلا … وأغـدو بحلم مثـل طودٍ يَلَمْلَمِ
وإن نكرتْـني خَلَّةٌ أو نكرتُها(٣) … رحلـتُ إلى أخرى بغير تندُّمِ
فبّدلـــني بالعزّ ذُلّاً هَوَاكُمُ … ولا عـج شوق من نعيم مُخَيِّمِ
أقولُ إذا نَـام الخَـليُّ ولم أنم … عـلى حَرِّ وَقْدٍ للضلوع مُقَوّمِ

(١) لم ينمنم: أي لم يؤثر فيه الزمان بعد، وأصله من نمنمت الريح التراب، تركت فيه أثراً.
(٢) الخُلة (بضم الخاء): المودة والصداقة، والمتصرم: الهاجر.
(٣) الخَلة (بفتح الخاء): الخصلة، يقال: فيه خلة حسنة أو خلة سيئة.

خليـليّ ما للخلِّ قد حال ودُّه وَوُدّي على طول المدى لم يُصرّمِ
أغـيّرَهُ صرفُ الزمانِ أم ارْعَوى إلى وَشْيِ واشٍ أم مقال منمنمِ (١)
فيـا منتهى الآمال يا غاية المنى ونزهة نفس الصَّب يا ذا التكرُّمِ
لـك اللهُ في صَـبٍّ أضرَّ بحالـه بِعـادٌ لهُ في قلبه فِعلُ لهذم (٢)
مقيمٌ على رَغْيِ الذِّمام وطال ما غَـذاك لِبـانَ الوُدِّ غـير مُذَمَّمِ
صَفَتْ منه أخلاقٌ لديك خليقةٌ بحسن ثنـاءٍ من فصيح وأعجمِ
كزَهْر الرُّبَا قد فتّحتْه يدُ الصَّبا وجرَّت عليـه ذيلَها في تبسُّمِ
وراعٍ لـه حُسْنَ الوداد وإن نَبَا زمـانٌ، ولا تـسمعْ مقالةَ مُجرمِ
أعِيـذُك ممن قال في وصف شأنه أديبٌ له في الشعر فضلُ تقدُّمِ (٣)
إذا ساء فعلُ المرء ساءتْ ظُنونُه وصَـدّق مـا يعتـادُهُ من تَوَهُّمِ
وعـادى محبّيـه بقول عُداتـه وأصبـح في شكٍّ من الليل مُظلمِ
تذكَّرْ رعـاك اللهُ سابقَ خُلّةٍ ولَاحِقِ عهـدٍ بالقِلَى لم يُهَـدّمِ
جحـدْتَ ولاءً من وَلِيٍّ غدا له على كلِّ مولىً فيك فضلُ المقدمِ
وأنكرت منـه الوُدَّ يُزهي نضارةً وأقبلتَهُ صَدْر الحسامِ المُصَمَّمِ (٤)
فمهلًا - عَلِيَّ القَدْرِ - يا مَنْ بحُبِّه نفوزُ غـداً من ذي الجلال بمغنمِ
اتجحد من والاك والربعُ شاسعٌ لعاً لك(٥) هل هذا فَعال مُكَرَّمِ

---

(١) المنمنم: المزوق.

(٢) اللهذم: الحاد القاطع.

(٣) الأديب هو شاعر العربية الأكبر أبو الطيب المتنبي، والبيتان التاليان له، وهما في ديوانه صفحة ٣٩١.

(٤) أقبلته صدر الحسام: أي سددته إليه.

(٥) لعاً: صوت معناه الدعاء للعاثر بأن يرتفع من عثرته، يقال: لعاً لفلان، وفي الدعاء عليه بضد ذلك، يقال: لا لعاً له.

أعـد مـا مضى يوماً إليه لعلّه يريشُ العواري من نِبَالي وأسْهُمي

وإن لم يكن في غَوْر وُدِّك مطمعٌ وهبّـتْ له النكباءُ بالبينِ ترتمي

سأُعْمـل عِيسِي عن بلادك راحلاً لقولِ شريـف في العُـلا متَقدِّمِ

وأَوْلى بـلاد بالمقـامِ من الأُلى بـلادٌ متى ينزلْ بها الحر يَغْنَمِ

وقد محَضَتْك النصح نفسٌ لصحبَةٍ رعايتهـا فرضٌ عـلى كلِّ مسلمِ

إذا ما صحبت المرء فاصحب مهذّبـا كريم السَّجايـا للفضائـل مُنتمي

وعاشرْ بخُلْـقٍ ما استطعت مُحَبَّب وجانبْ فدتك النفسُ كلَّ مذمَّمِ

وراع لإخوان الصفــــاء حقوقهم

وإن أنـت ضَيّعتَ الوفا - خِلِّ - تَنْدَمِ[1]

فيالاَ رَعَى الرحمنُ من ليس راعيـاً حقوقَ إخـاء من صديـق مُقَدَّمِ

وأحسِنْ إلى الأيـام واعـلمْ بأنها مَطَايـا إلى لَحْـدٍ بغـبراء مُقْتمِ

فما الدهرُ إلاّ مثـلُ أحلام نائمٍ وعِزُّ الفـتى فيـه كطيفٍ مُسَلَّم

ولا تــك مغروراً بعِزٍّ تنالُـه بِهِ واخش يوماً أن يطاك بِمَنْسَمِ[2]

وراقـبْ إله العَرْشِ والعم بأنه يَرَى ما خَفِي من كلِّ أمرُ مُكَتَّمِ

وهـاك قريضاً قد بدا عن رَوِيَّةٍ تضمنَ عَتْبـاً مثـل عِقْدٍ مُنَظمِ

خـلالَ سُطُورِ الشَّوْق يبدو كأنه لَمـي شادنٍ يبدُو خلال تَبَسُّم

أرقُّ من الصهبـاءِ شُجّتْ عشيةً بُمزنٍ مَرَتْ أخلافُهُ يدُ مِرْزَمِ[3]

ودُمْ في نعـــيمٍ دائمٍ ومَسَرَّةٍ بعيشٍ هنيءٍ من ذُرَا العز واسلم

---

(١) خل: أي لا خلي فحذف حرف النداء لوزن الشعر، وحذف ياء المتكلم تخفيفاً.

(٢) المنسم: خف البعير، أو طرفه.

(٣) الصهباء: الخمر، وشجت: أي مزجت، والمزن: ماء المطر، ومرت أخلافه أي ملست على ضروع حلبه، والمرزم: ريح الشمال الباردة.

مقامـــك محمودٌ وبابــك ملجــأٌ وظلُّكَ ممدودٌ له السعد ينتمي
مدى الدهر ما بكّى القريضَ بسجعه هديـلُ وفـاءٍ قـد مَضَـى بترنّمِ

في وصف يوم قضاه بين الرياض

ومرّ لي بدمشق يوم كأيام الشباب، مع بعض أدباء الأصحاب، في ظلّ روضةٍ حُفّت بأنواع الرياحين، من ربوتها ذات القرار والمعين، وقد تفجرّتْ أنهارُها عن لجين ملءٍ جرى ذهبُ الأصيل، ومدّتْ الأغصانُ فيها وارفَ ظِلّها الظليل، ومعنا شابٌّ مقتبلُ الشباب برشاقة القدّ، وصباحةِ الخدّ حُبِي، يسمَّى بعبد النبي، قد طَرَّز بقَاني وجْنَتَيْه فُلَّة جماله، وحَسَّن بياضَها أسودُ خاله، وذلك بأرض النَّيْرب من متنزهات دمشق المشهورة، لا برحتْ باللّذات معمورة، وذلك سنة أربع وثمانين وتسعمائة:

لِلَّـــــهِ يومٌ مرَّ بالنــــيرب من غـــير واشٍ نمّ بالنَّيْربِ[1]
جــدّدَ للــذات مــا قــد عفـا أو كــاد من ربع ومن يلعب
ومن عهود الصَّــبِّ حيث الصِّبا إلى الغواني شافــعُ المذنِــبِ
أيــــامَ أهواهُنَّ حُمرَ الحُلَـــى خُضرَ المُلَا بيضَ طَلَا الرَّبْربِ
يبسِمْن عن مثــــل اللآلِي كما يَسْفُرن عن مثـل سَنَا الكوكبِ
من كـلِّ حسنَـاءَ سقاها الصِّبا مــاءَ الشبـاب الرَّيِّـقِ الأطْيَـبِ
سقـاهُ عهـدُ القُرب من معهـدٍ ومنزلٍ رَحْـبِ الفِنَـا مُخَصَّـبِ
ميـدان لَهْوي ومَعَـانُ الهوى[2] وربــــعُ أنسي ورُبــــى مَأرَبِي

---

(١) النيرب الأولى: هو المتنزه الذي سبق الحديث عنه، والنيرب الثانية معناها: النميمة.
(٢) معان الهوى، المعان: المنزل.

يومٌ كإبهام القطاة انقضى ومذهبي فيما انقضى مذهَبي
نادَمني فيه مُبيحُ اللّمى على الظما من وِرْده الأعْذَب
أرعنَ لا عهدٌ يراعِي كما لا يرعوي قطُّ إلى مُعْتَبِ
ذُو وَجْنَة بالحسن قد عَمّها خالٌ بديعٌ منه عبد النبي
أفديه بالخال وبالخال والـ خال والخال معاً والأبِ[1]
منَّ به الدهرُ ويا حبذا مَنُّ بخيلٍ جاد بالمطلب
في ظل أحْوَى جَادَهُ وابلٌ وناب فيه الطلُّ عن صَيِّب[2]
بكتْه عينُ المزن هَتّانَةً تُثْري الثرى دانية الهيدب[3]
حتى انبرتْ أنوارُهُ غضةً باسِمةً عن ثغرها الأشنب[4]

٤ ب

والنهرُ ينسابُ خلال الرُّبا كالأيم ينسابُ لدى مهرب[5]
ألقتْ عليه الرِّيحُ من نَسْجِها مُفَاضةَ السَّرْد على المنكب[6]
تُخَالُه وسط الرُّبا نثْرَةً قد سقطتْ في الروض من مِقْنَب[7]
كأنما الأغصانُ من فوقه ربيئةٌ وافتْ على مَرْقب[8]

---

(١) الخال له معان كثيرة، فمن هذه المعاني: الذي يدير أمور أهله ويكفيهم، والخال: المتكبر، والخال: الذي صار ذا خول أي له أتباع وحشم بعد انفراد، والخال أخو الأم، والشاعر يفديه بهؤلاء كلهم، في مقابل الخال الجميل الذي في وجهه.

(٢) الأجوى: النبات الذي تضرب خضرته إلى سواد، والصيب: المطر المنصب بغزارة.

(٣) الهيدب: السحاب الذي يدنو من الأرض، ويرى كأنه خيوط عند انصبابه.

(٤) الثغر الأشنب: الجميل ذو الأسنان الصافية.

(٥) الأيم: الحية الذكر.

(٦) المفاضة: الدرع الواسعة اللينة، والسرد: النسج.

(٧) النثرة: ما تناثر من الأشياء، والمقنب: شبه المخلاة أو الجراب.

(٨) الربيئة: الجاسوس أو العين الذي يحرس قومه ويربأهم.

ظلالهـا تحكي ظـلال النقـا ... يَنبُشْن في الحافَّات عن مَسْربِ[1]
كأنهـا والريـح مالـتْ بهـا ... ظَمْأى تَحرّى الورْدَ من مَشْرَبِ
والوُرْقُ تبـدي الشَّجْو ما بينها ... بلحنِ غِرِّيـــد شَجٍ مُطْربِ
وكـان مـا كان بنيـل المُنَـى ... فظُنَّ خـــيراً بحبيـــبي وبي

ومما قاله في وصف شباك يطل على منظر حسن

ومما دعا إليه باعث غرام وداعية صبْوة، ما نظمته في شُبَّاك جامع يَلْبُغا المُطِلّ على النهر والقهوة، بإشارةٍ من بعض أدباء العصر، وفضلاء المصر، مشيراً أثناء ذلك إلى أوقات أُنْسٍ مرّت بالجامع المزبور، في غبطة من المؤانسة والسرور، صُحْبَة شيخي وأستاذي شيخ الإسلام، عمدة الأفاضل الأعلام، مفتي المالكية بدمشق الشام، محمد بن محمد بن محمد أبو الفتح بن عبد السلام[2]، سقى الله ثراه سحابة رضاه، وذلك عام ٩٨٣ قولي:

---

(١) الصلال جمع صل وهو الحية من أخبث الحيات، وينبشن: يبحثن.

(٢) الشاعر الأديب، الفقيه الأصولي أبو الفتح محمد بن محمد بن سلامة المعروف بأبي الفتح بن عبد السلام.

ولد بتونس عام تسعمائة وواحد، ورحل إلى المهدية ومنها إلى الاسكندرية وأقام بمصر نحو سنتين، ثم سكن دمشق سنة ٩٣١ هـ حتى وفاته.

وصفه ابن العماد بقوله: «له الباع الطويل في الأدب ونقد الشعر، وشعره غاية في الحسن، ومع ذلك فقد كان معدماً... عاداه دهره وصافاه فقره، كما يقول الخفاجي في الريحانة، توفى سنة ٩٧٥ هـ.

انظر ريحانة الألباء ١/١٧٤ - ١٨٨، شذرات الذهب ٧/، وانظر ما كتبناه عنه في المقدمة.

أَلْمِمْ بساعة يَلْبُغا مهما انبَرت ... منك الهمومُ وملْ إلى شُبَّاكِهِ
واستَجْلِ روضاً من سماء زُمُرُّد ... طلعتْ نجومُ الزَّهْر من أفلاكه
ينسابُ فيه كالمجرة جدولٌ[1] ... حصباؤُهُ كالدُّرِّ في أسلاكه
حاكتْ له الأنواءُ من حُلل البَهَا ... وشْياً يَحارُ الطرف في إدراكه
ورسا النسيمُ بساحتَيْه كما رسا ... طيرٌ تُديم الشجو فوق أراكهِ
ما بين شُحرورٍ كراهبِ بيعةٍ ... قد رَتَّل الإنجيلَ في أحْلاكهِ
وغناء قُمريٍّ وسجع حمامةٍ ... ورجيع سِنٍّ مولعٍ بشباكهِ
وخَرير نَهْر من لُجين ماؤُهُ ... ذَهَبُ الأصيل جرى خلال حِبَاكهِ
ذُو شاطىء لو قد رأى رَقْراقَه ... نهرُ الأُبُلَّةِ غَاض وسط نِبَاكهِ[2]
مُلئت بوارد بأسه أرجاؤُهُ ... حتى ثوتْ منه مكان مساكهِ[3]
يُسقون فيه على التَّصافي قهوةً ... كالمِنْدل الشَّحْريّ غِبَّ مَدَاكهِ[4]
من كفِّ سَاجِي الطرف مهما أن رنا ... أَسَرَ الفُؤَاد فَعَاد في أشْرَاكهِ
فاسمه سرح اللحظ ثُمَّ وذده لا ... عن ورده وحذار من إمساكهِ
فلكم جليتُ به الهمومَ وصُحبَتي ... شيخٌ علوم الشرع طَوْعُ مِلَاكهِ
كانت على الأيام منه بهجةٌ ... ونضارةٌ ثَوَتَا بُعَيد هلاكهِ
فسقى إليه العرش تُرْباً غيَّبَتْ ... تلك العلوم مُلِثّ نوء سماكهِ[5]

---

(١) المجرة: البياض المعترض في السماء والنسران من جانبيها (والنسران مجموعة من النجوم معروفة بمشابهتها للنسر، المجموعة الأولى تسمى النسر الطائر والثانية تسمى النسر الواقع).

(٢) النباك يعنى به المجرى، وهو الأرض التي تختلط فيها السهولة بالوعورة.

(٣) مساكه: حافاته.

(٤) المندل: العود الطيب الرائحة، ومداكه: دقه.

(٥) ملث: مأخوذ من لث المطر أي استمر أياماً لا يقلع.

وغدت تحايا الرَّبِّ كلَّ عشيةٍ تُهدي إليه على يَديْ أملاكهِ

ومما قلته في شُبَّاك الجامع المذكور أيضاً:

أَلِمْ إذا هَمٌّ غزَاك بيلبُغا واعطف لمقصفه تَنَلْ ما يُبْتَغى[1]
فوحقِّ كوثرِ مائه من وَال في جَنَّاتِ عدنٍ مثلُه فلقد لَغَا[2]

من نظم شيخه ابن عبد السلام في أغراض متعددة

ومن نظم الأستاذ العلامة - أحلّه الله دار المقامة - في الجامع المذكور:

كم نزهةٍ في يَلْبُغا تُبْتغى ومَدرجٍ لم يَخْلُ من دارجِ
يا حُسْنَهُ من جامعٍ جامعٍ فاق على الزوراء من عالج[3]
يموجُ في بِرْكته ماؤُها تحتِ منارٍ ليس بالمائح
مئذنةٌ قامَتْ على بابه تشهدُ للداخل والخارج

* * *

٥ أ ولە فيه طاب ثراه، وحَسُن مرقده ومثواه:

إلى يلبُغا فَارْقَ أعلى الدَّرَجْ بشرقِيِّه تَلْقَ باب الفرَج

(١) المقصف: صوان يستخدم في غرف الطعام لحفظ أدوات المائدة، وقد يوضع عليه الطعام، ويستعمل الآن بمعنى مكان اللهو في أكل ولعب وشرب.
(٢) لغا: قال خطأً أو كلاماً باطلاً.
(٣) الزوراء: الأرض البعيدة أو اسم لمدينة بغداد، وعالج الرمل المتراكم الذي دخل بعضه في بعض.

وخُـذْ يَمْنَـةً منـه نحو الشمال تجـدْ عنـد ذلك بابَ الفَرَج
وصَوِّب إلى نحو غربيِّــــه تُصـادفْ هنالك بـاب الأرج
ومن حولــه عُصْبــةٌ لم تزلْ لهــا تحت سَرْحتــه مُفـترج
تُقَضّي نفائسَ أوقاتهــــا بأخبـار من قد مضى أو دَرَج
فــإن كنــتَ عن حالهم سائلاً فليس عــلى مِثلهم من حَرَج

★ ★ ★

ومما نظمه سقى الله ثراه صيِّب غفرانه، وأسكنه بَحابيح جنانه، في الجامع الدنكزي أيضاً، وقد كان لهمومه مَجْلى، ولغمومه مَسْلى، وهو كما قال:

أَرَأَتْ عيونُـك مثله من مَجْلِس يجلُو ببهجتــــه همومَ الأَنْفُسِ
مـا بـين دولابٍ يئِنُّ وروضـةٍ تزهُو بهاتيــك الغصونِ المُيَّسِ
كالزَّهْر لاحـتْ في سماء أزاهرٍ ترنُو فتلعـبُ بالجواري الكُنَّسِ
تحمرُّ من خجـل شقائـقُ نُوْرِها وتظـلُّ تَبْسِم عن لآلىءِ نَرْجِسِ
كم قـد حللتُ بها على رغم العدا في فتيـةٍ خطرتْ بأفخر ملبسِ
سقيـاً لأوقـاتٍ بهـا قَضّيتُهـا بشوائـبِ الأكـدار لم تَتَدنَّسِ
والوقـتُ صافٍ والزمانُ مساعدٌ والدَّهرُ طَلْقُ الوجهِ لين المَلْمَسِ
ولــكَمْ حللنــا بالمسَرَّة حولَهـا في كـلِّ وادٍ بالهنـاء مُقَدّسِ

★ ★ ★

ومما نظمه أيضاً في دُولاب الجامع المذكور من الموّال[1]، قوله:

للجامع الدنكزِي المشهورِ في الآفاقْ نهرٌ وبستان على الروضة رياضُه فَاقْ
قَلْبُ النسيمْ حول دُولابُو غدَا خفّاق يبكي فتبكي الحمائِمْ له من الاشفاقْ

ولما تعطّل أحدُ دولابي الجامع المذكور عن دَوْره، أنشد من فوره:

دولابْ كان لُو رفيقْ كيف سار مَعُو ساير
مُذْ فارقُو صار لبعده مضطربْ حاير
ليلُه عليه ونهاره في الرياض داير ولازم النُّوحْ حتى أقلق الطاير

* * *

وله من قصيدة بديعة على حرف الحاء، لم يحضرني الآن سوى مطلعها وهو:

رِحالُ الهمومِ هنا تُطْرحُ وصَدْرُ الكُتْبِ هنا يُشْرَحُ

ومما أملاه عليّ من لفظه أواسط شعبان سنة خمس وسبعين وتسعمائة، ما نظمه بإشارة الوزير مصطفى باشا، وقد أنشأ بدمشق دار العبادة، سقى الله عهده وجاده، خاناً رفيع البنا، وسيع الأقطار والفِنا، يكاد ينقلب البصرُ خاسئا وهو حسيرٌ في وسع ساحته، بل لا يكاد يجمع بين قُطري مساحته، قوله:

حمداً لمولًى كريمٍ شُكْرُهُ وَجَبَا على مقامٍ له قلبُ العدا وَجَبَا

---

(١) كتب المؤلف في الهامش: «الموال قسم من الشعر، ويقال له المواليا أيضاً»، ويلاحظ أنه شعر بالعامية.

على مواهبَ لا تُحصى وأعظمُها ... توحيده فهو أعلى مالنا وهبا
تم البناءُ الذي تَمَّ السُّرور به ... من بعض ما خصّنا المولى به وَحَبا
سبحانَ من بدمشق الشام يسَّرُهُ ... لنا فنلنا المنى والسُّولَ والأَرَبا
بعونِ ذي العرش أنشأناه في مُدَدٍ ... يسيرةٍ لو جرى فيها الجواد كبا
ومن له هِمَمٌ من المجد عاليةٌ ... لا غَرْو أن يرتقي نحو العُلَى رُتَبا
سقى دمشقَ وواديها الغمام إذا ... هَمَى وردّ عليها الدهر ما سَلَبا
وجاد صوبُ الحيا خاناً أقيم بها ... بديعَ حُسن وحماماً غدا عَجَبا
كانت محاسنها تزهو بأربعةٍ ... لم يُعطِ مجموعَها مصراً ولا حَلَبا
ماءٍ وطيب هواءٍ والرياضِ وما ... تحويهِ من ربوة تختالُ بين رُبَا
وجامعٍ ليس في الدنيا بأجمعها ... له نظيرٌ يروقُ العُجْم والعَرَبا
فأصبحتْ ستةً لما أضيف لها ... شَيْآنِ سبكها في النظم قد وَجَبا
خانٌ بديعٌ رسا كالطود وارتفعتْ ... قِبابُه بعد نَصْبٍ يقتضي نَصَبا
كأنَّما الفَلَكُ الأعلى أقام له ... أفلاكَ تدويره واختاره رَغَبا
فلو رأى هَرَمَا مِصْرٍ شواهقَه ... لاقْعَنْسَسا حَسَداً في الأرض واضْطَرَبا[1]
وقصر سِنْدان أو غُمدان من يَمَنٍ ... راما سجوداً له من رامةٍ أَدَبَا[2]

(١) اقعنسسا: تراجعا وارتدا إلى الخلف.
(٢) سندان ويقصد بها سنداد ولكنه أتى به بالنون مشاكلة لكلمة غمدان التي بعدها، وسنداد نهر بين الحيرة والأبلة وكان عليه تصد تحج إليه العرب، وهو القصر الذي عناه الأسود بن يعفر في شعره بقوله:

أهل الخورنق والسدير وبارق ... والقصر ذي الشرفات من سنداد

انظر الديوان، وانظر معجم البلدان.
وغمدان بضم أوله وسكون ثانيه، قصر بناه ليشرح بن يحصب أحد ملوك اليمن بين =

والأبْلَقُ الفردُ من تيماء تَيَّمَهُ   إذ شام منه بشامٍ بارقاً وسَبَا[1]

ومَسْجِدٍ فيه فوق الماء تَحْسَبه   قصراً مُشيداً سَمَا في الجَوّ وانتصَبَا

أو غرفَةٍ من جنان الخُلد جاد بها   رضوانُ يرجو الرِّضَا أو يختشي غضبا

تظلُّ من تحته الأنهارُ جاريةٌ   على حَصَى الدُّرّ يحكي ماؤه الضَّرِبَا

توسّع الناسُ في أقطار ساحتِهِ   من بعد ضيقٍ وحَصْر أوجبا شَغَبا

والقادمون على أموالهم أَمِنُوا   وأحرزَ التّاجر الجلّاب ما جَلَبا

أليس كان إليه الأمر مُفْتَقِرا   عقلا وكان إليه الشرعُ قد ندبا

فقيّضَ اللهُ مولانا الوزيرَ له   فاختطّ رحمةً للناس واحتسبا

ثم اشرأبّتْ إلى الحمام همته   وعزمه فانتقى الآلاتِ وانتخبا

وصاغه مفرداً في قالَبٍ حَسَنٍ   إليه بالطبعِ مالَ القلبُ وانجذبا

فجاء أعجوبةً في الوضع مختَرَعاً   محرّراً بدقيق الفكر مقتضبا

ببركةٍ ذاتِ أمواج مباركةٍ   عن الجُسُوم تزيلُ الداء والوَصَبا

سماؤها بين أقمار كواكبُها   تَزْهُو بفرط جمالٍ من رآه صَبَا

طوالعٌ لم تَغِبْ في الدهر أنجمُها   تُعَاصِرُ العُنصرين الماءَ واللّهبا

لله درُّ همام هَامَ هِمَّتُه   سَمَا على الفَلَك الدَّوّار فاصْطحبا

يزدادُ في كلِّ حينٍ بالعُلا شَغَفاً   بفكرةٍ في المعالي تَعْشَقُ التعبا

صنعاء وطيوة على سفح جبل، ثم سكنه الملوك منهم، ومن بينهم سيف بن ذي يزن الحميري، وهدم غمدان في عهد عثمان رضي الله عنه، انظر معجم البلدان ٧٢٢/٣، ٨١٢.

(١) الأبلق الفرد: حصن شاهق كان السموأل بن عادياء اليهودي بناه أبوه، وكان في تيماء بين الحجاز والشام على رابية من تراب، وإنما قيل له الأبلق لأنه كان في بنائه بياض وحمرة، وتروى عنه قصص كثيرة، انظرها في معجم البلدان ٩٤/١.

وتيمه وسبا: أي أعجبه وأسره، وشام البرق: نظر إليه يتحقق مكان نزول مطره.

لمـــا أراد شروعـــاً في عمارتـــه وصحح العَزْم بعد الحزم وانْتَدبا

أقامـه صُورةً في الذِّهن جَرَّدَها عن الغواشِي[1] بعلم ليس مُكتسبا

ثم ابتنى طِبْق ما في العقل هندسَة بناءَ ذي حكمة تستنبطُ العَجَبا

وكـان تأسيسُه في طَالِعِ حَسَن سَعْـدٍ تيسّر والسَّعدانُ ما غربا

فـالله يجزيه خيراً في المعاد وفي دارِ البقـاء جَزَاءً فَوْقَ ما طلبا

لقـــد تحمــل أمراً لو تجشَّمَه سواه قصَّر عن اتقانـــه وَنَبـــا

أليس جـاد بما تحوي خزائنـه فـلم يَـدَعْ وَرِقاً فيها ولا ذَهَبا

وعَمَّ بالعــدل والإحسان مفتـنـاً فعـل الجميل ولم يحفِل بما ذَهَبا

براحـةٍ لو رآها الغيثُ ما انسكبا وطلعـةٍ لو رآها البدرُ لاحتجبا

وهيبـةٍ لو رأتْهـا الأَسْدُ مقبلـةً لأدبرت وتولّـت في الفَلاَ هربا

كم قـد كسا خلعاً كم قد عَنَا وَرَعاً ولم يَقُل جزعاً في الحرب وَاحَرَبا

أقـــام حَمّامَــه هــذا ليجعلَـهُ في الأرض مُعجزة تبقى له حِقبا

فازداد حُسْنُ دمشق الشام واكتسبتْ فخراً على سائر الدنيا وطيبَ نَبَا

وأصبحـتْ كعروس تنجلي فَرَحاً في روضة رقصت أغصانها طربا

والطــلُّ منسجمٌ والزهر مبتسمٌ تخـالُ قطر الندى في ثغره شنبا

لا زال يرقى بأنواع الكمال إلى أَوْج العُـلا وبَنُوه السَّادةَ النُّجُبا

بجـاه خيرِ الورى المختارِ من مُضَرٍ سـميِّه المصطفى أعلى الورى نَسَبا

صلَّى عليه إلهُ العرش ما اطّلعت شمسُ النهار وما سار الدُّجَى خَبَبا

---

(١) الغواشي: جمع غاشية، وهو ما يغطي على الذهن ويمنعه التفكير السليم.

والآلِ والصحبِ والأتباعِ قاطبة ... ما رنّحتْ عَذَباتُ البَانِ ريح صَبَا[1]

★ ★ ★

ومما املانيه أيضاً من لفظه سقاه الله طيّب غفرانه، وأفاض عليه سجال إحسانه، ما نظمه أيضاً للوزير المزبور[2] مؤرخاً لبناء حمام بناه على شكل غريب، وطرح[3] يجار فيه الهندسة عجيب، ببركةِ أتقنتها يدُ الصّناع، وأبدعها فكره أيّ إبداع، وذلك عام ٩٧٥ قوله:

أيُّ حمام هُنــا قــد بُنيـا ... مثلُــه في حسنــه مـا رُؤيـا
بدمشق الشام قـــد أنشأهُ ... مصطفــى باشا سَمَـا مُرتقِيـا
جَمّــل آلشام وأحيـا حُسْنهـا ... وبـــه الرحمنُ عنهـا رَضِيـا
وكساهـــا من نـــداه حُلــلا ... غــير ناديهـا بهـا مـا حَظِيا
وبهـــا عَمَّ البرايـــا بِرُّه ... عن يــد تخجــل منهلَّ الحيا
فدمشق الشام زادت بهجـــةً ... وبهـــاءً مُــذْ بهـا مـا وَلِيـا
كم لــه من بنيــةٍ قامـت بها ... ذات آثــار ثراهــا سُقيــا
قيصرٌ يقصر عن إنشائهـــا ... وبهـــا إيوان كسرى نُسيـــا
فهي كالروضــة حَيّـا زهرَهـا ... في السماء الزُّهر لمـــا رُؤيـــا
أسفرتْ عن حسنهـا مشرقــةً ... ذات لألاء ونُور وضِيَـــــا
وبهـا الحــقُّ تعـالى خَصُّه ... نعمــةً كــان لهـا مقتضيـا

---

(١) البان: شجر مستقيم الأفرع، لحب ثمره دهن طيب ينتفع به في كثير من أمراض الجلد، وعذبات البان: أطراف أغصانه.

(٢) المزبور بمعنى المكتوب، أو المذكور.

(٣) الطرح: الطول، يقال: طرح بناءه (بتشديد الراء) إذا طوله.

زاده اللهُ وأبقـــــى عزَّه وعُـلاَهُ أبـداً مـا بقيـا
كيـف لا وهْوَ يُحـبُّ العُلما وهو منهم ويحـبّ الأوليـا
عمّر الحمام هـذا رغبـةً منـه في إتمام ما قد بُديـا
وبمـا قدّمـهُ ألحقـه من وجوه نفعهـا مـا خفيـا
كـل مـا أنشأه قد كان لـه في مجاري الخير أيضاً مُجريا
أعمـل الفكرة في إتقانـه حين بالعقـل غـدا مقتديـا
واقتضاهـا صورةً في ذهنـه قبـل حـكم بشروع قضيـا
ثم في الخـارج قـد أبرزهـا طِبْـق مـا في فكره قـد جُليا
فأتـتْ أعجوبـةً في حسنهـا مثلهـا في لطفهـا مـا حُكيا
كونـت بالوضـع والحكمـة في ملتقـى ضـدين حـين التقيا
بـين أرضٍ وسماءٍ لم يزل بلظاهـا صَخرُهـا مُصْطَلِيـا
بـين أنوار ونـارٍ بجرُهـا ساكنٌ حـين عليـه التقيـا
يـا لها من بِرْكةٍ حفّت بها بركـاتٍ نفعهـا قـد قَرُيـا
أي طُهر وشفـاءٍ جمعـا لمريـض جاءهـا مستشفيا
فأبقراط وجالينوس لو أبصرا أبْزَنهـا إذ مُليـا[1]
لأقامـا عندهـا سُوقهما بعـلاج نفعـه قـد رُجيـا
وابنُ سينـا لو رآه قـال ذا عن دَوَا القانون أضحى مُغنيا[2]

---

(١) الأبزن: حوض يغتسل فيه، وقد يتخذ من نحاس.
(٢) القانون: اسم كتاب في الطب وضعه ابن سينا وبين فيه العلل وأوصافها وطريقة معالجتها وقد اهتم به الناس في العصور الوسطى وبخاصة الأوربيين الذين ترجموه ودرسوه في كلياتهم لفترة طويلة، وقد طبع آخر مرة في القاهرة عام.

واغتدى كلُّ طبيبٍ في الحِمَى عن سوى أبْزنها مُختميا
فلهذا جعلوا تاريخَهُ خير همام لطبٌّ بُنيا

★ ★ ★

ومن بديع نظمه متغزلاً في غزال ألمى الشفة، بديع الصفة عام ٩٧٥[1] قوله:

بأبي ألعسُ المراشِف ألمى مائِسُ القَدّ ساحرُ الأجفان
سرق الجيدَ واللحاظَ من الظبْي ولينَ القوام من غُصْن بان
عطفَتْه الصَّبا عليّ ومالي بالصَّبا بعد ما تراه يدان
فتحاميت لثمهُ خيفةَ الإثم وأطلقتُ مُقلتي ولساني
آه لولا التقى ومعترك الشَّيْبِ لطاوعتُ في الهوى شيطاني

★ ★ ★

ومن نظمه العالي، المخجل عقود الدر واللآلي، ما سُئل في نظمه من بعض أكابر دمشق الشام، وقد نشأ بها شابٌّ حَسَن يسمى بابن حسام، بِقَدٍّ يُخجل الأغصان أهيفَ، ولحظ فاتر الأجفان أوْطَف، بمثله يصول على عشاقه إذا رنا، ويميسُ كالقضيب إذا انثنى، فنظم هذه القصيدة الغَرّاء فيه، أرقّ من سلافة فيه[2]:

كم باسمٍ والده على عُشّاقه يَسْطُو فواحَرَباه[3] من أخلاقِهِ

---

(١) زاد هذا التاريخ في الهامش، والأبيات التالية في ريحانة الألبا ١/١٧٥.
(٢) وردت الأبيات الثامن والحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر في الريحانة ١/١٧٦، وانظر الكواكب السائرة ٣/٢٣.
(٣) الحرب: الويل والهلاك.

ظبيٌ ظُبا ألحاظه قد جُرِّدت للفتك بالشاكين حول وِطاقِهِ[1]
رَشأ كحيلُ الطرف معسولُ اللّمى عـذبُ المراشف باخـلٌ بعناقِـهِ

يفـترُّ عن ثغر الثريـا ثغره وينوء بالجوزاء تحت نطاقـهِ
كالغُصن في حركاته والظبي في لَفَتاتـه والبـدْر في إشراقـهِ
فاق الملاح صباحةً وفصاحةً ورجاحة في العقل بين رفاقهِ
يَسبي بجمرة خدِّه بيضَ الدُّمى وبياضُ معصمه ورونق ساقهِ
حـاز الجمال بأسره فمحبُّـهُ في اسْره لم يَرْضَ حلَّ وثاقهِ
كملـتْ محاسنُـه وتمَّ كمالُـه وحوى السَّنَا السَّامي على إطلاقه
واستغرقتْ أعطافه حُلَل البها فبدائعُ الإغراق في استغراقه

قسماً بصُبـح جبينه لو زارني جُنـحَ الدَّجى وسَعَى إلى مُشتاقه
لفرشتُ خدِّي في الطريق مقبِّلا نعم الجُفُون مواطنَ استطراقـه
ووهبتُ ما ملكتْ يَدِي لمبشِّري بِلقـاء حضرةِ مُنعِمٍ بوفاقـه
وصفحتُ عن زلّات دهري كلّها وعنـادِه فـيما مضى وشقاقـه
وشكرتُ سَعْيَ غزالِ سربٍ زارني حـين الغزالـة آذنـتْ بلحاقـه
ورشفتُ عذبَ رُضابه باللحظ لا بميسِ مَبْسَمِـه ولا بمذاقـه
لله مـا فعـلَ الهوى بمتيّمٍ للهجْر كاد يـذوبُ من أشواقه
متنفسٌ عن نـار وجـد بالحشا لم يُطْفِهَـا عبراتُ فيض مآقـه
أهـدى أرقَّ من النسيم تغزّلا لغزيِّـل مـا رقّ لاسترقاقـه
قمرٌ قَسَا قلبـاً ولان معاطفـاً فتطابـق الوصفان من أخلاقـه
لو قـد وقفتُ بديعَ نظمي كلّه غَزَلا عليـه لكـان باستِحقاقـه

(١) الوطاق أو الطاق: بيت الظبي أو الفتحة في الجبل.

نَفْسِي الفِـداء له وإن لم يَرضني   عبـداً ولم يسمحْ بزورة نَاقِهِ[1]
يـا أيها البطلَ الصقيل حسامُه   والحائز القصبـات يوم سباقـهِ
صِـلْ مُغرماً يا بدرُ فيك متيماً   واكفُف بنار الهجر عن إحراقه
ولِكَلْمه[2] اجْعل من كلامك مرهماً   يُغـني لديـغ الهجر عن دِرياقـه
واعطِـفْ عليه بفاء فيك ولا تَرُمْ   بـدلاً بـه وتوقّ وشك فِراقـهِ
واسلَمْ وعِش متبوّأً أوجَ العُـلا   مـا لاح بـدرُ التِّم في آفاقـه

* * *

وكان بين الأستاذ وبين مولانا العلامة القاضي معروف[3] من التآخي، وشيجة أدب محكمـةُ عرى الأواخي[4]، وما برحا على ذلك مدة وهما كنُدماني جذيمة مودّة، فلما كتب إليه وهو قاضٍ بمحميّة صَفَد صحبة ولده صدر الأفاضل وزين الأماثل الأمير نجمي[5] كثّر الله في الأفاضل من أمثاله، وضاعف من إجلاله، وقد أهدى له حُلة من فاخر ثيابه، ونفيس أثوابه، قوله[6]:

---

(١) نقه بكسر القاف: إذا لم يبل من مرضه.
(٢) الكلم: الجراح.
(٣) هو القاضي معروف الشامي، أديب ظريف وشاعر رقيق، يصفه الخفاجي بقوله: هو ممن اتسم بالأدب في الحديث والقديم، وسرى ذكره كما سرى من الرياض النسيم، انظر الريحانة / ١٩٧/١.
(٤) الأواخي: جمع آخية، وهي الوتد الذي تشد إليه عروة الدابة، وتطلق الآخية أيضاً على المعروف، وعلى الحرمة والذمة، وكلها معان صالحة لما هنا.
(٥) ذكره الخفاجي في ريحانة الألبا ٢٠٠/١، وقال فيه: تقلد سيف الإمارة، فلاحت عليه من السعادة كل امارة، وقال عنه إنه أديب شاعر، ثم ساق له بعض شعره.
(٦) الأبيات التالية ما عدا الثالث في ريحانة الألباء ١٨٣/١.

مخدومُنا قاضي قضاةِ مدينتي صَفَدٍ أحقُّ الناس بالتفضيل
العالمُ الحَبْر الذي معروفُه تزري زيادته ببحر النيل
أعني الهمامَ الجِهْبذ العَلَم الذي ما زال معروفاً لكلِّ جيل
أهْدَى لنحوي من مخيط ثيابه جُمَلاً فأغناني عن التفصيل[1]

★ ★ ★

ثم عقب هذه القطعة بنثر يخجلُ الدُّرَّ في أسلاكه، ويُزري بلامع الدُّريِّ في مجاري أفلاكه، وهو قوله:

تِلوَ تلاوَة مثاني الأثْنِية العواطر[2]، والأدعية التي يشهدُ بصدق دعواها الضمير ويُزكّيه الخاطر، ثم لثمِ بِساط الثَّرى، والتضرُّعِ إلى إلَهٍ يسمعُ ويرى، أن يخلِّدَ على الذات الشريفة سوابغ الإنعام، ويديمَ ظلالَهُ الوريفة على الخاصِّ والعام، لا زال جاهُها مبذولاً، وبابها مأهولاً، وفضلُها مسئولاً، ونوالُها مأمولا، وحَدُّ الزمان عن جنابها الرفيع مغلولا، وأخْلِق بمن هطلتْ عليه سحائبُ عنايته، ورفرفت عليه أجنحة رعايته، أن ينبُوَ عنه سيف الزمان، وتخبو عنه نار الحِدْثان، وما أقرب البعيد إذا صادف أسباباً، ووافق دُعاءً مستجاباً، هذا والمملوكُ يُثبت ما عنده من الأشواق إلى مشاهدة جمالها، والفوز باقتباس أنوار كمالها.

---

(1) قال في الريحانة: التفصيل في لسان العامة بمعنى قطع الثياب الجديدة، ففيه تورية، كقول ابن نباتة المصري:

كم جملة وصلت لي من نداك وكم تفصيلة ألبستني أجمل الحلل
حتى لقد غدت المداح حائرة بين التفاصيل من نعماك والجمل

(2) المثاني: الآيات تتلى وتكرر، وفي القرآن ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم﴾ والأثنية: جمع ثناء وهو الحديث عن المحاسن والنعم.

يُقبِّــل الأرض مملوكاً لخدمتــكم   عـلى الدُّعاء لكم ما زال مُنْعكفا
عبـــداً لإحسانــكمُ لولا تفضُّلكُم   ما كان في الخلق مذكوراً ولا عُرِفا

فلما وصل ذلك إلى مولانا العلامة القاضي معروف، كتب إليه أيضاً مع ولده الأمير نجمي محمد المذكور، بقوله[1]:

يا مُفْرداً أضحتْ مظاهرُ شأنِهِ   مـا فوقها في الحُسْن غير المَخْبَرِ
يـا من تثلَّـبِ فكرتي متبرئـاً   أشكو الجفاء إلى السميع المنصرِ[2]
منيٌّ إليـك مـع الحبيـب تحية   فُتقـت نوافجُها بمسكٍ أذفرِ[3]
من منطـق يُزهي بسحر[4] بلاغةٍ   تُزْري حلاوتـــه بطعم السُّكرِ
فكأنهـــا وكأنَّـــه وكأنّهـــا   من جوهرٍ في جوهر في جوهرِ
تُبـدي التداخل في الجواهر عَنْوَةً   لبصـــيرة المِقـــدام لا المتحـــيرِ
وكأنمـــا قرطاسُهـــا أسرارُنـــا   والبـــينُ بينهما سوادُ الأسطرِ
أرَجُو على خير الوجوه[5] يقرِّب الـ   ـبَاري تعالى مَوْرِدي من مَصْدري
في ذلـك الشرفُ المُعلَّ المنتهَى   طربُ المشوقِ وجنّـــة المتذكرِ

ثم أتبع هذه القطعة المُزرية بخمائل الشجر، الظاهرة على أعطافها مخايل السِّحر، بنثيرٍ تودُّ الجوابات لو كان لها نطاقاً، والثريا أن يكون

---

(١) الأبيات التالية في ريحانة الألباء ١/١٩٧.
(٢) رواية هذا البيت في الريحانة هي كما يلي:
يـــا من تثلـــب فكرتي متبرئـــاً   أشكو الجفـــاء إلى السميـــع المبصر
(٣) في الريحانة: مع النسيم بدل مع الحبيب، والنوافج: جمع نافجة وهي وعاء المسك في جسم الظبي، والأذفر: الطيب الرائحة جداً.
(٤) في الريحانة: يزهو بحسن.
(٥) في الريحانة: على قرب المزار.

لآذانها شُنُفا وأقراطاً، وهو قوله:

أحمِّلُ نشرَ الرِّيح عند هبوبه رسالةَ مُشْتاقٍ لوجهِ حبيبهِ

خلاصة نتائج الأفكار، تُجريها على ألسنة الأقلام، في ميادين الأرقام، بتحياتٍ يصطفيها، وأدعية صالحة مع رجال الغيب يُهديها، إلى من يذكُره الشريف النابع، تقرّ الأعين وتلذّ المسامع، المُتَمَّعُ بإرث النبوة، من العلم الذي هو رأس المُرُوَّة.

يُذِلُّ بمعنًى واحد كلّ فاخر وقد جَمَعَ الرحمن فيه المَغانيا

عالِمٌ بمفرده عَالَم، به تفتخرُ بنو آدم، لا يُشق له غبار في المناظرة، ولا يُلْحق شأوُهُ في المحاضرة، فارسُ الشَّرْع والشعر، وفالقٌ بتدقيقه منها الشَّعْر، له القوة الإلهامية على اقتراح بنات الأفكار، والمن العزيز على كشف أستار الأسرار، لا زال رَيّانَ من ماء العلوم، سارياً في سماء معاليها مسرى النجوم.

فضلٌ من الله لم يُخلفه موعدُه ولا تخلّف يوماً عنه أسْعُدُه

فليَهْنِ ذا الفضل نُعمى ظَلَّ حاسِدُها بغيظِه ما رأى منه ويُكمِدُه

ويُنهي شوقاً يكاد القلبُ منه يستطير، إلى مشاهدة ذلك الوجه المنير، الذي كلما تذكره حنّ، وتنفّس تنفُّسَ الصُّعَداء وأنّ، ويسأل ذا الآلاء والمَنّ، أن يجمع هذا الشملَ البديد، في موطنٍ لا يُنَاجَى فيه من مكان بعيد.

مَرِض النسيمُ وصحَّ والدَّاء الذي أرجُوه لا يَبْرى لـه أفراقُ[1]

---

(١) الأفراق: جمع فرق، وهو الخوف والفزع.

وهَـدا خُفوقُ البرقِ والبرقُ الذي   تُطوى عليـــه جوانحي خفّــاقُ

ثم، وماذا عسى أن يقول من جَرَحَ الأسى قَلْبَه، وأذهب البينُ لُبَّه، ينتظرُ المنون حيناً بعد حين، وذلك حالُ من ارتقى إلى سِن السبعين:

ووافـى حياةَ الغابرين لصاحبٍ   حيـاةَ امرئٍ خانَتْه بعد مشيب

ومن الله تعالى أسألُ حسن الخاتمة، وجلاء هذه الليالي القاتمة:

كـان الشبـابُ الغضُّ يجمعُنـا   في ظـــلٌّ عيش مالـه ضَبْـطُ
فنـأى الأحبـةُ والشبـابُ معاً   فكأننـــا لم نجتمـــعْ قـــطُّ

ولله دَرُّ القائل[1]:

أبـداً تستردُّ مـا تهَبُ الدنيـا   فيـا ليت جُودَهـا كـان بُخـلا
فكفـتْ كونُ فرحةٍ تعقب الغَمّ   وخِـــلٌّ يغـــادرُ الوجـــد خِلّا

لكنْ للفقير رجاءٌ وأمل، في فضل ذي الفَضْل الجَلَل، فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة، أن يَمُنَّ عليه بما تقرُّ به عينه، ويَسُرُّ فؤاده، من الفوز بالرضا، والعفو عما مضى، والاجتماع بالذين أذهل حبُّهم قلبَه، فَمُنَّ يا عالم الإسلام بالتأمين، فمنك يُرجى الفتح المبين.

يـا واحداً وحَّدتْ رُوحي محبّتَهُ   لله في الله حيـث الحبُّ يُحتسبُ
يـا عالم الشام يا من عِلْمه عِلمٌ   بنوره يَهتـــدِي نـــاءٍ ومقـــتربُ

---

(١) البيتان التاليان لأبي الطيب المتنبي، وهما في ديوانه ٣٤٢ ضمن قصيدة طويلة في رثاء أخت سيف الدولة.

ذو فطنةٍ مثل حَدّ السيف منصلتاً من نُور جوهره تُستوهب القُضبُ
موفّر الهم في كسب العلوم جَفَا مضاجعَ النوم مُذْ عزّت به الرتب
يرى الجحود لما قد حاز من منح غرٌّ إذا عُدَّ لا نَبْعٌ ولا غَرب[1]
فحبذا منه أخلاق مطهَّرةٌ لا شوظةٌ[2] يختشى منها ولا غضب
وحبذا منه ودٌّ لا تغيّره مرُّ الليالي ولا تنبو به النُوب
يا مفرداً علماً يا واسعاً كرماً يا هادياً أمماً ألعُجْمُ والعربُ
في حبِّ مثلك تُرجى الصالحات غداً في يوم لا نسبٌ يغني ولا نَشَبُ
كم جاهل بك في أسراره مرضٌ منك الشفاء له لو كان يَتّئب[3]
حاك ربُّك من ريب الزمان فما في كلّ ما نلته من صالح ريب
لا زلتَ في درجاتِ العلم مرتقباً ويَهْدِي بك اللهُ من للقرب يقتربُ

ولا برح مولانا بأعباء الرسالة مستقلّا، وبأفياء السعادة مستظلّاً، نور اللطف من كلامه يفوح، ونور السيادة من سنا مُحيّاه يلوح.

* * *

ومن القصائد الغر، والفرائد المخجلة عقود الدرّ، للأستاذ، ما كتب به إلى تلميذه الفاضل، أستاذِ أدباء الأفاضل، محرِّرِ الأشكال

(١) في الأصل: رتب بلد منح، وصححت في الهامش، والنبع: شجر ينبت في قلة (ذروة) الجبل، تتخذ منه القسي والسهام، والغرب: نوع من الشجر تتخذ منه السهام أيضاً وكلاهما جيد، وهو يصفه بأنه من تواضعه لا يعتبر علمه من هذا الصنف أو ذاك على سبيل التشبيه.
(٢) الشوظة: الغضب.
(٣) يتئب: يستحي.

الاقليديسية[1]، والأكر الهندسية الرستميدية[2]، القاضي تقي الدين بن مولانا القاضي معروف[3]، لا برح بمزايا دقائق الرياضي في الأنام بين الفضلاء معروف، وصحبتها ساقية[4] تعطّلتْ بعض دوائرها، ليصلحها بفكره الثاقب، ورأيه المنير الصائب، وهي قوله:

يـــا من يجرُّ عـــلى المجرهْ ذَيْـــلَ هِمَّتـــه العليّـــه
وعـــلى الثوابـــت ثابـــتٌ قِدمـــاً أرُومَتُـــه الزَّكيَّـــه
ومـــدارُ أوْج الشمسِ تحْـ ـت نطـــاقِ شيمتـــه الوفيّـــه

---

(١) الأقليديسية نسبة إلى أوقليدس، وهو من الفلاسفة الرياضيين اليونان، وكتابه في أصول الهندسة ويسمى «الاسطروشيا» نقله الحجاج بن يوسف بن مطر نقلين، أحدهما في عهد هارون الرشيد ويعرف بالهاروني، والثاني في عهد المأمون ويعرف بالمأموني، وعليه يعول، ونقله أيضاً إسحاق بن حنين وأصلحه ثابت بن قرة الحراني. انظر فهرست ابن النديم ٢٦٥.

(٢) الأكر الهندسية: علم يبحث فيه عن الأحوال العارضة للكرة وهي الجسم المعروف الذي يحيط به سطح واحد مستدير في داخله نقطة تكون جميع الخطوط المستقيمة الخارجة منها إليه متساوية وتلك النقطة مركز حجمها سواء كانت مركز ثقلها أو لا، وقد يبحث فيه عن أحوال الأكر المتحركة، وكلاهما من فروع علم الهيئة وبراهينه تتوقف على هذين.

انظر كشف الظنون ١٤٢/١، وقد نقل فيه هذا التعريف عن القاضي تقي الدين الراصد، الآتي ذكره.

(٣) هو محمد بن معروف الدمشقي الأسدي، ويعرف بالراصد، تقي الدين، أمير المجاهدين، فلكي، رياضي، حاسب، من القضاة، ولد بدمشق عام ٩٣٢ هـ، وولي القضاء بدمشق ونابلس، من مؤلفاته: بغية الطلاب في علم الحساب، وريحانة الروح في رسم الساعات على مستوى السطوح، وسدرة منتهى الأفكار في ملكوت الفلك الدوار الخ، توفي بالقسطنطينية عام ٩٩٣ هـ.

انظر الأعلام ٣٢٦/٧، معجم المؤلفين ٤٠/١٢، وانظر ريحانة الألبا ١٥١/١، وكشف الظنون ١٤٥/١، ١٤٦.

(٤) قال في الهامش: قوله ساقية، يريد بها ساعة من عمل الإفرنج، سميت بذلك لدورانها على التشبيه.

من ذا يناهز أو يقـــــا رِبُ كنـه قـدرك في البريّـه
أو من ينـــالُ مواهبـــاً قِدْمـاً خُصِصْت بهـا هنيّـه
ومناصبـــاً قُلِّدتَهـــا عفواً بحـــكم المَوْلَويّـــه
أتنـــالُ رتبـــة فاضـــلٍ سَلَـكَ الطريـقَ الفاضليّـه
وإليـــهِ أُسْنِـد علـم وا لـدِه المقـدَّسِ عن وَصِيّـه
وتحفَّـــظَ الكُتُـــبَ النفيسـةَ في صِبـــاه بألمعيّـــه
جمع الهدايـــة والـــدرا يـة والروايـة عن رويّـه
وحوى اللطائـــف والمعـــا رف والعلوم الأخرويّـــه
وفوائـــداً وقواعـــداً رسخـــتْ بفهم منطقيّـــه
فعـــلى المجســطى كم تعقّب في المناظر من قضيّه[1]
وأبـــان أشكـــالاً بأشكـــا لِ الخطوط الهندسيَّـــة
وغـــدا بصـــادق حَدْسه يستنبـــطُ الحجج المضيّـه
فكأنمـــا يُوحي لفْط نتــــه بأسرار خفيّـــه
يـــا واحـداً جمع الفَضَـــا ئِـل والصفـات الأوحديّـه
عطفـــت لنحوك آلـــةٌ آلـــتْ إلى صِفَـــةٍ رَدِيّـه
سلـب الدُّجـى لمـا سجى عن ذاتهـــا حُسْنَ السجيّـــه
هُجرتْ وليس لهـــا إذا طَلَـــب التأسّي من أُسَيّـــه
فسعـــتْ بقصـــة مُشْتـــكٍ يحمي جنابـــك عن حميّـــه

(١) المجسطي كلمة يونانية تعني «التعاليم»، وأطلق هذا الاسم على كتاب بطلميوس اللوذي الذي يشرح فيه علم التنجيم ويثبته بالبرهان الهندسي، وقد ترجم وشرح مراراً. انظر الفهرست ٣٧١.

تشكُو وقوف الحـــــال وا قفـــة ببابـــك مستحيّـــه
متجنبـــــاً لسماعهـــــا فكأنمـــــا هي أجنبيّـــه
تبغي مواصلـــــة السُّرى ويعوقهـــا خوف السريّـــه
كـــاد التصـــدّي للصَّـــدا يمحو محاسنهـــا الجليّـــه
عدمـــتْ مناهـــا فانـــبرتْ تُـــذري دموعـــاً عندميّـــه
فاجْبُرْ بلُطفـــك كسرَهـــا بيـــدٍ أناملهـــا نديّـــه
حـــتى تعودَ كأنمـــا كُسيـــت ملابس سندسيّـــه
وتجرٌّ في إصلاحهـــــا تحرير قسمتهـــا السويّـــه
لا زلـــتَ يـــا اتقى القضـــا ة عـــلى الولاة لـــك المزيّـــه
مـــا تحرَّك الفلـــكَ المحيـ ـطُ بهمّـــةٍ نفس قويّـــه
أو سار نجمٌ يبتغي شَرَفـــاً ومنزلـــة سنيَّـــه

★ ★ ★

ومما املانيه من لفظه ما كتب به إليه أيضاً، أفاض الله على مثواه سجال عفوه ورضاه، مع نَاظُورة[1] أرسلها، وقد كان يألفها، وقد استطـار زُجاجها، وأسلمها بعد التماسُكِ عاجُها، ليجبر من عظمها الكسير، بنظره الإكسير، قوله وهي من غرر أشعاره:

يـا أيهـا المولى الذي من شأنه جبرُ الكسيرِ إذا استطارتْ أعْظُمُ
وبحدس فكرتـه وثاقـب ذِهْنهِ يلتـامُ منصَـدِعٌ ويُكشَفُ مُبْهَمُ

(١) الناظورة: لعله يعني بها النظارة أو المنظار، وهو الذي يتركب من عدسة وإطار مناسب للقراءة به أو رؤية الأشياء البعيدة أو نحو ذلك.

وافتْك يا نورَ العيونِ نواظرٌ تتلو القطيعـة وصلهـا يتحتمُ
وعليـه يعرض جابرٌ إكسيرَهُ[1] ولـه ابن سينـا والإمام يُسلِّمُ
فتلقهـا بالجَبْر منـك تكرُّمـاً فلأجلِ عـينِ ألفُ عين تُكرَمُ
لا زلتَ مخصوصاً بباهرِ حكمةٍ مـا لاح برقٌ ثغرُه يتبسَّمُ

وقصيدة لتقي الدين الراصد إليه

ومما كتب إليه، دامت سوابغ النعم لديه، تلميذه مولانا العلامة تقي الدين المذكور هذه المقصورة المزرية بدلِّها مقصورات الخيام، وهو بدمشق الشام، مستدعياً منه ما استجدّ من نظم قصائده، ودُرٌّ فرائده ليجمع ذلك، وهي[2]:

يـا كعبـةً يؤمُّها أولُو النُّهى وسِدْرة الفضـل إليها المنتهى
لأنـت في العـالِم فردٌ عَلَمٌ بـل أنتَ كلُّ الخلق علماً وهدى
والفضـلُ لَمَا قالَ إنّ مالكي في الشام كـلٌّ قـد أقرَّ بالولا

---

(١) جابر بن حيان، الصوفي، الفيلسوف الكيميائي الأشهر، من أهل الكوفة، اتصل بالبرامكة وانقطع إلى جعفر بن يحيى، وتوفي بطوس عام ٢٠٠ هـ، وله مصنفات كثيرة قيل بلغت خمسمائة، وقد نقل الإفرنج كثيراً من كتبه، ويقول عنه برتلو: لجابر في الكيمياء ما لأرسطو في المنطق، وهو أول من استخرج حامض الكبريتيك، وأول من اكتشف الصودا الكاوية، وأول من استحضر ماء الذهب، وكربونات البوتاسيوم والصوديوم ومركبات الزئبق واستحضرها ». انظر الفهرست ٣٥٤، والأعلام ٢/ ٩٠.

(٢) الأبيات الستة الأولى عدا الرابع، ثم البيت الثالث عشر في الريحانة ١/ ١٥٢، ويذكر الخفاجي أن الشعر الآتي شعر وسط...، ويستطيع القارىء أن يلمس هذا بنفسه عند قراءته.

لشيخ الاسلام على الإطلاق في   هـذا الزمان بل وفيا قد مضى
رفعـتَ قـدراً وعلوتَ رتبـةً   وفُزت بالتقـديم حال الابتـدا
وفُقْتَ أهل الأرض بالعلم الذي   أوتيتَـــه مولاي من رَبٍّ السما
إن جال بحث أو تراءى مشكل   أوضحتَ للطُلّاب ما قد اختفى
في حلبـة الفُتيا لك التقديم إذ   تجلو المهمّاتِ فأنت ابنُ جلا
كشّافُ أسرار العلوم عُمـــدةٌ   مفتـاحُ كنزِ الحقّ إرشادُ المَلا
وفي أصول الشرع أنت عَضُدٌ   توضح للطـلاب ما فيه خَفَا
١٢ ب وفي الكـلام الجوهر الفَرْد لـهُ   مقاصـدٌ تجريدُهـا لـه نَبَـا
منطقـك الرائـقُ في تصْدِيقه   نتيجـةٌ تُبْدي القيـاس بالسّوا
يصرّفُ لـبَّ المرء نحو لفظـه   إذ يُعربُ الفعل على هذا البِنا
لـك البلاغـةُ التي لو رامها   قبـلُ الحريريُّ لأعيـاه المَدَى
فصاحـةٌ لو أن سحبـان أتى   في عصرنـا لكان عنها قد رَوَى
قصائـــدٌ في نظمهـا كـدُررٍ   لا بـل دَرارٍ في السُّموِّ والعُـلا
مـاذا امرؤ القيس فلو أبصرها   لكـان لا يُدعى بإلّا عبدها
والقصـدُ من مولاي أن يسمح في   شيءٍ من المسودّات مـا يَشا
خصوصاً الآنَ التي قد برزت   من خِدرها كما العروس تُجتلى
في مـدح قاضي الشام فالعبـدُ لقـد ألزم نفسه بجمـع مـا رأى
وجمع الآن الـذي أمكنـه   من نظم مولانـا لعـل وعسى
لا زلتُم للخلـق ذُخراً مَلْجـأً   واللهُ يبقيكُمْ علـى طُول المدى

* * *

ومن لطائف المولى شيخنا العلامة، أجله الله دار المقامة، ما كتب به لمولانا تقي الدين المذكور مع خادمه أبي الرضا مداعباً، ولأذيال المجون مجاذباً، قوله:

أبو الرِّضَـــا بَرَّقَ تبريقـــاً   عينـــاه تغريبـــاً وتشريقـــا

فحاكم أحبه جاقمٌ يطلب للقهوة إبريقا
يشكو إلى حضرتكم فاقةً سَلَّت على الخير بواريقا[1]
لا زلتُم بين الورى مَلْجأً يبتلعُ الشاكي بكُمْ ريقا

★ ★ ★

سأل بعضُ أكابر دمشق منه قُدِّس سرُّه عن قائل هذا البيت:

لا ضُرَّ أحبابي ولا رُوِّعوا سِرْنَا فما زاروا ولا ودَّعوا

فأجاب عن السؤال، وذَيَّل عليه بقوله في الحال:

يا مَنْ لصبٍّ بين أطلالهم يهيمُ لا يَرْقَا له مَدْمَعُ
ترحَّلوا فالدارُ من بَعدهم لبُعدهم أطلالها بلقعُ
خلَت كأن لم يكُ فيها لنا مقام أنسٍ لا ولا مَربعُ
يا هَلْ لماضي عيشنا عودةٌ مَفْترِقُ الشمل بها يُجمعُ
لا، آخَذَ الرحمنُ من ضيَّعُوا ودّي وإن خانوا وإن ضيعُوا
حَثّوا السّرى بغياً ولم يرحموا ضَعْفي والبغيُ له مصرعُ
نذرتُ إن عادوا لهم مهجتي هيهاتَ ما في عَوْدهم مَطْمعُ

★ ★ ★

---

(١) في الأصل: براريقاً، والتصحيح من النسخة ب، والبواريق يعني بها التهديد والوعيد، أو هو لمعان السيف عند تحريكه للتهديد به.

ومن قوله في التشوق إلى وطنه

ومما نظمه رَوّح الله روحه. ووالى في غرف الجنان فتوحه، يتشوَّقُ إلى أوطانه بتونس الغرب، ويحنُّ إليها حنين الواله الصَّبّ، في سنة ٩٥٥ لكنه لم يُكملها، فإني وجدتُها هذا القدر بخطه، مثبتة في قِطّه[١]:

تذكَّر الغربَ مُضنَى القلب شائقُه ... مُـذْ لاح في الأُفُق الغربي بارقُهُ

وشام جنح الدجى بالشام منه سَناً ... فانهـلّ مدمعـه سَحًّـا يُسابقُـهُ

يا ساهر البرق أيقظْ بالوميض فَتًى ... أمسى يُساهِرُ صَبًّا أو يُرافقه

ويا حمام اللِّوى رِفقا بمكتئبٍ ... بأهلِ ذاك الحمى نيطت علائقه

هيجتَ بالنَّوح من أشجانه شَجَناً ... فاعتادَهُ من وجيب القلب خَافِقُه

لم تكتحـلْ بسهـادٍ مُقلتـاه الى أن للورى فَلَق الإصباحَ فَالِقُهُ

ومن باب حنينه لأوطانه، وتذكره معالم أوطاره واخوانه، ما نظمه متشوقاً إلى بلدته تونس مسقط رأسه، ومشتعل نبراسه، يذكر فيها معهد شبابه الرائق، وعهد عيشه الفائق، حيث غُصْنُ الشباب فَيْنان، ومن ماء الصِّبا والتصافي ريّان، وهي الغاية في باب الاشتياق والحنين، والواسطة[٢] في عقد النظم الثمين، وذلك سنة إحدى وخمسين وتسعمائة[٣] بدمشق الشام، حيث قال[٤]:

---

(١) القط: الكتاب الذي سيحاسب به الإنسان، أو الكتاب مطلقاً وهو المقصود هنا.

(٢) الواسطة: ما يتوسط العقد من جوهرة نفيسة.

(٣) في هذه السنة يكون ابن عبد السلام قد قضى عشرين عاماً من عمره في دمشق، فقد دخلها وهو في الثلاثين، وحيث إنه ولد سنة إحدى وتسعمائة وقد أوفى بذلك على الخمسين أو جاوزها بقليل فإذن يكون قد قضى في دمشق عشرين عاماً، والواقع أنه سوف يعيش فيها بعد =

سَلُوا البـــارقَ النجـديَّ عن سُحْــبِ أجْفــاني
وعَمَّا بقلبي من لَوَاعج نِيراني

ولا تسألوا غير الصَّبا عن صَبابتي وشدة أشواقي إليكم وأشجاني
فما لي سواها من رسُول إليكُمُ سريعُ السَّري في سَيْره ليس بالوَاني
فيا طال بالأسحار ما قد تكفَّلـتْ[١] بانعاش محزونٍ وإيقاظ وَسْنان
وتنفيس كَرْبٍ عن كئيب مُتَيَّم يحنُّ إلى أهـل ويصبو لأوطـان
فللّـه ما أذكى شذَا نَسْمةِ الصَّبا صباحاً إذا مرت على الرُّند والبَان
وسارتْ مسير الشمس وَهْناً فأصبحتْ من الشرق نحو الغرب تجري بحُسْبان
وقد وقفتْ بالشام وقفَةَ حامل نوافـجَ مِسْك من ظِباء خراسان
لترتـاضَ في تلك الرياض هنيئةً وتزدادَ من أزهارها طيبَ أردان
ومـا غربتْ حتى تضاعفَ نشرُها بواسطـتيْ رَوْحٍ هناك ورَيْحان
فـكم نحوكم حَمّلتُهـا من رسالةٍ مُدوَّنـةٍ في شرح حالي ووجداني
وناشدْتُهـا بـاللهِ إلاّ تفضَّـلَـتْ بتبليغ[٢] أحْبابي السَّلامَ وجيراني

= حتى سن الخامسة والسبعين إلى أن توفى، وبالرغم من تشوقه وحنينه هذا إلى بلاده، وبالرغم كذلك من أنه كان فقيراً يقاسي شظف العيش إلا أنه آثر الحياة في دمشق، والحقيقة أن دمشق مدينة عظيمة حقاً، عظيمة بروعة التاريخ التي تفوح من كل شق فيها، وعظيمة بأهلها الذين تحس فيهم بدماثة الخلق مع الإباء والشمم الذي يتناسب مع عظمة تاريخهم وروعته، هذا فوق احترامهم وتقديرهم للعلماء الذين يفدون إليهم، هذا التقدير الذي يعد أجل مكافأة يظفر بها العالم، وقد تكون تعويضاً لبعده عن وطنه وتسلية لحنينه إليه، كما ترى مع هذا الشيخ الجليل ومع الكثير غيره من العلماء الذين آثروا الإقامة فيها.

(٤) ترد الأبيات السبعة، ثم الثاني عشر، في ريحانة الألبا ١/١٨٧.

(١) في الريحانة: تكلفت.

(٢) في الريحانة: لتبليغ.

تحيةَ مشتاقٍ إلى ذلك الحمى   وسُكانِه والنازحين بأظعانِ

سقى اللهُ هاتيك الديار وأهلَها   سحائبَ تحكي صوبَ مدمَعِيَ القاني

وحيّا ربوعَ الحيِّ من خير بلدةٍ   تخيَّرها قِدماً أفاضلُ يُونانِ

هي الحضرةُ العُليا مدينةُ تونس   أنيسةُ إنسان رآها بإنسانِ

لها الفخر والفضلُ المبين بما حَوَتْ   من الأُنس والحسنُ المنُوط بإحسانِ

١٤ أ لقد حلَّ منها آلُ حفص ملوكها[1]   مراتب تسمو فوق هامة كيوان

وسادُوا بها كُلَّ الملوك وشيّدوا   بها من مباني العز أفخر بنيان

وكان لهم فيها بهاءٌ وبهجةٌ   وحُسن نظامٍ لا يُعاب بنقصان

وكان لهم فيها عساكرُ جَمّةٌ   تصولُ بأسياف وتسطُو بمُرّانِ[2]

جيوشٌ وفرسان يضيق بها الفَضَا   وتحجم عنها الفرس من آل ساسان

وكان لأهليها المفاخرُ والعُلا   وكان بها حصننا أمانٍ وإيمانِ

وكان على الدنيا جمالٌ بحسنها   وحسن بنيها من ملوك وأعيان

وكانت لطلّاب المعارف قبلةٌ   لما في حماها من ائمة عرفان

وكان لأهل العلم فيها وجاهةٌ   وجاهٌ وعزٌّ مجده بالفاني

وكان بواديها المقدسِ فتيةٌ   تُقَدِّسُ باريها بذكرٍ وقرآن

ومن أدباء النظم والنثر معشرٌ   تفوقُ بناديها بلاغة سحبان

---

(١) آل حفص: أسرة عربية تولت حكم تونس من سنة ٦٢٥ هـ إلى ٩٨٢ هـ، وأولهم أبو زكريا يحيى بن حفص الهنتاتي الذي استقل عن الموحدين عام ٦٢٥ واتخذ لقب أمير، ثم توالى على الحكم أربعة وعشرون والياً منهم آخرهم أبو عبد الله محمد السادس بن الحسن الذي تولى عام ٩٨٢ هـ ثم عزله الأتراك واستولوا على البلاد نهائياً عام ٩٨٣ هـ.

انظر معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في الإسلام ١١٥ - ١١٦.

(٢) المران: الرماح الصلبة اللدنة، واحدتها مرانة.

وكانت على الأعداء في حَوْمة الوغـى تصولُ بأبطـال وتسطو بشجعان

ومـا برحـتْ فيهـا محاسنُ جمّةٌ وفي كـل نوع أهلُ حِذق وإتقان

إلى أن رَمَتْهـا الحادثاتُ بأسهم وسلّتْ عليها سيفَ بغيٍ وعُدوان

فما لبثـتْ تلك المحاسُن أن عَفَتْ وأقفر رَبْعُ الأُنْسِ من بعد سُكّان

وشُتّت ذاك الشملُ من بعد جَمْعه كما انتثرتْ يوماً قلائدُ عقيان[1]

فأعظِمْ برُزْءٍ خَصّ خيرَ مدينة وخـير أُناس بين عُرب وعُجْمانِ

لعمري لقـد كادتْ عليها قلوبنا تضرَّمُ من خَطْـب عَراها بنيران

وقـد عَمّنـا غَمٌّ بعُظْم مصابها وإن خصّـني منـه المُضرُّ بجثماني

ومـا بقيـتْ فيما علمنـاه بلـدةٌ من الشرق إلّا ألْبَسَتْ ثوب أحزانِ

فصبراً أخي صبراً على المحنة التي رمَتْك بها الأقدارُ ما بين إخوانِ

فما الدهر إلّا هكـذا فاصطبر له رزيـــةُ مـــال أو تفرُّقُ خلان

أأحبابنـا إن فَرّق الدهرُ بيننا وطـال مغيبي عنكمُ منذ أزمانِ

فإنّي عـلى حفظ الوداد وحقكم مقيمٌ وما هجرُ الأحبّةِ من شاني

ووالله والله العظـــيم أَلِيّـــةٌ على صدقها قامتْ شواهدُ برهانِ

لقـد زاد وجدي واشتياقي إليكمُ وبَرّح بي طولُ البعاد وأضناني

فـلا تحسبُوا أني تسلّيتُ بعدكم بشيءٍ من الدنيا وزخرفها الفاني

ولا أنّـني يومـاً تناسَيْتُ عهدكم بحـالٍ ولا أنّ التكاثُرَ ألهـاني

ولا راقني روضٌ ولا هشّ مسمعي لنغمـةِ أطيـارٍ ورَنّـة عيـدان

ولا حـلّ في فكري سواكُمْ بخلوةٍ ولا جلوةِ مـا بين حُورٍ ووُلدانِ

ومـا اختلجتْ يوماً ضمائرُ مُهجتي بغـيركُمُ في سرِّ سِرّي وإعـلاني

---

(١) العقيان: ذهب متكاثف في مناجمه، خالص مما يختلط به من الرمال والحجارة.

ولو لم أُسَلِّ النفسَ بالقُربِ واللقا   لأدْرج جسمي في مقاطع أكفان
فما أنا من عَوْدِي إليكم بآيسٍ   فما اليأسُ إلاّ من علامة كفرانِ
عليكم سلامُ الله في كلِّ ساعةٍ   تحيةَ صَبٍّ لا يدين بسُلوانِ
مدى الدهر ما ناحتْ مطوَّقةٌ وما   تعاقبَ بين الخافقين الجديدانِ

★ ★ ★

ومما قاله قُدِّس سِرُّه في المعنى، هذه القطعة متأسفاً لما بلغه تغلب الإفرنج على تلك الديار ومتلهفاً، قوله:

كم من أسيرٍ ماله من فادي   من تونسٍ أضحى بحَلْق الوادي
يبكي عليه بها بقايا أهلِه   إن كان ذا أهلٍ وذا أولاد
أوْلاَ فتُبكيه المنازلُ والرُّبَى   ورسومُ أطلال بذاك النادي
ويظلُّ يبكيه الغمامُ بأدمعٍ   تنهلُّ من سُحب هناك غَوادي
لَهَفِي على تلك الديار وأهلها   . لَهْفَ ابن عَبّادٍ على عَبّاد

قوله: قصد الإحماض

١٥ أ وقال رَوَّح الله رُوحه، وأجزل من الرحمن فتوحه، في غرض من الأغراض قصد الإحماض[1]، عام أربع وستين وتسعمائة:

أقسمتُ بالرحمن لا بالفجر   ولا بآناء ليالٍ عَشْرِ[2]

---

(١) الإحماض: قصد مؤانسة الإخوان بالحديث والشعر.

(٢) الليالي العشر الواردة في الآية الكريمة ﴿والفجر، وليال عشر﴾ هي العشر الأخيرة من =

ولا بشفـــــعٍ مُرْدَفٍ بِوَتْرِ ولا بِجُنْحِ الليل حين يسري[1]

ولا برادات الضُّحى والعَصْرِ[2] وما حوى الجِمَارُ يوم النحر

لقـــد فتكْـــتُ فتكـــةَ الهِزَبْرِ لا فتكـة البَرَّاض نجل عَمرو[3]

ولا بـني الخزرج يوم بـــدر[4] بضربةٍ فُويْق عِقْد النحر

ضربـة لا غَمِرٍ ولا ابن غِمْر[5] ولا خبيـث الأصـل غير حُرّ

ولا ابن نَخَّالٍ حقـيرِ القَـدْر نَذْل عديمٍ رفعةٍ ووَفْر

رمضان، وذلك تفسير ابن عباس للحديث المتفق على صحته، قالت عائشة رضي الله عنها «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله»، أما عند غيره فهي الليالي العشر الأولى من ذي الحجة، انظر البحر المحيط ٤٦٨/٨.

(١) الشفع: يوم عرفة ويوم الأضحى، والوتر: ليلة النحر، وهذا أشهر ما قيل فيها، والليل إذا يسري: يسري أي يدبر. انظر المصدر السابق.

(٢) قال ابن عباس: أقسم الله تعالى بالعصر كما أقسم بالضحى لما فيهما من دلائل القدرة. والعصر وقته من صلاة العصر إلى المغرب، والضحى من صلاة الفجر إلى طلوع الشمس، وهذان الوقتان يسميان الأبردان لما فيهما من طيب الجو وبرودته، ولعل هذا هو ما يعنيه الشاعر برادات الضحى والعصر.

(٣) الهزبر: الأسد، والبراض بن عمرو هو على التحقيق البراض بن قيس بن رافع الصخري الكناني، فاتك جاهلي يضرب بفتكه المثل، تبرأ منه قومه ففارقهم وقدم مكة، ثم رحل إلى العراق، ومنها إلى المدائن حيث أراد أن يضمن قافلة كسرى التي تذهب بالتجارة كل عام إلى بلاد العرب، وكان ضمينها وحارسها عروة الرحال بن عتبة بن جعفر بن كلاب، فرفض كسرى عرض البراض بأن يكون مكانه، فتربص هذا بعروة ثم قتله، فهاجت حرب الفجار بين خندف وقيس، وكان حوالي سنة ٣٨ قبل الهجرة، ومات هو قبلها نحو عام ٣٥ هـ.

انظر مجمع الأمثال ٢٣/٢، وثمار القلوب ١٠١ وجمهرة الأنساب ١٧٥، وسيرة ابن هشام ٦٢/١، والمحبر ١٩٠.

(٤) كان الخزرج يوم بدر أكثر المقاتلين عدداً، إذ كان الجيش كله ٣١٤ رجلاً، منهم ٨٣ من المهاجرين، و ٦١ من الأوس، ومائة وسبعون من الخزرج، وقد أبلوا في المعركة أحسن البلاء رضي الله عن أصحاب بدر جميعاً، انظر السيرة النبوية ٣٧١/٢.

(٥) الغمر: من لم يجرب الأمور.

هِلباجــةٍ[1] عَلّامــة في الشرّ يفخرُ بالفسق وهَتْك السِّتْر
أفسَقُ من قِحــاب شَطٍّ ثَغرِ كم حَكَّ بطنَ غيره بالظهر
وحكَّ ظهر الأرض كالمستشري[2] بــل قَسَماً بالسّابحـات الزُّهرِ
السّانحات بالليالي القُمْر والظَّبياتِ النّافراتِ العُفْرِ
بــين الخزامى والعَرار النَّضْر يُعطِّرُ الكون بطيب النَّشْرِ
إنّي في الفتــك وحيـدُ دهرِي وفي المهمّات فريدُ عَصْرِيَ

قوله في فضل علم الحديث

وقال - قدّس الله سرّه، وأجزل له عطاءه وبِرَّه، مُحثاً على طلب علم الحديث لطلّاب الكمال، وأنه العِلم النافع في الحال والمآل، في عام ثلاث وثلاثين وتسعمائة:

عِلمُ الحديث أجلّ علم يُطلب وأحقُّ ما يَرْوي اللبيبُ ويكتُبُ
وأعزُّ ما صرف الفتـى أوقاتَـه في جمعــه نظماً بــه يتقرّبُ
فهو الوسيلـةُ المُعْلى في حالـه ومآلِــه وهو الغَمامُ الصَّيِّـــب
من نالَـه قـد نال حَظّاً وافراً وغَـدَا لـه ذكرٌ يطيبُ ويعذَب
ومن انزوى عنـه الحديثُ وعلمه فهو الشَّقِيُّ الحائرُ المتذَبْــذِبُ
وقـد انتقيـتُ عيونَـه فنظمتُها للمبتــدي شِعراً يروقُ ويُغْرِبُ

يشير إلى أرجوزته التي نَظَمها في علم الحديث، قُدِّس سِرُّه،

---

(١) الهلباجة: الأحمق الضخم الفدم الأكول الجامع لكل شر.

(٢) المستشري: الذي عظم داؤه وتفاقم.

في منع إعارة الكتب

وبما قاله في عدم إعارة الكتب لمن لا يهتم بحفظها، وصَدَق:

إعارةُ كُتْبِ المرء من لم يكنْ لهُ ... مزيدَ احتفاظٍ غاية الظُّلم والإفْك
فلا تُعِر الجُهّالَ كُتْبَك مُطلَقاً ... ولا سيا ما كان منها بلا حَبْك(١)
فيخلُوبها من ليس أهلاً فتغتـــدي ... مُقَلَّبةَ الأوراق عَادِمَةَ السِّلْك

يهجو متولي الجامع الأموي ونائبه

ولما أن خلتْ توليةُ جامع بني أميّة بدمشق المحميَّة، وجَّهها قاضي قضاتها مولانا علي أفندي الشّهير بقَفَهْ لِي زاده(٢)، أسبغ الله ظلاله، وضاعف جلاله، إلى إسماعيل العجمي الهمذاني(٣) المنبوز بزنكولا، وكان

(١) الحبك: شد الفتل وتقوية العقد، وهو يعني بالنسبة للكتاب ما يشبه التجليد اليوم.
(٢) هو المولى علي بن إسرافيل قنالي زاده، فاضل من القضاة، ولد في قصبة (سبارة من لواء حيد سنة ٩١٨ هـ، وتوفى عام ٩٧٩ هـ، من مصنفاته: «رسالة سيفية» (أي رسالة في وصف السيف وذكر فضائله)، وقد ترجمه الشهاب الخفاجي باسم علي بن أمر الله الحميدي أو الحنائي.
انظر: شذرات الذهب ٣٨٨/٨ - ٣٩٠، وريحانة الألبا ٢٤٩/٢ وانظر هامشه.
(٣) هو اسماعيل بن عبد الله الهمداني، (ويسميه الطالوي هنا العجمي على عادته في ذكر نسب لا توجد في كتب التراجم).
دخل اسماعيل هذا دمشق سنة ٩٥٨ ووسعته، فسكن بالمجاهدية وكان يبيع الحبر بباب البريد ويصبغ الورق، وكان يخدم القضاة وغيرهم ويتقرب منهم فأعطى تولية جامع سيباي خارج باب الجابية، ثم أعطاه المولى قنالي زاده السابق ذكره وكان قاضي قضاة دمشق تولية الجامع الأموي نيابة عن المنلا أسد الدين التبريزي وضم إليه نظارة النظار، وبقي متولياً على الجامع أربعين سنة وتصرف هو والقاضي ابن الموقع المنبوز بالدب تصرفاً انتقد عليها أكثره

له نائب يُنْبز بالدبّ أيضاً، فسئل حكاية الحال عن لسانه، فقال:

يقولُ - على ما قيل - جامعُ جِلّقٍ ... ألم يكُ قاضي الشام عنّي مسئولا
يُسَلّمُ للأعجـــام وَقْفِي لأكْلـــه ... ويَروِي لهم عَنّي كتاب ابن ماكولا (١)
أبعد الفتى السُّبْكي أَعْطى لسَيْبــكِ ... وبعد الإمام الزَّنْكلوني لزنكولا (٢)
أقامُوه لي قِرداً بشبَّاك مَشْهدي ... وضَمُّوا له دبًّا على الرَّقْص مجبولا
يُؤَمّـل كـلُّ أكـلِ مـالي بأَسْرِه ... فـلا بَلّـغَ اللهُ الأعاجم مأمُولا

= حتى آل أمر وقف الجامع إلى الضياع فصرف عن النظارة، وتوفي خاملاً عام ١٠٠٦ هـ: انظر خلاصة الأثر ٤١٠/١، وانظر الأبيات التالية فيها.

(١) ابن ماكولا: هو علي بن هبة الله بن علي بن جعفر، أبو نصر، سعد الملك، من ولد أبي دلف العجلي، أمير، مؤرخ من العلماء الحفاظ الأدباء، ولد في عكبرا قرب بغداد، وزار الشام ومصر والجزيرة وما وراء النهر وخراسان، وقد طمع فيه غلمان له من الترك فقتلوه بخوزستان عام ٤٨٦ هـ خاص كتبه: الإكمال في المؤتلف والمختلف من الأسماء والكنى والأنساب، قال عنه ابن خلكان: لم يوضع مثله، وقد طبع الكتاب في الهند، وتكملة الإكمال، والوزراء.

انظر فوات الوفيات ٩٣/٢، والوافي بالوفيات ٣٣٣/١ (عن الأعلام ١٨٣/٥).

(٢) السبكي: هو عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، أبو نصر، قاضي القضاة، المؤرخ، الباحث، ولد بالقاهرة وانتقل إلى دمشق مع والده فسكنها وتوفي بها، نسبته إلى سبك من قرى محافظة المنوفية بمصر، وكان طلق اللسان قوي الحجة، انتهى إليه قضاء القضاة في دمشق، من مؤلفاته: طبقات الشافعية الكبرى، ومعيد النعم ومبيد النقم، وجمع الجوامع في أصول الفقه وغيرها، توفي عام ٧٧١ هـ.

انظر الدرر الكامنة ٤٢٥/٢، وحسن المحاضرة ١٨٢/١ (الأعلام ٣٣٥/٤٠).

الزنكلوني هو أبو بكر بن إسماعيل بن عبد العزيز الزنكلوني نسبة إلى زنكلون من قرى محافظة الشرقية بمصر، فقيه أصولي محدث نحوي، توفي عام ٧٤٠ هـ، من مؤلفاته، شرح التنبيه وسماه تحفة النبيه في شرح التنبيه من أربع مجلدات (وهو في فقه الشافعية) وشرح منهاج الطالبين، واللمع العارضة فيما وقع بين الرافعي والنووي من المعارضة.

انظر الدرر الكامنة ٤٤١/١، شذرات الذهب ١٢٥/٦، حسن المحاضرة ٢٤١/١.

وحين بُلِّغت هذه الأبيات لمولانا قاضي القضاة، أفهم العتب على الشيخ، فكتب إليه شاكراً لسعْيه، مصوّباً ذلك لرأيه، بما صورته:

مولاي إسماعيلَ زاد حَمْدُه ... وشكْرُه بقولــه وفعلِــه
وزاد في جُنح الدُّجى دعاؤُه ... لكم عقيبَ فرضِه ونفلِه
بما إليه سيدي أسْدَيْتُم ... من نظر الجامع عند حِلِّه
وكان كاد يضمحلُّ أمرُه ... من مُتَولٍّ مُفرطٍ في جهلـه
وعلمكُمْ به محيطٌ وبما ... يفعلُه من مُوجبات عزْلِه
والحقُّ يُمْلِي للفتى حتى إذا ... أخذه أهلكَــهُ بفِعْلِه
ونعم ما فعلتموه إنّه ... من باب وضع الشيء في مَحلِّه
أسْألُ ربَّ العرش أن يعطيَكُمْ ... فوق المُراد من كمال فضلِه

* * *

وكتبت أيضاً إلى المولى قاضي قضاة الشّام علي أفندي المذكور، وكان قد رتَّب لمولانا الشيخ من محصُول المحكمةِ ما يُحمل في كلِّ يوم إليه، فقطع كَتْخُداه[1] ذلك الواصِلَ بعد أيام، ففاجأه طارقُ الحِمام، فتشحَّط في داره قتيلاً، ولا يَظلم ربُّك فتيلا، فكانت للشيخ كرامةٌ باهرة، بل ولايةٌ ظاهرة، وهي قوله[2]:

إنْ قَطَعَ السَّيِّدُ عنْ عَبْدِهِ ... ما كان قد رتَّب من رِفْدِهِ
فالعبدُ لم يقطعْ دُعاءً له ... رتّبه كالجزء من وِردِهِ

---

(١) الكتخدا: أمين الوالي أو وكيله (تركية).

(٢) القصيدة التالية في ريحانة الألبا ١٧٨/١ - ١٨٠.

ولا ثنــاءً حَسَنــاً نَشْرُهُ كالمسك والعنبر في نَدِّه

أو كريــاض راضهــا وابــلٌ فابتسم اليانع من وَرْدِهِ

وانتظمتْ من نثر[1] أزهارها جواهِرُ الأنداء في عِقدِه

وهو غــنيٌّ عن ثنــاء امرئ مثلي كَليلِ الذهن عن نَقْده[2]

إذْ مهّد الحقُّ له رتبةً عظيمــةً مــذ كــان في مَهْده

ونـال مـا شاء من المجــدِ لا بسَعْيِ إنسانٍ ولا وُكْده[3]

فهو عــليٌّ لا بمــدح الورى له ولكن بَسنا سَعْده

وإنمــا أوجَــبَ مدحي لــه تَتابُع النعماء من عِنْده

ومــا جنــاه الحــقُّ سُبحانَــهُ من العُلَـى الناشئ عن جَـدّه

والعلم والتحقيــق والفهم والـ ـتدقيـق والتوفيـق في جنــده

والشكر للمنعم فرضٌ به يأمنُ ذو الإيمــان من طرده

وفيه لا شك مزيدٌ لمن لازمــه والكــلُّ في ضــدّه[4]

هـذا وإن العبـد يبغي الرِّضا في قربه الأقربِ أو بُعده

ومــا لــه في غــيره رغبــةٌ والعبدُ محمول عَلَى قصده

وليس ذا الحزن لما فات من دنياه مُذْ سيق إلى رشده

سيّــان فقرٌ وغنّــى عِنــده لما هو المعهودُ من زهده

ومــا تصــدّى لصَدَى حالة[5] قبيحةٍ تُفضي إلى صَدِّه

---

(١) في الريحانة: نثر.

(٢) في الريحانة: ظل كليل... عن فقده.

(٣) في الريحانة: كده.

(٤) في الريحانة: من عنده.

(٥) في الريحانة: آلة.

سوى لزوم البيت مستوحشاً … من الورى حتى ذوي وُدِّه
مشتغلاً بالعلم مستغرقاً … أوقاتَه فيه وفي سَرْدِه
قد لزم العُزلة لكنّه … لصَحْبه باقٍ على عهدِه
أقسمَ لا يبرحُ من بيته … حتّى يُوارى في ثرى لَحْده
إنْ مات لم يتركْ له درهماً … يحوزُه الوارثُ من بعده
ولا أثاثاً لا ولا مَلْبساً … يصلُحُ للبيع سِوى بُرْدِه
وفروةٍ جَرداءَ من عِتْقها … أضلاعُه تَرْعُدُ من بَرْدِه
وطيلسانٍ خَلَقٍ دمعُه … من عِتْقه يَجْري على خدِّه
١٧ أ ولم يكنْ يتركُ شيئاً إذا … فارقَه يأسَى على فقده
غيرَ بقايا كُتُبٍ رَثّةٍ … أكثرُها قد مات في جِلْدِه
يُباع في تجهيزه بعضُها … والبعضُ وقفٌ لا على وُلْدَه
هذا لعمري عَرْضُ حالي لذا(١) … من أجمَع الناسُ على حَمْده
قاضي قضاة الشام علّامة … العَالَمِ زاد اللهُ في مجده(٢)
سلطانُ أهل العلم في عصرِه … المنعمُ الصادقُ في وَعْده
من عَمّ أهلَ الشام إنعامُه … جُوداً يُضاهِي الغيثَ في جُوده
لا بَرِحت أعتابُه قِبْلَةً … يَؤُمّها العافون من وفده
ما هطلَت أنْمُلَةٌ بالندى … من راحةٍ كالبحر في مَدِّه

---

(١) في الريحانة: على.

(٢) لم يرد هذا البيت ولا البيتان بعده في الريحانة.

الأمير نجمي يستدعيه لزيارته

ومما كتبه لجنابه الرفيع، وبابه المنيع، تلميذُه أديبُ عصره، وأريب مِصره، الأميرُ نجمي محمد ابن مولانا وسيدنا القاضي معروف مستدعياً له إلى منزله بدمشق الشام، جاد رُبَاها صيِّب الغَمام، ولا رَمَتْ ساحَتها حوادثُ الأيام، قوله:

يا أيها المولى الذي فُتِحَتْ له ... فيضاً خزائنُ كُلّ عِلمٍ مُغْلقِ
وَوفودُ أربـاب الفنون تقيّدُوا ... بولاه إذ هوَ ربٌّ فَضلٍ مطلق
وإذا أتـاه الفاضلون بجُملـةٍ ... من فضلـه لاقاهم في فيلـق
العبدُ يرغب أن تشرِّفَ بيته ... ليصير افضل بقعةٍ في جِلَّق
لا زلتَ يا لُبَّ الوجود ممتَّعاً ... بعوارفٍ منها المعارفُ نستقي

فأجابه، وأجابه:

يا ماجداً نحو العُلَا لم يُسبق ... ومهذّبـاً حـاز الكمال بجلَّـق
لَبّيـك من مولًى تفضّل راعياً ... لُحبِّـهِ بـل عبْـدِه المتملِّـقِ
وافتْ بدائعُ نظمه تحكي عقو ... د الدُّرِّ في سِلْك البيان المطلقِ
١٧ ب يدعُو بحضرته الرفيـعِ مقامُها ... ببلاغةٍ فاقتْ بأفصح منطـق
سعيـاً على الأحداق نحو كمالِهِ ... وجمالـه المتوقـد المتألـق
نحو الفضائِـلِ والفواضل والسَّنَا ... نحو المكـارم والنَّدى المتدفّق
لا زلتَ محروسَ الجنـاب ممتَّعاً ... بلقيّـك الفضـلاءَ دون تفرُّق
مـا لاح نَجْمٌ في الدُّجُنَّةِ ثاقباً ... أو فاح عَرْفُ الروضةِ المستنشَقِ

[قوله في مدح مُغَنٍّ والإعجاب به]

وحضر ليلة مجلس الأمير نجمي المذكور، وكانت ليلة سماع فأتى المنشدُ بما أطرب الأسماع، وكان يسمّى بمحمود، فكتب يخاطبه بما يُزري بدُرَرِ العُقود، وهو قوله:

أقسمتُ أنّك يا محمود محمودُ ... وكلُّ معنى لطيفٍ فيك موجودُ
وأنت أدخلُ أهل العصر قاطبةً ... بين الأنام وقول الخَصْم مردودُ
ما للسماع وللأوتار عنك غنًى ... ليلاً إذا حضر السِّنْطير[1] والعُود
كم ليلة أشرقت نوراً كواكبُها ... لما حَضَرْت بها والشمعُ موقودُ
والشملُ مجتمعٌ والضِّدُّ منقَمِعٌ ... والصَّدُّ مندفعٌ والبعدُ مفقودُ
حتى تبسمَ ثَغْر الصُّبْحِ عن نفسٍ ... وكأنه باللِّقا والوصل موعودُ
والقومُ في طرب والنوم في هَرَب ... لِمْ لا وقد شَنَّفِ الأسماعَ محمودُ
لا زال يتحفُنا أنساً ويُسعفنا ... حِسًّا ومعنى ومنه الفَضْلُ والجودُ
ما انهلَّ غيثٌ مغيثٌ بالرياض وما ... لاح الصَّباحُ وذاك الحسنُ مشهودُ

وفي قيم طائفة العكامة

ومما أملانيه من الشعر المليح، ما نظمه قصد التمليح، في شخصٍ يُدعى سلّامة، وقَيِّم طائفة العَكّامة[2]، يصفُ مهارته في تلك الصناعة

---

(١) السنطير: آلة موسيقية تشبه القانون، ولها أوتار من نحاس يضرب بها.

(٢) العكام: الحبال والأربطة التي تشد بها الأمتعة والأعدال إلى الدواب، والعكامة هم

دون الأنام، وذلك بدمشق عام ٩٧١:

إذا ما شئتَ تظفرُ بالكرامه   لنيل فضيلةٍ قُلْ للكرَى مَهْ

١٨ أ وذُد وَسَناً وقُم جنح الدَّياجي   لأعمال السُّرى ودع السَّآمَة

وصابرْ واصطبر فالصَّبرُ مرٌّ   وأهلُ الذوق تستحلي مُدامَه[1]

وسِرْ نحو العُلَا سَيْراً حثيثاً   كسير الشَّاطِر[2] السَّامِي سَلَامَه

سَرَى دهراً وخاضَ البرّ بَحْراً   ولم يَبْرحْ على سَنَنِ استقامه

وقد خدم الأعاظِم والموالي   وأهلَ العلم منتضياً حُسَامه

وفي الأسفار أسْفر عن حُبَاب[3]   إذا ما انساب ليلاً أو أسامه

وأضبح قَيِّم الشُّطَّار شَرْقاً   وغرباً لابساً ثوب الزّعامه

وفي فنّ الزعامة قد تناهى   لأقصى غايةٍ وحوى مَرَامه

وَمَدّ إلى النَّعائم[4] منه كفًّا   خضيباً تحته ساقَا نَعَامه

وأضحى فِي المحافل لا يُجَارى   إذا جرَّتْ محافلُه زمامَه

وطولُ يدٍ حَوَى حِسًّا ومعنى   بها رُتَب الكمال وطولُ قامه

وطولُ نجاده مُذْ حلَّ نجدًا   وعَرْضُ وساده سَدًّا تِهامه

الرجال الذين يقومون بهذه المهمة، وتشير الأبيات إلى أن العكامة هم الشطار أو اللصوص وعليه فيكون العكامة بمعنى المهاجمون، من عكموا أي هجموا وكرّوا.

انظر ترتيب القاموس المحيط (ع ك م).

(١) مدامه: خمره، والمقصود مرارته الشديدة التي غالباً ما تؤدي إلى الظفر آخر الأمر.

(٢) الشاطر: هو المحتال الذي أعيا الناس خبثاً وشراً، ويطلق في عرف العامة على الرجل الفهم الذي يحسن التصرف في الأمور.

(٣) الحباب: شرر النار.

(٤) النعائم: منزلة من منازل القمر، صورتها كالنعامة.

فـلا برح المُشَار إليـه يَسْعَى لأعْتَــاب المُظَلَّــلِ بالغمامـه
عليـه صلاةُ ربٍّ العرش تَتْرى مَدَى الأيام ما نَاحتْ حَمَامه

وفي استدعاء نائب الحكم إلى حضور مجلس

ومن روائع نظم الأستاذ العالي، المُزْرية ألفاظه بعقود اللآلى، ما خاطب به القاضي شمس الدين محمد الحنبليّ[1] الشهير بسِبْط القاضي الرُّجَيْحي وهو نائبُ الحكم الشريف، والشرع المنيف، بصالحيّة دمشق الشام، عن لسان بعض أعيانها من الكرام، ليشرِّف مجلسَه بحضوره، ويتمَّ له به كمال سروره، قوله:

---

(١) هو محمد بن ابراهيم بن يوسف بن عبد الرحمن الحنفي التاذفي الحلبي المعروف بابن الحنبلي ولد بحلب عام ٩٠٨ هـ، وكان مؤرخاً عالماً أديباً، له أكثر من خمسين مصنفاً، من أشهرها در الحبب في تاريخ أعيان حلب، والمصابيح (في الحساب)، والدرر الساطعة (في الطب)، ومخايل الملاحة في مسائل الفلاحة، ثم كتب في الفقه الحنفي والفرائض والحديث واللغة والمنطق وأصول الفقه والنحو والصرف وغير ذلك من الفنون.

ولقد ذكر المؤلف أن كنيته شمس الدين، هذا يتفق مع ما ذكر في الكواكب السائرة وريحانة الألبا، ولكنه بكنيته الأخرى وهي (رضى الدين) أعرف وأشهر.

وقد أضاف المؤلف هنا إلى معلوماتنا عن ابن الحنبلي معلومتين لم تذكرهما المراجع، الأولى أنه كان نائب الحكم في الصالحية أو قاضي القضاة، والأخرى أنه سبط (ابن بنت) القاضي الرجيحي.

والقاضي الرجيحي هو عبد القادر بن محمد بن عمر بن عيسى بن سابق بن هلال بن يونس المزي الصالحي الحنبلي، كان نائب الحكم في الصالحية أيضاً، وكان جده الأعلى يونس شيخ الطائفة اليونسية، وقد سلك هو الآخر طريق التصوف، وعرف بالصلاح والعلم، وبنى بالسهم الأعلى من الصالحية زاوية وحماماً وسكناً، توفي عام ٩١٠ هـ ودفن بسفح قاسيون.

انظر ترجمة ابن الحنبلي في الكواكب السائرة ١/ ٢٤١، وريحانة الألبا ١/ ١٨٤، والشذرات ٨/ ٣٦٥.

وانظر ترجمة جده ابن الرجيحي في شذرات الذهب ٨/ ٤٦.

علـى أقْضَـى قُضَـاةِ الصالحيـهْ سلامٌ حامــلٌ أزكــى تحيّــهْ
علـى المولى الأجلّ سلامُ صَبٌّ صَبَــا نحو المقامــات العَليّــة
رُجَيْحيٌّ ترجّـــح بالمعـــالي وأنواع الصِّفـــات المولويـــه
لقَــد غمرتْ أياديـه البَرَايَـا جميعــاً بالعطايــا الفاضليّــه
لـه فضـلٌ على الأصحاب طُرًّا وجُودٌ شائـــعٌ بـــين البريّــه
وإحسانٌ وإتحافٌ وبَــــــذل كبحرٍ يقــذفُ الــدُّرَرَ السنيّــه
وعِــــلمٌ لا يزالُ بحسن فهم يفوق بــه الأنــام وحسنُ نيّــه
تحمَّلَ منصــبُ الأحكـام لمَّا تولّاهــــا بهمّتــــه الزكيّـــهْ
وقـد صلُحت به الأحوالُ حتى علَـتْ في الخافقـين الصالحيّــه
وطابـتْ للمقـام بها وصارَتْ تُحاكي جنــة الخلــد البهيّــة
فـلا برحـتْ بـه تسمو وتعلُو عــلى كـلِّ البقــاعِ الجلّقيّــهْ
ولا زالــتْ مكارِمُـهُ تُرَجَّـى مــدى الأيـام في صُوَرٍ سنيّـه
ويسألُ فضلَـه شخـصٌ محـبٌّ فقــــيرٌ مولـــعٌ بالأريحيّـــه
لنقــل خُطاه إحسانـاً وفضلاً لمنزلـــهِ بآخر ذي العشيّـــه
ليحظـى حـين ينظُرُهُ بوجـهٍ جميـــل حـــازَ أنواراً بهيّـــه
وحامـلُ هـذه الأبيـات أضحى خطيـبَ محاسن الـذّات السنيّـه
تَراهُ مبـادراً في كـل وقـت إلى أبوابــــكم بالبدرئيّـــــهْ
فـــلا تتأخروا عما ابتغـــاه ولو كـــان المسير إلى المريّــه
وعيشوا واسلموا دهراً طويلًا بأبّهــــة العلوم القاضويّـــــة
مدى الأوقات ما صدَحتْ سُحَـيراً حمامُ الــدَّوح بالنغم الشجيّــه

★ ★ ★

كتب لبعض أكابر دمشق[١]، وكان وعده بإرسال تَاسُومه[٢]، بالظَّرْف مَوْسُومة، فتأخّر إرسالها لغَفْلة، فكتب له من غير مُهلة:

رُبَّ تاسُومةٍ بها قد وُعِدنا ... فإذا قُرْبُها من النجم أبعدْ
رَبُّ يَسِّرْ حصولَها لُمحِبٍّ ... عَلّهُ بالكمال يَرْقى ويَصْعَدْ
عَمَلا في الوَرَى بقولِ حكيمٍ ... ضَعْ مكانَ السَّعِيدِ رجلَكَ تَسْعَدْ

* * *

وقال مخاطباً أهلَ الطريقةِ بلسان الحقيقة:

هُبُّوا فقد هَبَّ نسيمُ الصَّبَا ... وطائرُ الإصباح قد أطْرَبَا
واصْطحبُوها خندريساً أبَى ... كلُّ لبيب غَيْرها مَشْرَبا
من كَفِّ ظَبْيٍ ساحرٍ طَرْفُهُ ... يلثم ثغراً قد غدا أشْنبا
رَاحَ على الرَّاحةِ من لَمْعِها ... ومُبْيَضٍّ بَرْقٍ لم يكن خُلَّبا
لا تحسَبَنْها قهوةً عُتِّقَتْ ... من عِنَبِ الكَرْمِ زَبيبِ الرُّبا
لكنَّها خمرةُ أهل التقى ... طُوبَى لصَبٍّ نحوِها قد صَبَا
وإنما قهوتُنا هذه ... قهوةُ عِرفانٍ جَلَتْ غَيْهبا
يشقُّ جلبابَ الدجى نورُها ... تَخَالُها في أُفْقه كَوْكَبا
يشربُها صِرْفاً وممزوجةً ... مَنْ أصبح الكشفُ له مَذْهَبا

---

(١) قال في هامش النسخة: إنه القاضي نجم الدين بن كريم الدين، أحد عدول دمشق.
(٢) التاسومة: نعل يشبه المداس، والتفسير من الريحانة التي أوردت الأبيات الثلاثة التالية في ١٨٦/١.

وقال في المعنى قُدِّسَ سِرُّه:

بانعكـاسِ الشُّعـاعِ في المرآةِ وانعطافِ الصَّدَى على الأصْوَاتِ
أَيقن القومُ أنـه ليس في الكو نِ سوى مُقْتَضى شئونِ الـذَّاتِ

وقال سقى الله مثواه، سحائب عفوه ورضاه:

عزمـتُ بزهدٍ وانقطاعٍ ولَيْتني فعلـتُ ولكنّ الفطـامَ شديـدُ
ولو كـان لي عقلٌ لكنتُ لِرِحْلتي من الزَّادِ بالجُهـد الجهيد أزيدُ
ولا كنـتُ للأولاد والأهلِ خادماً ولكنْ عن الأقـدار كيف أَحيدُ

★ ★ ★

ومما أنشدني من فيه لنفسه، قبيل حلول رمسه، في تفضيل الغِنى، وأن الفقر هو العنَا:

ألا لعن اللهُ الخصاصـةَ والفَقْرا فـإنّ سوادَ الوجـه بينهما بُهْرَا
ومـا الـذلُّ إلَّا منهما وعليهما وما العزُّ إلّا بالغنى وهو بي أَحْرى
ومن يـك في الدنيا فقيراً ومُعْدِماً يَجد من بنيها المَقْت والصَّدّ والْهَجْرا
فلاتـكُ عن كَسْبِ الحُطَام بعاجزٍ لتبلـغَ في الدنيا السعادةوالأخرى

★ ★ ★

ومما أنشدنيه وهو معنى بديع، قوله:

من لي بردٍّ معاشرٍ كَثُرُوا عـــــليَّ فأكْثَرُوا

صادقتُهم وأرى الخَرو ... جَ عن الصداقــــة يكـــبرُ
كالخـــطِّ يسهُــلُ في الطُرُوْ ... سِ ومحـــوُهُ مُتعــــذِّرُ
وإذا اردتُ كشطتَـــــــهُ ... لكــــنَّ ذاك يـــؤثِّــرُ

* * *

وله يخاطب شخصاً كان يألَفُه، وقد خان عهده وأخلفه:

أيُّهـــا الناقـــضُ عَهْـــدي ... ناسيـــاً خالـــصَ وُدِّي
خاليـــاً عن كـــلِّ معهو ... دِ من الحظوة عنــــدِي
أنـــت خالفـــتَ وبـــارزْ ... تَ وأكـــثرتَ التعـــدِّي
بعـــتَ بالبَخسِ مُحِبًّـــا ... بيعُـــه ليس بمُجْـــدِي
سَفَهًـــا بعـــتَ مُحِبًّـــا ... بيعُـــــه ليس بِرُشدِ
وارتضيـــتَ الغَـــدْرَ عَمْـــداً ... مخطئـــاً حالـــةَ عَمْـــدِ
وتصديـــتَ إلى مـــا ... شئـــتَ من هَجْرٍ وصَـــدٍّ
فطردْنـــاك وقـــد أصبحْ ... تَ في عكسٍ وطردِ

نَاوَلَهُ شابٌّ وردة، مضاهية خَدَّه، فقال:

ليتَـــه حـــينَ ناولتْني يـــداه ... وردةً أَلْثَمَ المتيَّمَ خَـــــدَّه

* * *

وقال في سَوداء:

بي من الحُبْش ظبيـــةٌ تتهـادَى ... بـــين أترابهـــا بمسكٍ فَتيـــقِ

هي ريحانةٌ إذا ما تثنت وشقيقٍ وما لها من شقيقِ

* * *

وله في مجلس شريف، عليه ظلٌّ وريف:

مجلسٌ طاب مقيلاً مُذ حوى ظلاًّ ظَليلا
وسبيلاً بجاه تَلْق ماءً سلسبيلا
ونسيماً صَحَّ لما مَرَّ بالروض عليلا

* * *

في خطيب يخاطبُ لبيبا:

مُلىء المنبرُ مسكاً مُذ به قمتَ خطيبا
أترى ضَمَّ خطيباً منك أم ضُمِّخَ طيبا

* * *

من أكيس الناس رجل باري أقواس، يدعى أبا اليسر، فقال مسئولاً في ذلك:

إذا رُمْتَ رمَي النبل باليُمن واليُسْرِ وقَهْر العِدى بالعزم والعِزِّ والنَّصْرِ
فهاك قِسِيًّا ليس تُخْطِي سِهامُها بَراها بتيسيرِ الإله أبو اليُسْرِ

* * *

التمس منه بعض أعيان دمشق الشام عمَل أبياتٍ تُكتب على طراز سَقْف تُرْبةٍ ضمت أناس ينتمون لبني العباس، بصالحيّة دمشق المحمية

تعرف بالرباط لبني المنقار، فقال:

يا حُسْنها من تُربةٍ بل روضةٍ تَزْهو بيانـع وَرْدِهـا والآسِ
قد نُزِّهتْ شَرَفاً وحلّتْ بهجة عن أن تُقاسَ بروضة المِقْياسِ
وسَمَتْ على هام الكواكب إذ حوتْ نسل الخلائق من بني العباسِ
فلها على تُربِ الورى فخرٌ بما قد ضُمِّنتْ من هذه الأرماسِ
ناهيك من أصداف درٌ في الثرى لولا الحِمام لكُنَّ فوق الرّاسِ
فإذا تألّق نورُها جُنْحَ الدجى أغنى عن المشكاة والنبراسِ
لا زال مُنْشِؤُها الهمامُ مجمَّلا ومُؤمَّلا يوم الندى والباسِ
كلا ولا بَرح الأنامِ ببابِه مُـتردِّدين تردُّدَ الأنفـاسِ
وإذا أحبَّ اللهُ يوماً عبدَه ألقى عليه محبةً في الناسِ

* * *

سأله بعضُ أكابرِ الدولة الغَرّاء، عمل تاريخ لقصرٍ بُني بميدان حلب الشهباء، برسم السُّلطان سُليمان خان، عليه الرحمة والرضوان، فقال في ذلك مُؤرخاً:

للهِ بُستانٌ وقصرٌ جديد ليس على حُسْنها من مَزِيد
للمَلِكِ الأعظم قد أنشِئا بحُسْنِ تدبيرٍ ورأي سَدِيد
أعني سليمان الزمان الذي لـه ملوكُ العصر طرًّا عَبِيد
لا بَرِحَ السَّعْد لـه خادماً ما سَاد في الأفلاك نَجْمٌ سَعيد
يا حلبَ الشهباء فخراً فَقَد زَانَك في الميدان عِقْدٌ فريد
من بنْيةٍ نِيط بأعطافِها رُوحٌ وريحانٌ وطلعٌ نضيد

قصرٌ مشيدٌ وَسْطَ روضٍ غدا تاريخه في الوسط قصرٌ مشيد

* * *

كتب لبعض الأصدقاء، بهذا الاستدعاء:

أنــا في البستــان وَخَـدي والصَّبــا فيــه تَهُــبُّ
فيـــه محبوبي كتـــابي فليكن مَغْـــهُ المحـــبُّ

* * *

سرتُ يوماً في خدمته، وهو يتهادى في مشيته إلى بستان يعرف بالحجّاجية، ظاهر دمشق المحمية، وقد تبسّم نَوْرها عن ثغر الأقاح[1]، وقابله الشقيق بخدّه الوقاح، فأعجب بما رآه وأنشد عند جلوسه هذا المفرد:

في ذا المكان ثلاثةٌ قد جُمِّعَتْ نُورٌ ونور واعتـــدال هَوَاءِ

وقال لي أجز، فقلت:

ولهـا وحقِّـك رابـعٌ علّامـةٌ شيـخُ الشُّيُوخ ومـرجـع العلماءِ

[الموشح المردوف في القهوة]

ومما أملاه عليّ – قدس الله روحه، ووالى من الرَّوْحِ والريحان

(١) الأقاح أو الأقحوان: نبت زهره أصفر أو أبيض، ورقه مؤلل (محدد الطرف) كأسنان المنشار، ومنه البابونج، وقد كثر في الأدب العربي تشبيه الأسنان بالنوع الأبيض منه، قال البحتري:

كأنما يبسم عن لؤلؤ منضـد أو برد أو أقـاح

واسمه عند فلاحي البساتين في مصر «حوان».

فُتُوحَه، الموشّح المَرْدُوف[1] في القهوة الذي لم يُنسج على منواله، ولا سمحتْ قريحةٌ بمثاله:

قُهيوة القِـدْر قَدْرُهـا ارتفعـا   مذ في الدُّجى بدر كأسها طلعا - يُجْلى

يا حُسْنَهـا مثلَ ذائب السَّبَج[2]

سمراءُ تَسْبِي العقولَ بالدَّعِـــج

كالمسك في منظرٍ وفي أَرَجِ

لها مُذابُ العبيرِ قد خَضَعا   ومَنْدَلُ الشِّحر[3] دَرَّهَا ارتضعا طِفْلا

أحبِبْ بكـأس لم يعلُها حَبَبُ

جوهرُ ياقوتِهـنـا لــــه لهـــبُ

ابنــةُ بُنٍّ[4] لهـا الشّهـابُ أبُ

كم بـارقٍ منـه حولها لَمَعـا   فكيف مَعْ حسنها الذي سطعا - تُقْلَى

لا غَرو أن سَلِمـتْ بـذي سَلَمِ

لميـاءُ في رشفهـا شفـا أَلَمي

منشؤهـا الحِـلّ وهي في الحرمِ

ما طاف بالبيتِ طيفُها وسعى   إلاّ وقال الإمام حين دعا - أهْـلا

من خِدْرِها العَيْدَرُوس أبرزها[5]

---

(١) المردوف: هو الذي يلي البيت الأول من كل مقطع فيه كلمة تلتزم فيها قافية واحدة.

(٢) السبج: الخرز الأسود.

(٣) المندل: العود الطيب الرائحة، والشحر هو ساحل بحر الهند من ناحية اليمن، ينسب إليه العنبر الشحري: معجم البلدان ٣/٣١٣.

(٤) في ب: ابنة ابن.

(٥) يعني بالعيدورس الشيخ أبا بكر بن عبد الله الشاذلي المعروف بالعيدروس، وهو مبتكر

وللندامَـــى الكرامِ جهّزهـــا
وبالمعـــاني الحسَان طرّزهـــا
وهيَّم القومُ عنـدمـــا وضعـــا لها اسمُ راح ونعم ما صنعا - فَعَلا
قـــد ظهرتْ في الورى منافعُهـا
والغَمر من جهلـــه يُدَافعهـــا[1]
يخفضهـــا والإلـــهُ يرفَعُهـــا
يـــا عَــاذِلي زِدْتــني بهـــا وَلَعـا أحبُّ شيءٍ للمرءِ ما مُنِعا - وَصْلا
كم طـــابَ في طيبـــةٍ بهـــا السَّهَرُ
وزال عنـــد الصّفـــا بهـــا الكـدرُ
وضـــاع بالشام نشرهـــا العطرُ[2]
وربّ شادٍ والفدم[3] قد هجعا بها مع الأولياء قد جَمَعا - شملا
يـــا صـــاح شرّد بشُربهـــا وَسَني

= القهوة المتخذة من البن المجلوب من اليمن، وكان أصل اتخاذه لها أنه مر في سياحته بشجر البن فاقتات من ثمرة حين رآه متروكاً مع كثرته، فوجد فيه تجفيفاً للدماغ واجتلاباً للسهر، وتنشيطاً للعبادة، فاتخذه قوتاً وطعاماً وشراباً وأرشد أتباعه إلى ذلك، ثم انتشرت القهوة في اليمن ثم في بلاد الحجاز ثم في الشام ومصر ثم سائر البلاد. ويعد العيدروس من سادات الأولياء وأئمة العارفين، وقد ألف كتاباً في علم المتصوفة سماه الحزب اللطيف في علم التحكيم الشريف، وألف فيه محمد بن عمر بحرق كتابه: مواهب القدوس في مناقب ابن العيدروس. توفى سنة ٩٠٩ هـ، وقيل ٩١٤.

(١) الغمر: الذي لم يجرب الأمور، وقد اختلف العلماء في أوائل القرن العاشر في القهوة حتى ذهب إلى تحريمها جماعة، والأكثرون ذهبوا إلى أنها مباحة.

(٢) ضاع: انتشر.

(٣) الفدم: الغليظ الأحمق.

من كفّ ظبيٍ ذي منظرٍ حَسَن
وقُل لأهل الحجاز واليمن[1]

من لام في شُربها دَعاهُ دَعَا — فإنه بالكمال ما اجتمعا - أصْلا
لواعجُ شوق في الحشا تتضرّم — ووجدٌ بأحناء الضّلوع مُخيّمُ
أأحبابُنا والحب لا يتصرّم — تعلمتُ خطّ الرمل لما هجرتُم
لعلّي أرى فيه دليلاً على الوَصْلِ

أنقطُ مذ لاحتْ من الخالِ نُقطةْ — على الشرطِ والترتيبِ والعقلُ عقلهْ
وفي التَّخْت قد قامتْ بنصرِيَ نُصْرَهْ — فصادفني فيه بياضٌ حمرهْ
رأيتُها في وجنةٍ سَلَبا عقلي

كواكبُ سَعدٍ نُورها قد تألّقا — وراياتُ أفراح علت كُثُبَ النَّقا
وغُصن المُنى في روضة العزّ أورقا — وقالوا طريقٌ قلتُ يا ربِ للّقا
وقالوا اجتماعٌ قلت يا رب للشَّمْل

ضميرُ رَجَائي بالسعادة قد حُبِي — وإشكال إشكالي نأي عن تقرُّبي
فلا غرو أن وافقتُ ما خَطَّه النبي[2] — وقالوا نَفَي الحَدَّ قلتُ معذبي
وقالوا نكيسٌ قلت ماذاك من شكلي

فؤادٌ بغير الشوق ليس بعامر — عن الحبِّ يَعْدُو كلَّ ناهٍ وآمرِ
لقطع الفيافي يمتطي متنَ ضامر — لقد صرتُ فيكم مثل مجنون عامر
فلا تعجبوا أني اخط على الرمل[3]

---

(١) كررت كلمة أهل في ب.

(٢) النبي: أي المتنبي الذي يتنبأ له بحظه.

(٣) هذه العبارة فيها تورية، فيخط على الرمل يحتمل أن يكون المقصود بها أنه يفعل كما كان يفعل قيس مجنون بني عامر حينا كان يخط على الرمل وهو تائه عما حوله بفكرة الغرام =

القصيدة الكافية فيما جرى بين الغزي والايجي

وبما استمليته بدمشق المحروسة هذه القصيدة الكافية ولها خبر ذكرته في ترجمته، وقد كان كتب بها إلى العلامة المحقق، والفهامة المدقق، الشيخ علاء الدين بن عماد الدين[1] بطلب منه، لِقِصّة جَرَتْ بين شيخنا العلامة بدر الدين الغزي[2] والشيخ محمد الإيجي[3] وهي مشهورة:

المسيطرة على نفسه، وقد أورد ذلك أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني، ويخط على الرمل يحتمل أن الشاعر يفعل ذلك حقيقة ليعرف ما يؤول إليه الأمر مع محبوبه وهو ضرب من استكناه الغيب للتعلل أو التسرية عن النفس، وعلى كل فالجملة فيها تورية كما لا يخفى.

(١) هو علاء الدين علي بن اسماعيل بن موسى بن علي بن حسن بن محمد الدمشقي، الشافعي، الشهير بابن عماد الدين وبابن الوس، عالم، أديب ولد بالقاهرة عام ٩١١، وتلقى العلم على شيوخ العصر، ثم هاجر إلى استامبول فعجب الناس من فطانته وفضيلته مع قصر قامته وصغر جثته، ثم أعطى تدريس دار الحديث الأشرفية بدمشق، فانتفع به كثير من الطلبة والعلماء، من آثاره: حواش على شرح الألفية لابن مالك، توفى بدمشق سنة ٩٧١ هـ. انظر شذرات الذهب ٣٦٣/٨.

(٢) هو بدر الدين محمد بن محمد بن محمد الغزي العامري الدمشقي، أبو البركات، بدر الدين بن رضي الدين فقيه شافعي، عالم بالأصول والتفسير والحديث، ولد بدمشق سنة ٩٠٤ هـ واعتنى والده بتخريجه ورحل به إلى مراكز العلم فتلقى تعليماً جيداً على سادة علماء العصر، ودرس وأفتى وهو في السابعة عشرة، ثم انقطع عن الخروج ولزم بيته في أواسط عمره، وألف مائة وبضعة عشر كتاباً، وهو أبو نجم الدين الغزي المؤرخ صاحب الكواكب السائرة، وكان الرجل كريماً محسناً جعل لتلاميذه رواتب وأكسية وعطايا، توفى عام ٩٨٤ هـ.

انظر شذرات الذهب ٤٠٣/٨، وريحانة الألبا ٧٢/١.

(٣) هو شمس الدين أبو النعمان محمد بن كريم الدين محمد الايجي (نسبة إلى بحر إيجه) العجمي الشافعي الصالحي نزيل صالحية دمشق، قدمها وهو شاب سنة ٩٣٠ هـ وصحب فيها ولي الله سيدي محمد بن عراق سنين كثيرة وعالج معه كثيراً من المجاهدات، واشتغل بالعلم والتدريس، وكان يتردد إلى الحكام وغيرهم لقضاء حوائج الناس، توفى عام ٩٨٥ هـ ودفن بمنزله بسفح قاسيون.

ولمـا أبـى البـدرُ إلاّ الخُسُو فَ ومدّ على الأفـقِ أحْلاكَـهْ

وبالصّالحيّـةِ من سَفْحهـا إلى الشّرّ واعـد أتْراكَـهْ

وحـاولَ سفـكَ دمٍ سائـلٍ ولم يـكُ من قبـل سفّاكَـهْ

سألتُ أخَا السّفح عن حالـه سُؤالاً يصحّـح إدراكَـهْ

فقلـت على م هجـاك البُدَيْـ ـرُ فأذعنْـتَ للـذّم حاشاكَـهْ

وحـاكَ قميصاً من الهجو فيـ ـكَ وفَصّل في النّظم ما حاكَهْ

ولاك لُحُومـاً حرامـاً ولم يُطـقْ يزدردْ بعضَ ما لاكَهْ

وسائرُ مـا كنـت أسلفتُـه من الوُدّ بالصـدٌ جازاكَـهْ

ولم يكن الشيـخُ مستحضراً جوابـاً فأطبـق أحْناكَـه

وأمسك عن بعـض مـا عنـده علـيّ فصوّبـت إمساكَـهْ

فقـام فقـيرٌ لـه كـان في محبّتـه بـاع أملاكَـهْ

فقـال: سألـتُ أبـا مُرّةٍ فأخـبرني أنـه شاكَـهْ(١)

فقلـتُ بمـاذا؟ فقـال الفقيـ ـرُ بمـا قـد تضمّن إهلاكَـه

فقلـتُ فما ذاك قُـلْ لي فما عَهِدتُـك في النقـل أفّاكَـه(٢)

= انظر شذرات الذهب ٨/ ٤٠٨

أما القصة التي يذكر المؤلف أنها وقعت بين بدر الدين الغزي والإيجي والتي صاغها الشيخ أبو الفتح بن عبد السلام التونسي شعراً، فهي كما يذكرها ابن العماد في الشذرات من أن الشيخ محمد الإيجي كان قد قبل أن يتولى تدريس المدرسة الشامية التي كان يتولاها الغزي - ويبدو أنه عزل عنها - ولما كانت المودة الوثيقة تربط بين الرجلين لهذا فقد كان الأولى بالإيجي أن يرفض الولاية على هذه المدرسة مراعاة لجانب صديقه، لكنه لم يفعل وكان ذلك مما أخذه عليه، وأدى إلى القطيعة بينهما، وإلى هجاء الغزي للإيجي كما يتضح من القصيدة التي يسوقها المؤلف.

(١) شاكه: آذاه، يقال: لا تشوكك مني شوكة أي لا يلحقك مني أذى.

(٢) أفاكة: أي كثير الإفك.

فقال لقد شاكه بالعصا | فقلت عصا؟ قال ذَيّاكَهْ
فذا ذنبه يا أخي عنده | وأحسِبُ إبليسُ أنسَاكَهْ
فحينئذٍ أمّه بالهجا | مديراً على السفح أفلاكَه
فليس يُلام وربّ الأنا | م إذا هو أصبح فتّاكَهْ
وأثبت بين الورى رِفْضَه[1] | ولو شاء أثبت إشراكَهْ
ولو أُعطي الشيخ غُرماً كما[2] | إلَهُ البرية أعطاكَه
لهزّ على البعد عُكّازه | وهَيّأ للطّعن مِسْواكَهْ
وقام بمسجده صارخاً | وشبّك بالكفّ شُبّاكَهْ
وأرسل خلف دراويشه | وحيٌّ لدى السفح حيّاكَهْ
فهذا أتاه بمطوائِه | وهذا يُحرك مِحْرَاكَه[3]
وقال لأعجامه جرّدوا | سيوفاً تُمزق أوراكَهْ
وها قد أبحتُ لكم قتْلَه | وأبرأتُ ذمّة من نَاكَهْ
فلا برِح الشيخُ في نَهْرِه | يصيدُ متى شاء أسْماكَهْ[4]

وهذه القصيدة خلاف ما كانت عليه وقت نظمها فلمّا استمليتها منه غيّرها إلى ما ترى وخالف في كثير من أبياتها رحمه الله.

---

(١) الرِّفض (بكسر الراء): معتقد الرافضة، وهم فرقة من الشيعة يبيحون ذم الصحابة، وقد رفضوا زيد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم لأنه نهاهم عن ذلك.

(٢) يعني بالشيخ هنا الشيخ الايجي، والمقصود أنه لو أتيح له الرد على الغزي لفعل كذا وكذا.

(٣) المحراك: أداة تحرك بها النار.

(٤) هذا البيت كناية عن أن الشيخ استولى على المنصب المتنازع عليه، وأصبح يجني من ثماره متى شاء.

أبياته في تعطف الغزّي

ولمّا توفى العلامة الشيخ علاء الدين المذكور كتب مولانا الشيخ أبو الفتح إلى مولانا الشيخ بدر الدين الغزّي بهذه الأبيات متعطفاً، ولخاطره ملاطفاً، مشيراً إلى الماء الذي كان أمسكه عن الجَرَيان إلى داره، وقد ذكرنا القصة في رسالة أخباره[1]:

قطعُوا السبيــــلَ فعُوقبوا	قَطْعـــاً بمتَّصِـــلِ الظّما
وغنا السُّرور لُهم به	فَرَحـــاً فكـــان المأتما
وتشتتوا بيـــد التفرُّ	ق مُزْعَجِـين عن الحمــى
قامــتْ صوائــح بــل نوا	ئِــحِ حول سافِرة الدّمــا
مـــا ضرَّهم لو أنّهم	سَلَكوا الطريــق الأقْومــا
لكنهم حسبوا القَبَـــا	حَـــة والوَقاحـــة مَغْنمـا
وتعرَّضوا لمسَاءة الـ	بـــدر المنـــير توهُّما
وتناولُوا مِنْ مـــاء سَا	حَتِيـــه الشريفـــةِ أسهُما
سُرُّوا بذلـــك بُرهـــةً	حـــتى إذا فرحوا بمـــا
فــــالله يَغْفر للجميـ	ـع تَفَضُّـــلا وتكرُّمـــا

قلــت - والمتكــلم داخــل في الدعوة - سامحهم الله تعـــالى

---

(١) القصة كما ساقها الغزي في الكواكب السائرة ١٨٣/٣ هي أن الشيخ علاء الدين كان تلميذاً للشيخ بدر الدين الغزي وأن قطيعة حدثت بينهما أدت فيما بعد إلى أن يقطع علاء الدين الماء عن الشيخ، وكان يمر بداره، وقد طلب منه أصحابه أن يتصدوا له ولكنه رفض فمات العمادي بعد أقل من سنة وعادت المياه إلى بيت الشيخ مرة أخرى.

طردية القاضي فخر الدين بن مكانِس

وبما استمليته منه وهو آخر ما أملاه عليّ: طَرَديّة[1] القاضي فخر الدين بن مكانس أديب عصره، وفاضل مصره، مُهذِّباً لها، ناقلاً ما ذكر فيها من المنتزهات المصرية إلى الشامية، وذكر لي أن القاضي معروف كان الحامل له على ذلك، تجاوز الله عن سيئاتها، آمين وهي هذه:

أنعِم صباحاً في ظلال السَّعْدِ   واركبْ إلى الهَزْل جَواد الجِدِّ
ولا تبغْ عاجِلَه بنَقْد   وخلِّ نعت سُنْقُرٍ وفهد
واستجلب الأُنسَ بطرد الطَّرْد

خُذْ عن خَلاعتي[2] الكلامَ المُعْجِبَا   فلم أزلْ عُذَيْقَها المُرَجَّبا[3]
خَلِّ الطبيبَ واسألِ المُجَرِّبا   إن الخلاعاتِ طرازُ الأُدَبا
وإنني فيها نسيجُ وحْدي

---

(١) الطردية: القصيدة التي تقال في يوم الطرد، والطرد بفتح الطاء والراء: معالجة الصيد لمحاولة صيده.

(٢) هو عبد الرحمن بن عبد الرزاق بن ابراهيم، فخر الدين أبو الفرج المعروف بابن مكانس القبطي، وزير مصري، حنفي المذهب أصله من القبط، وُلِّي نظارة الدولة بمصر ثم تولى وزارة دمشق، وعزله السلطان الظاهر برقوق واستدعاه منها فتوفى عام ٧٩٤ قبل وصوله إلى القاهرة ودفن بها، وكان شاعراً رقيقاً له ديوان شعر، وديوان إنشاء إلى عدة مؤلفات أخرى.

انظر الدرر الكامنة ٢/٣٣٠، حسن المحاضرة ١/٣٣٠.

الخلاعة: اطراح القيود واتباع الهوى.

(٣) عذيقها المرجبا: العذيق تصغير العذق بفتح العين وهو حمل النخلة من التمر، وترجيبه يكون بلفه بالسعف لكي يقوى ويصان ولا تلعب به الريح فتطيره، والعبارة تضرب مثلاً في ذي الرأي الصائب الذي لا تنال منه الأحداث.

وفي ب وس: عذيقها الجربا وهي تحريف.

يا ساكن السّفح بأعلى الوادي　　من جِلّقٍ نادِ بذاك النادي
قد وُرد الوِردُ وكاد الكادي[1]　　وبان بانُ الغُصُنِ الميّادِ
أفديه قادماً أمام الورْدْ

باكر إلى الرَّبوةِ والرَّوْضِ التي　　تُخال في أفنانها كالجنةِ[2]
ولا تَمِلْ من وجهها[3] لوجهةِ　　صِفْ حُسنها لمائها والخُضرةِ
وقف بواديها ولا تَعَدِّي

واجْلس من الربوة في أعلاها[4]　　وصيِّر الملثم عن يمناها
والسبعة الأنهر ما أحلاها　　تجلو الصَّدى مُرجَّعاً صداها
بلغتُ من رضاعها أشدي

أفدي رُبَا ربوتها بنفسي　　وما حوْت رياضُها من غَرَسْ
مرتعُ غُزْلانِي وروض أنسي　　شَذَاهُ كالعروس لَيْلَ العُرُسْ
فلا يُقاسُ[5] طيبُه بنِدِّ

(١) الكادي: الماء البطيء الجريان، وكاد بمعنى قرب ودنا وهي هنا تامة لا خبر لها، أو ناقصة ويكون خبرها محذوفاً بمعنى كان أن يورد أو نحو ذلك.

(٢) الروض: جمع روضة، ولذلك جاز وصفها بالمفرد فقال: الروض التي، لأنه جمع ما لا يعقل، وفي س: تختال بدل تخال.

(٣) في س: عن وجهها.

(٤) الربوة: موضع في دمشق في لحف (أصل) جبل على فرسخ منها، كان يقال ليس في الدنيا أنزه منه لأنه في لحف الجبل وتحته سواء نهر بردى، وهو مبني على نهر ثروى وفي رأسه نهر يزيد بصب منه ماء إلى مكان سقايته وإلى بركة، وثمة مسجد عال جداً قرب ثروى، في ناحية منه كهف يزعمون أن المسيح عليه السلام ولد فيه وأنه هو الوارد فيه القرآن، انظر معجم البلدان ٢/٧٥٢.

وفي س: التخوت بدل الربوة.

(٥) في س: فلا يقاسي.

بهـا الشقيـقُ جرَّقـاني بُردِهْ وخالُــه الأسودُ فوق خـدِّهْ
والطـلُّ يحكي الدُّر فوق وردهْ والزَّنبَـقُ الزاهي[1] زهـا بقدّهْ
لـذاك تنقـضُّ نجومُ الوَرد

لم أنسَ بَرْزَتي لأرض بَرْزَهْ[2] في فِتْيَــةٍ أفاضــلٍ أعِزَّه
بُغْيَتُنـا رشفُ مُدامــةٍ مُزَّهْ لا صيــدُ كُركيّ ولا إوزّه
وخفــقُ مِزهر ولعْــبُ نَرْدِ

أوتارُنـا لرمينـا يـا صـاحِ أوتـار عيـدان الغِنَـا الفِصَاحِ
والقوسُ قوسُ حاجـبِ المِلاح والبُنْـدُقُ المِسْكِي من التُّفـاح
مذاهــبٌ أُلْهِمْتُ[3] فيهـا رُشْدي

أجْلس بـين الورد والشَّقِيـق عــلى بِـاط الزَّهَرِ الأنيــق
في فتيــةٍ يُسْقَوْن من رحيــق ختامُــه مسك وفي التحقيــق
ليس سوى نقطــةِ خــال الخَـدّ

فليس من ترجوه للفــــلاح إلاّ فتًـى عـاصٍ على النُّصّاحِ
لم يَخْـلُ وقتاً سَمْعُهُ من لاَحِ[4] ولم يعطّــل راحــةً من راحِ
إن عُـدِم الصَّافي يكون دُرْدِي[5]

---

(١) في س: الزاكي.

(٢) برزة: قرية من قرى غوطة دمشق، انظر معجم البلدان.

(٣) في ب: الهمة.

(٤) اللاحي: اللائم.

(٥) الدردي بضم الدال: ما رسب أسفل العسل والزيت ونحوها من كل شيء مائع كالأشربة والأدهان، والدردي أيضاً: الخميرة تترك على العصير ليتخمر، وفي حديث الإمام الباقر: «أتجعلون في النبيذ الدردي؟ قيل: وما الدردي؟ قال: الروبة» أي الخميرة. أقول وهو غش، والشاعر هنا لا يبالي ما يواتيه من أنواع الشراب فكله سواء ما كان عالي القيمة أو دنيئها.

أَسْرحُ في المرجين تحت الشَّفقِ والنهر يمشي والنجومُ ترتقِي
كم لي من قَصْرٍ بها وجَوْسَقِ[1] أبيض سامٍ قدرُه كالأبلق[2]
مجموع حسنٍ يَزْدهي بفرد

والشَّرَفَان عُقْلَةُ المُجتازِ هُما جناحان لصدر البَاز
والنهر خَطٌّ لهما مُوازي يذكرني منازل المنازي
حيث الحصى ظُنَّ لآلِيءَ عِقْدِ

كم غادةٍ فيها بعقلي وَلَّعَتْ من بدويَّاتِ الفلاةِ أبدعت
سافرة بالحسن قد تبرقعتْ لم أنسَها وقولها إذ ودَّعت
كيف تكونُ بَعْدَنا يا بُعدي

فقلتُ قبل البين كَبِدِي انفطرتْ وعَبْرتي منها البرايا اعتبرتْ
فانسكبتْ دموعُها وانحدرت فخلتُهن لؤلؤاتٍ نُثرتْ
أو جُلَّنَارٍ أو نَدىً في وَرْدِ

تقولُ لَحْظي من بني سِنان يُنْبيك عن مقاتلِ الفُرسانِ
فَالْهُ به عن موقفِ الطِّعان وإن ذكرتَ الخيلَ في الميدانِ
فاشربْ كُميْتاً واعْلُ فوق نَهْدِ[3]

مِنْ قَدِّهَا وريقها الشَّمُولِ أهِيم بالعَسَّالِ والمَعْسُول

---

(١) الجوسق: الحصن.

(٢) الأبلق: حصن السموأل بن عادياء، ويسمى الأبلق الفرد، وقد سبق الحديث عنه.

(٣) الكميت: الخمر سميت بذلك لما في لونها من سواد وحمرة، كذلك يسمى الفرس بالكميت إذا كان له هذا اللون، والنهد: الثدي، ويطلق أيضاً على الفرس القوي الضخم.

والشاعر يستعمل هنا ألفاظاً تحتمل معنيين قريب وبعيد ويكون المقصود المعنى المناسب للمقام واللذين يعيشان فيه، لا المعنى الآخر البعيد، وهذا الأسلوب يسمى التورية.

وَلَحْظِهـا الفَتّـاكِ في الذُّبول   واحَرَبـاً من سيفـه المَسْلُول
جـاوز في قَتْلِيَ كـلَّ حَـدّ
وشادنٍ كالسَّمْهريِّ تُرْكي   عَذَّبَـني مَيّـاً بغـير شَكّ
يَعْطُو أريجـاً كغزال المِسك   آس عذاريـه[1] أباد نُسْكي
وَجُلَّنَـارُ الخَدِّجُـلُّ قَصْـدي
جبينُـه أزهرُ كالهـلال   وفَرْقُـه فيـه الخِلافُ العالي
أَضَوْءُ برقٍ أم سَنَـا لآلي   ولحظُـهُ مَظِنَّـة الإِشْكـال
هـل هو تُرْكيٌّ وإلّا هِنـدي
أسْمَرُ إنْ عَايَن غُصْن البـانِ   قـال استقمْ فأنـت ذو ألوانِ
يَثنيـك في الدَّوح النسيمُ الوَانِي   وليس لي في قامـتي من ثَانِي
فـلا تقايسني فلست قَـدّي
فيـا رشأً مِبْسمـه إغريـضُ   وبرقُ ثغره لـه وميـضُ
ويـا صحيحـاً لَحْظُـهُ مريـضُ   من فتـك جفنيـك أنا المهيضُ
قصَّرْت جفـني وأطلـتَ سُهـدي
خليعُ عشقي في الهوى جدَّدتَهُ   بسهم لحـظٍ راشِق قد صِدْتَـهُ
وخَـدِّيَ المصفرُّ قـد خدَّدتَـه   بسائـل الدمـع الـذي رَدَّدْتَـهُ
نهراً جرى أخْـدُودُه بخـدّي
أُمْلِي عليـك يـا مُنَـى آمالي   قولَ الشَّجِيِّ لا أمـالي القالي[2]

---

(١) الآس: شجر دائم الخضرة أبيض الزهر أو ورديه، وثماره لبية سود تؤكل غضة، والعذار جانب اللحية.

(٢) الشجي: من أهاجت الذكرى حزنه وتألمه، وكلمة القالي فيها تورية، فالقالي تطلق على =

بأنـــي أصبحـــتُ كالخِـلال والروحُ في جسمِي النحيلِ البالي
مثـــلُ الأسير مُوثقـــاً بالقِـــدِّ
فــإن تصلــني فأنــا السعيــدُ أو مُــتُّ فيــك إنــني شهيــدُ
أو يطلبوا ثــأري ولم يحيــدوا قــل أنـــا حرٌّ بالــغٌ رشيــدُ
وابنُ مَكَانِسَ القتيـــلُ عَبْـــدي
والحرُّ لا يقتـــــلُ بالمملوك وأنـــت في حــلٍّ بــلا شكوك
يـــا قاتــلي من دَمِيَ المسفوكِ ومن تـــلاف جسمِيَ المَنْهُوكِ
فـلا تخـفْ من أن تَـدِي وتَفـدي
وعــاذلٍ قــد جــاءني مُفنّــداً بلّغــني رسالــةً من العــدى[1]
يبغي بهـــا للعاشقـــين الرَّشَدا ولستُ مَن يسمــع عَـذْلاً أبـداً
فقلـــت مَــهْ واقنــع بهـذا الرَّدّ
إني بعثـــتُ للعـــدى رسُولي يخبرهم أن اللقـــاء[2] سُولي
مـا أنـت والتفنيـدُ يا عذولي فقــال قــد تُبْـتُ عن الفُضول
والحمـــــد لله وليّ الحمــــد

ولنكتف بهذا القدر من إيراد درر فرائده، وغُرر فوائده، فليس الرِّيُ عن النشاف[3]. ومن أحب الاطلاع على لطائف أخباره، وظرائف أسماره، فعليه برسالتنا الموسومة، بهدايا الكرام، في أخبار محمد أبي الفتح

= الهاجر السالي عن حبه، والقالي هو الإمام أبو علي القالي العالم العربي اللغوي الكبير صاحب كتاب الأمالي، وليس هو المقصود هنا بالطبع، بل المقصود المعنى الأول.

(١) في ب: عن العدي.

(٢) في ب: أن العذار.

(٣) النشاف: الرغوة التي تعلو اللبن.

بن عبد السلام وتوفي بدمشق الشام، سقى الله مثواه صوب الغمام[1] عام خمس وسبعين وتسعمائة. ودفن بباب الفراديس ظاهر دمشق المحروسة، ورثاه أديب دمشق محمد الرومي[2] بقوله[3]:

مُذ عالمُ الدنيا قضى نحبَهُ ... منتَقِــــلا نحو جوار الإلــــه
فأغلــقَ الفضــلُ بـــه بابَـــهُ ... مؤرّخاً مات أبو الفتح آه[4]

* * *

وأنشدني لنفسه، قبل حلول رمسه سنة ٩٧٥[5]:

مرحبــاً بالحِمام ساعــةَ يطْرَا ... ولو ابتزَّ من مدى العُمر شِطْرا
حبّـذا الارتحالُ عن[6] دار سُوءٍ ... نحنُ فيها في قبضة الأسر أسرى
وإذا ما رحلتُ يا صاحِ عنها ... لا سقى اللهُ الأرض بَعْدِيَ قَطْرا[7]

---

(١) هذه الجملة لم ترد في ب.

(٢) هو محمد بن أحمد بن عبد الله المعروف بماميه أو ماماي الرومي، قدم دمشق صغيراً والتحق بالجندية، ولكنه كان يميل إلى الأدب ونظم الشعر، فترك الجندية وتفرغ لما يهواه، وقد صحب الشيخ أبا الفتح بن عبد السلام وعليه تخرج بالأدب، وكان إليه المنتهى في الزجل والموال والموشحات، إلى جانب براعة لا نظير لها في التأريخ بالشعر، وقد جمع لنفسه ديواناً ما زال مخطوطاً حتى اليوم.

توفي في ذي الحجة عام ٩٨٧ هـ. انظر شذرات الذهب ٤١٣/٨، ٤١٤.

(٣) البيتان التاليان في الكواكب السائرة ٢٥/٣، ووردا دون نسبة في آخر ترجمة ابن عبد السلام في شذرات الذهب ٣٨٠/٨.

(٤) قوله: مات أبو الفتح آه تساوي حروفها على حساب الجمل ٩٧٥ وهو تاريخ وفاة الشيخ أبي الفتح بن عبد السلام رحمه الله.

(٥) الأبيات التالية في تراجم الأعيان ٨٨/٢.

(٦) في ب: من

(٧) في ب: لا سقى الله بعدي الأرض قطراً.

ومما كتبه إلى الشيخ موسى السيوري

ومن ذلك ما كتبت به من دمشق الشام إلى الحجاز لأعز إخوان الصَّفا، وخِلان الوفا، الشيخ الفاضل، والسالك الكامل، شرف الدين موسى بن الشيخ العارف شهاب الدين السيوري الحساني، وهو مجاور مكـة[1] المشرفة عام سبع وسبعين وتسعمائة:

سَلُوا الركبَ عن صَبٍّ بأعتابكم مُلْقَى ... وعن مدمعٍ فيكم مدى الدهر لا يَرْقَا

ولا تسألوا غـيرَ المطايا فإنّها ... تُخبّركم عن شرح حالي وما ألقى

ألا فاسألوا عن مُغرم كيـف حَالُه ... حليفُ ضَنًى يشكو الصبابة والعِشْقا

يحنُّ إليـكم كلما هَبَّـت الصَّبَا ... سُحيراً ويصبُو كلما صدحتْ وُرقا

ويطربُ من ذكرى حبيب ومنزلٍ ... وعيش تقضَّى معْكُم يانعاً طَلْقا[2]

مُغَنًّى بكم لو رام إظهار بعضَ ما ... يُجِنُّ من الأشواق لم يستطعْ نُطقا

إذا ما جرى والريحَ في حَلبة الضنـى ... لفرطِ نُحول مسَّه أحرز السَّبْقـا

يـذوبُ جوًى حتى إذا عنّ ذكركم ... جرى دمعُه في خدِّه يُخجل الوُرْقا

أيـا نازلي سفح المُحَصَّب من مِنًى ... ويا زائري البيت الحرام ألاَرِفقا

فـي منـكم[3] داءٌ بقلبي أجُنُّه ... وسَوْرةُ أشجـانٍ معي أبداً تَبْقى

أأحبابُنـا إن شَتَّتَتْنا يد النوى ... وأبدتْ صروفُ الدهر فُرقتنا حَقّـا

فإنّي عـلى ما تعهدون وحَقِّكُم ... ولم أبـغ يومـاً من ولائكُمُ عِتقا

---

(١) في ب: مجاور مكة.

(٢) في ب: وعيش تقضي منكم.

(٣) في ب: فلي منكم.

سقى الله أكنافَ الحجاز وأهلَه وحَيًّا الحَيَا عنّي سُوَيقةَ والفَلْقا[1]
وخصّ كرام الناس في كلّ بلدة لقد صرتُ في حكم الغرام لَهُم رِقّا
إلَـهَ الورى إني دعوتُك ضارعاً بخيرِ الورى المختارِ أفْصَحُهُم نُطقا
تُجَمِّعُنَـا عما قريـبٍ فإنّنـا أضَرَّ بنا طولُ البعاد وما نَلْقى
عليـكم سلام الله ما هام عاشقٌ وشام معنّى الخوف من نحوكم بَرْقا

وإلى ابن منصور الشافعي

ومن ذلك ما كتبت به إلى الشيخ الفاضل غلاء الملة والدين المشهور نسبه العالي بابن منصور الشافعي، علّامة ثغر طرابلس الشام وقد دعاني لرؤية البلد المذكور، داعية غرام فأشرت في ذلك إلى ما ذكره الكشّاف في سورة القصص في تفسير قوله تعالى ﴿ما علمتُ لكم من إلَهٍ غيري﴾[2] أراد أنّ نفي العلم يستلزم نفي المعلوم، فما حار جواباً، ولا نطق صوابا، وذلك عام ثمانين وتسعمائة:

---

(١) سويقة: اسم يطلق على عدة مواضع ببلاد العرب، فهناك سويقة: موضع قرب المدينة كان يسكنه آل علي رضي الله عنه ومن جملة صدقاته.
وسويقة هضبة طويلة بالحمى حمى ضربة ببطن الريان في بلاد بني جعفر بنجد.
وسويقة جبل بين ينبع والمدينة. الخ انظر معجم البلدان ١٩٩/٣.
والفَلَقا (بفتح الفاء واللام) قرية من قرى عثر من ناحية اليمن، (وبكسر الفاء واسكان اللام) من نواحي اليمامة، معجم البلدان ٩١٥/٣.

(٢) سورة القصص، الآية ٣٧، والسؤال الذي وجهه المؤلف إلى ابن منصور الشافعي هو عن تفسير الزمخشري للآية الكريمة من قوله: إن نفي العلم يستلزم نفي المعلوم، وقد رد عليه بأن نفي العلم لا يستلزم نفي المعلوم إلا بالنسبة للخالق جل وعلا، أما بالنسبة للمخلوقين فقول أحدهم مثلاً: لا أعلم أحداً سبقني إلى هذا، لا يستلزم ألا يكون أحد سبقه إلى هذا فعلاً بل يجوز أن يكون مسبوقاً ولكنه علمه لم يصل إليه، انظر تفسير الزمخشري ٤٧٦/٢.

سماع يا أيُّ هذا الفاضل[1] النَّطِسُ ... ومن تسامتْ بُعلياه طرابلسُ

ومن غدا في بنيها الزُّهر منذ سما ... سماء فضلٍ وَهُمْ من حوله حَرَسُ

ومن هو الغيثُ في يوم النوال بل الـ ... ـبَحْر الزُّلال بها في الجود ينبجسُ

ومن إذا خفقت رايات فكرته في ... البحث شاهدتَ ليث الغاب يفترسُ

ومن به جاءت الأيامُ طَودَ عُلاً ... رِعَانُهُ[2] من خطوب الدهر مُخْتَرَسُ

ذا عزمة كغرار السيف ماضيه ... وهمة منزل الجوزاء تكتنس

أغرَّ طلْق المُحيَّا زانه خُلُق ... حوى اعتدالاً فلا لينٌ ولا شرسُ

مهذباً لو دعي قُسَّ فصاحتَه ... عراه عند تناهي نطقه خرسُ

من معشر[3] كسيوف الهند ماضيةٍ ... نمتهُمْ للمعالي سادةٌ نُطُسُ

من كل أزهر حرّ الوجه غُرَّتُه ... كأنها في دياجي ظلمةٍ قَبَسُ

يَهْمِي سحابُ النَّدى من صوب راحته ... كما هَميَ واكفُ الأنداء يرتجسُ

قوم لهمْ في سماء المجد منزلةٌ ... زُهر الكواكب منها النور تقتبسُ

ومن هو الحَكَمُ التُّرْضَى[4] حُكُومتُه ... ومن يدين بعالي فضله الأُنُسُ

وافتْك كالروض يُزَهي غِبَّ ساريةٍ ... أو غادةٍ يَزْدهي أعطافَها المَيَسُ

في طرفها صَيَدٌ في جِيدها جَيَدٌ ... في قدِّها مَيَدٌ في ثغرها لَعَسُ[5]

---

(١) في ب: الفضل.

(٢) الرعان: أنف الجبل الذاهب طولاً.

(٣) في ب: في معشر بدل من معشر.

(٤) الألف واللام في كلمة الترضى اسم موصول بمعنى الذي أي الذي ترضي حكومته، وقد ورد ذلك في شعر للفرزدق في قوله:

ما أنت بالحكم الترضى حكومته ... ولا الأصيل ولا ذو الرأي والنسب

(٥) الصيد بفتح الصاد والياء: الكبر، والجيد طول العنق وحسنه، والميد: التثني والتبختر، واللعس: سواد محبب في الشفة.

من نـازح الدار قد شطَّت بجيرته — نوًى شطونٌ ودهرٌ جائر تَعِسُ
لم يبـق منه على نأي الديار سوى — رَسْمٍ متى صَحّ بالتَّذكارِ ينتكسُ
يبكي المنـازلَ أقْوتْ من أحِبَّته — بمَدْمـع في نواحي خـده يَطِسُ
وافتْك من جلَّقَ الفيحاء لابرحـت — عَلَـى مَعَالِمِها الأنواءُ تنبجسُ
تسعـى ميممةً عُلْيـاكَ راجيـةً — جَدْواك فضلاً وجلبَ الوُدِّ تلتمسُ
في طَيِّهـا بعد نشر الوُدّ غامضةٌ — إلاّ على فهمك النقدا[٧] يا ندسُ
مـا جاء في الذكر مما قال في ملأ — من نفي ربٍّ سواه المسرفُ الدَّنِسُ
وفيـه قد قيل نفي العلم كُن فطناً — مستلزمٌ نفي معلوم كذا دَرَسُوا
وكونُـه في بنى ذا النوع تُبْطِله — أدلـةٌ من كـلام القوم تُقْتَبَسُ
إذا فتجويزه في الفرد ممتنـعٌ — فاشرح لنـا كنهه يا أيها النَّطِسُ
أثنـاء مطويـة الكشحين ناظرة — عن طرف أوطف لبَّ المرء تختلسُ
لا زلـتَ عالمَ هذا القُطْر سَيِّدَه — تحيا بصَوْبِ حَيَاكَ الأربعُ الدُّرُسُ
ما ضاع في منتداه الفضلُ منتشراً — مـا بين أرجائه والضِّدُّ منتكسُ
وغرّدتْ بأعـالي روضـةٍ سَحَراً — ولاح ورقُ صبـاح وانجلى غَلَسُ

وكتب إليه داود بن عبيد خليفة

ومن ذلك ما كتب به إلى الأخ الفاضل رئيس الأفاضل، داود بن عبيد خليفة نزيل دمشق لما قدم الشام منفصلاً عن بعض مدارس الروم في لفظ مشترك (الغرب)، طالباً مني أن أنسج على منوالها، وأحنو مثالها، وذلك سنة ٩٧٩:

---

(١) في ب: الوقاد.

لقد ضاء وجه الكون وانسلّ غَرْبُهُ ... فلم يدر أيًا شرقه ثَمَّ غربُهُ
وسائلُ وصلٍ منه لما رأى الجَفَا ... بما قد جرى من بُعْده سال غَرْبُهُ
يمرّ عليه الحتفُ في كلّ ساعةٍ ... ولكن بحَجْبِ السُّقم يمنع غربُهُ
تدلّى إليه عندما لاح فقده ... بثغر شنيبٍ قد روى الغُلَّ غربُه
ولولا بروقُ الرَّقْمتين وكاظمٍ ... لظَلَّ بنيه عندما زاد غربُه

فكتبتُ إليه هذه الأبيات العربية التي هي لا شرقيّة ولا غربيّة[١]:

أمن رسمِ دارٍ كاد يُشْجيك غَرْبُهُ (ما لها)[٢] نزحتَ زكيَّ الدمع إذ فاض غربُه عِرْق العين
عفا آيَهُ نُسْجُ الجنوب مع الصَّبا ... وكلُّ هزيمِ الوَدْقِ قد سال غَرْبُه الدلو العظيم[٣]
به النَّوءُ عَفَّى شِطره فكأنه ... هلالٌ خلال الدار يجلُوه غَرْبُه محل غروبه
وقفتُ به صَحْبي أسائِل رسمَهُ ... على مِثْلِها والجَفْنُ يَذْرفُ غربُه دمعه
على طَلَل يحكي رقوماً[٤] برسمه ... بحاجة صبتٍّ طال بالدار غربُه التمادي
أقول وقد أرْسَى الفَنا[٥] بعراصه ... وأنزف أهليه البعادُ وغربُه النوى

---

(١) وردت القصيدة التالية في ريحانة الألبا ٢/٤١٣ - ٤١٥، ويذكر الخفاجي في صفحة ٤٠٩ أن الحريري لو سمع قول شامة الشام (يعني الطالوي) فيما أتى به في الغرب من الجناس التام ما حوقل واسترجع، لأن الحريري ذكر الغرب في عدد من الأبيات في إحدى مقاماته، فأتى الطالوي في قصيدته بما أربى عليه كثيراً. هذا والشرح الذي يرد عقيب كل بيت وارد في نسخة ب فقط، ولم يرد في نسخة المؤلف.

(٢) مالها: تفسير لكلمة الغرب، فالغرب من معاينة كثرة المال، ويقال: أغرب الرجل أي كثر ماله.

(٣) في الريحانة: الشمائل والصبا، وفيها: إذ فاض غربه، وفيها: ذهابه ومجيئه بدل الدلو العظيم.

(٤) في ب: رقوقاً، والرقوم: الآثار، والعلامات.

(٥) في ب: العنا.

سقى ربْعَك المعهودَ ريعانُ عارضٍ   يسحُّ على سُحْم الأثافيّ غربُه   الراوية[1]

وليلٍ كيوم البين مُلْقٍ رواقَه   عليّ وقد جلّى الكواكب غربُه   أول الشيء

أراعي به زُهْرَ النجوم سَوابحاً   ببحر من الظلماء قد جاشَ غَرْبُه   أعالي الماء

يراقب طرفي السائرات كأنما   لطول دوام نيط بالشهب غربُه   مقدم العين

كأنّ جناحي نسره حصّ منهما   قوادم[2] حتى ما يزايل غربُه   التنحي

ذكرت به لقيا الحبيب وبيننا   أهاضيبُ أعلام الحجاز وغربُه   شجر الحجاز

فهاج لي التذكارُ نارَ صبابةٍ   لها الجَفْنُ أضحى يَقْذِفُ الدَّمْعَ غربُه   سيل الدمع

إلى أن نضا كفُّ الصباح حسامه   وأغمِد من سيف المجرّة غربُه   حد السيف

وولّت نجوم الليل صَرعى كأنّما   أُريق عليها من فم الكأس غربُه   الفيضة من الخمر

وأقبل جيشُ الصبح[3] يغمد سيفَه   بِنحْر الدجى والليل يركض غربُه   الفرس الكثير الجري

وزمزمَ فوق الأيكِ قمريُّ بانةٍ   بروضٍ كفاه من ندى السُّحْب غربُه   يوم السقي

فهبّ يدير الراح بدرٌ يزينُه   إذا قام يجلُوها على الشَّرب غربُه   النشاط[4]

من الريم خوطيُّ القوام بَثغره   سلاسلُ راحٍ يبرىء السُّقم غربُه   سيلان الريق[5]

بخدٍّ أسيل يجرح اللبَّ خدُّه   وطرف كحيلٍ ينفثُ السحر غربُه   مؤخر الطرف

يُريك شبيه الدُّر منه منضَّداً   كمنطقِ داود إذا صال غربُه   الحد[6]

---

(١) في الريحانة: درره.

(٢) حص منهما: سقط وتناثر والقوادم: الريشات العشر الكبار في مقدم الجناح، وفي ب: خص منهما... حتى...

(٣) في الريحانة: جيش الليل، وما هنا أصح.

(٤) في الريحانة: ساقه.

(٥) في الريحانة: من الروم، وفيها: سلافة الريق.

(٦) في الريحانة: الزبور.

فتى قد كساه الفضل ثوب مهابةٍ	لها خَصْمه قد نَشَّ[1] بالفم غربُه	الريق
إليك أتَتْ تفلي الفلا بدويَّةٌ	ولم يُنْضِها طولُ المسير وغَرْبُه	البعد

فيا من رقي هام المعالي وفكره

	لدى البحث أمضى من شبا الليث غربُه	[حده][2]
أرق من الصهباء فاعجبِ بَسْبِيها	وأعذبُ من ثغرٍ حوى الشَّهد غَرْبُه	منقطع الريق
إذا ما جرت في حلبة الشعر لم يك	السكميت يدانيها وإن زاد غربُه	حدة الجري
ولو عرضت يوماً لغيلان[3] لم يكن	بأطلال ميّ يغرق الجفن غربُه	انهال الدمع
فدونكها لا زالت تسمو إلى العلا	مدى الدهر ما صب سقي الدار غربه	الفيضة من الدمع
وما غردت ورق الحمائم بالضُّحى	وأشرق وجه الكون وانجاب غربُه	المغرب

مطارحة بينه وبين يوسف العلموي

ومن ذلك ما كتب به إلى الأخ الفاضل الألمعيُّ الكامل المكمل[4]

---

(١٢) في الريحانة: بهائه، ونش: أي جف. وفي ب والريحانة: شن.

(١٣) لم يرد في الريحانة.

(١٤) يعنى بغيلان غيلان بن عقبة العدوي، والملقب بذي الرمة، شاعر أموي، كان شديد القصر يضرب لونه إلى السواد، عشق مية أو مي المنقرية واشتهر بها، وكان يقيم بالبادية ويحضر إلى اليمامة والبصرة كثيراً ليلتقي بزملائه من الشعراء، توفى بأصبهان عام ١٧٧ هـ، وله ديوان شعر طبع عدة طبعات، انظر الموشح ١٧٠ - ١٨٥، الفهرست ١١٧/١.

(١) لم ترد هذه الكلمة في ب.

اللوذعي[1] جمال الدين يوسف العَلْموي[2] مُلغِزاً في ارقم[3]، عام سبع سبعين وتسعمائة[4]:

عذاب المُعَنَّى فيك يحلو ويَعْذُبُ	وقلبي على نار الجحيم يُقَلَّبُ
وكلُّ مغرام فيك[5] بردٌ وشقوةٌ	نعيمٌ ومكروهٌ لذيذٌ وطيِّبُ
وكل عناء فهو للقلب راحةٌ	وكلُّ سِقام فهو بالقرب يَذْهَبُ
فما اخترته للصَبِّ قصدٌ ومنية	ومهما تراه ذاك سُؤْلٌ ومطلبُ
فأنت حياة للفؤاد ومنتهى	إرادة عبد خاضع لك ينسب
يهيمُ بكم وجداً ومن أجل بُعدكم	بأحشائه وَقْدٌ تَلاَهُ تَلهُّبُ
وأدمعه فوق الغمام إذا همتْ	على الخَدِّ كالغُدران إذْ هي تُسْكَبُ
ومن عجبٍ ضِدَّان عندي تَجَمَّعَا	تَلَهُّبُ نارٍ فوقها الدمع صَيِّبُ
عسى رحمة منكم لصبٍّ متيَّمٍ	مُؤَمِّلُه في الدّهر منكم تقرُّبُ
فيا دهر لو جادت عطاياك بالمُنى	كما جاد لِي بالسُّؤْلِ مولًى مهذّب
لصُغْتُ مديحي فيك مثل مديح من	أياديه في الإعطاء بابٌ مجرَّبُ

(١) اللوذعي: الخفيف الذكي الظريف، والحديد الفؤاد والنفس، واللسن الفصيح كأنه يلذع بالنار من ذكائه.

(٢) يوسف بن أحمد العلموي، دمشقي، كثير النظم، أكثر شعره ليس فيه إلا الوزن والقافية، وكان يعرض قصائده على الناس ويطلب تقريظها، ثم يجعلها أحد أصحابه مع التقاريظ كتباً، من ذلك مثلاً قصيدة مدح بها قاضياً يدعى «فيض الله» فسميت مع التقاريظ: «الفوائح المسكية في المدائح الفيضية»، وفيما يلي قصيدة أخرى مسلية من هذا النوع.

انظر الأعلام ٩/٢٨٦ نقلاً عن كتاب لطف السمر للغزي، وانظر خلاصة الأثر ٤/٥٠٠.

(٣) الأرقم: ذكر الحيات أو أخبثها.

(٤) في ب: سنة ٩٧٧.

(٥) في ب: غرام بدل ضرام.

وبخفضُ للرّاجي جناح نجاحه ... ويسمح للّاجي كذا قبله الأبُ
وذاك ابن طَالُو من تطاول في العُلا ... عُلاه وعنه انحطَّ في الأفق كوكبُ
له رتبةٌ في المجد عالٍ سَنامها ... ورتبتُه في العلم للشمس تصحبُ
ففي نُطْقِهِ قُسًّا وسحبان قد حكى ... وفي نظمه من ذا يضاهيه يَتْعَبُ
حَلَى منه للرائين شكلٌ ومنظرٌ ... وألفاظُه أشهى وأحلى وأعذب
وعندي سؤال ليس يدرك كنهه ... سواه وقصدي حَلُّه حيثُ يصعبُ
هُوَ اسْمٌ رُبَاعي ويمنع صرفه ... دواماً وأحياناً يضافُ ويعرب
مسّاه ذو روح عظيم إذا مشى ... على الأرض تخشاه الأنامُ فتهربُ
له هيبةٌ ولت لها الأسدُ خيفةً ... ففي البر موجودٌ وفي البحر فاعجبُوا
فذاك مُضِرٌّ كونه هو قاتل ... وذاك لنفع بعضهم فيه يرغبُ
فأول حرف الحمد أول حرفه ... وآخره بَدْءاً اسم قولي مُرتَّبُ
وقد رقَّ ثانية وثالثُه معاً ... وآخرُهُ مع أولِ ما فيطلبُ
ولي أرقٌ قد صار مع حذفِ آخر ... جليًّا وللأفهام ذلك يقربُ
وذا اسم بقطع الرأس يبدُو لِحاسب ... ورَخِّمْه يبقى اسماً إذا أنت تحسبُ
ومبدأ ثانية فمرّ مصحّفاً ... مع القلب قد وافى وليس يحجّب
وإن شئت قل ما رق بالقلب جمعه ... وكم فيه يأتي للمولّى مذهب
وقل قمرٌ إن شئت مع حذف أوّلِ ... بقلب فيبقى اسماً مع اسم يقلّب
تأمّل معان فيه قد قلت ملغزاً ... وَرُدَّ جواباً أنت لي فيه مطلبُ
فمثلك من نرجوه في حلّ مشكل ... وكم غالب في فنه أنت تغلبُ
ويوسف نجل العلموي بمدحه ... أتاك فكن ممّن له المدح يَجْلَبُ
تمتّع ودم واسلم وعش في مسرةٍ ... مع الأمن مما أنت تخشى وتُرهبُ
بجاهِ رسول الله طه وآله ... وأصحابه ما دام شرق ومغربُ

فكتبت له الجواب عن سؤاله، لا برح الأدب مَقيل ظلاله:

أشمس بَهــاءٍ بالهــلال تَنَقَّــبُ ... أم البـدرُ في لألائه ليس يُحْجبُ

أم الأنجم الزُّهر المنـيرة بالدجى ... جَلَاهـا بكرسيٍّ المجرَّة غيهـبُ

أَعَرْفٌ ذَكِيٌّ من عَرارٍ وفى بِـهِ ... نسيمُ الصَّبا أم مِسْكُ دَارِين يَخْبُبُ

أسلـالُ راحٍ أم سَلَاسِلُ عَسْجَدٍ ... أسِمْــطُ لآلٍ أم جُمانٌ يُثَقَّــبُ

أروضٌ أريـضٌ بالأقاحي منوَّرٌ ... بـه المُزْنُ تَهْمِي والغَمَائِمُ تُسْكَبُ

أم الزَّهْر يَبْدُو من خِلالِ خَمائلٍ ... بها السُّحب أذيالَ المطارفِ تَسْحَبُ

أم الطَّيفُ من أسْماءَ وهو مُحَبَّبٌ ... سَرَى مَوْهِناً والدار تَنْأى وتقربُ[1]

ذكرتُ بـه شَرْخَ التَّصابي وجيرةً ... نَأَوْا والحَشَا من بَيْنِهِم[2] يتلهَّبُ

أقول وقـد عاينتُ شيباً بِمفرقي ... غـداة افترقنـا والمَدَامعُ تُسكبُ

سقى الله ريعانَ الشبيبةِ والهوى ... وجادَ الصَّبَا هامٌ من المزن صيِّبُ

فـكم غادةٍ لي فيه نازعتُها ضُحًى ... حديثَ الهوى كالرَّاحِ بل هو أعـذبُ

رَدَاحٍ تهــادى من شبــاب ونعمــة ... كما يتهادى الروض والروض مُعشب[3]

برهرهـة[4] ترنو بطرفٍ كما رنا ... إلى سربـه وسط الخميلة رَبْرَبُ

من الرُّودِ[5] أما الخَصْرُ منها فمجْـدِبٌ ... نحيل وأمّا الردف منها فمُخْصِبُ

---

(١) الموهن: نحو من نصف الليل أو بعد ساعة منه، وفي المخطوطة ب: تغرب بدل تقرب.

(٢) من بينهم: أي من فراقهم وبعدهم.

(٣) في ب: وراح تهادى... والروض يعشب، والرداح: السمينة الردف والأوراك.

(٤) البرهرهة: السمينة البيضاء.

(٥) الرود: المتمهلة في سيرها.

فلم أنس إذ جاءت تهزّ معاطفاً ... عليها من الديباج وشي مذهّب
تسائِل عن معنى خفيٍّ إذا بدا ... أراني زَفْرات الحسان تُرّحـب
هو اسمٌ رباعي إذا رمت عكسه ... وسهلت منه همزةً حين تَقْلِبُ
بدا إسم لروضٍ[1] بالشآم كجنَّةٍ ... إلى مثله يصبو الفؤاد ويَرْغَبُ
فأوّل حرف منه مَعْ آخرٍ يُرى ... أداة لتعريف بها النطق يعذبُ
وأول حرف منه إن صار ثانياً ... فذاك اسم طير بالرياض يشبِّبُ
وإن أنت لم تعكسه يوماً فإنه ... يلوح لدى الأفهام طوراً ويَعْزُبُ
فثانيه مَعْ تاليه ما دام صبّكم ... عليه مدى الأيام يلهو ويلعب
وثالثُه معْ رابع[2] إذا ما قرنته ... بثانيه يبدو وجه حبّي المحجّب
فما بعده مرأى يروقُ لناظرٍ ... أبعد سليمى في الصبابة مَطْلبُ
تراني وقد أبصرته متهلّلاً ... أغالب فيه الشوقَ والشوقُ أغلبُ
فيا فاضلاً شاد القريضَ بفكره ... له في مجال البحث رأيٌ مصوّبُ
ومن فاق أبناء الزمان ومن غدا ... له همةٌ هام السماكِين تصحَبُ
تأمّل جواباً قد جلا غيهب الدجى ... يُخبِّر عن معنى حَبَابٍ ويُغرِب[3]
وخُذْها كروضٍ جادَهُ سَيل الحيا ... وأضحَتْ أغصَانها الوُرْق تخطُبُ[4]
فلا زلت في أمن وعزٍّ ورفعةٍ ... تجيدُ قوافي الشعر والضد تُغطِبُ
مدى الدهر ما غنت بأيكٍ حمامةٌ ... ودار على أعلى المجرة كوكب

* * *

(١) في ب: روض.
(٢) في ب: مع رابعه.
(٣) الحباب: هو الغاية فيما نريد.
(٤) ساقط من ب.

ومما كتبه إليّ مع ظبي كالرِّيم، مستحثاً بخلاص حقه من غريم.

لمجد ابن طَالُو في الورى غايةٌ قصوى وفي العلم عنه كل مسألة تُروى
لقد فاق في آدابه كلَّ عالم إمامٍ وفي إنعامه أكرم المثوى
وفي فضله الأحكام أمضى إذا قضى من الصارم الهنديِّ فهو كما يُروى
فذي شَامُنَا أضحتْ به وبحكمه تتيهُ على الدُّنْيا برونقه الأضْوى
وإنِّيَ مشغولٌ بتجديدِ محملٍ وحاملها وكلَّته يفعل الدعوى
فيا سيداً أضحى عزيزاً مكرماً وحصّل أنواع الكمالِ كما يَهْوَى
بحقِّك كُن عوناً لمن غُـرَمَاؤُه بتقصيرهم يُلْجُونه يُظْهر الشكوى
تفضَّل على مثلي بتخليص حقِّه وخَلِّصه ياذا الفضل من مُعْظم البلوى
فإنّ حقوقي عند بعضِ جماعةٍ وقد أكلوها مثل ما تُؤكل الحلوى
سئمت من الأخصام كلٌّ يصدُّني بوعدٍ ولم أقدرْ عليه ولا أقوى
وأنت ظهيري في القضاةِ ومُنْصفي وحاشا يَخِيب الظنُّ فيك من الرجوى
فلا زلتَ ترقى في الأنام منازلاً بسعدٍ وإقبال إلى الغاية القُصوى
بجاهِ رسُول الله طه وآله نبيٍّ هو المحمودُ في السرِّ والنَّجْوى

تخميس بيتين للسلامي

أنشدني أعلم الأدباء وأفضل العلماء، من نطقه السحر الحلال، ومنطقه الصفو الزلال، الشيخ محمد بن هلال[1]، بيتين للسلامي[2]

(١) هو محمد بن هلال الحنفي، فقيه أصولي، له رسالة في علم الأصول في المكتبة التيمورية بالقاهرة، انظر فهرسها ٤/ ١٦٤، توفي سنة ١٠١٢ هـ.

(٢) هو محمد بن عبد الله المخزومي القرشي أبو الحسن السلامي، نسبة إلى بغداد (دار السلام)

متعرضاً لتخميسها، فامتثلت إشارته فيها، وقلت:

تـالله لم يكُ عنك الدهر قط سلا
مُضنـى لأحشائـه حر الغرام سلا
بـل منذ أرشفته من فيك كأس طلا
مـا ضَنَّ عنك بموجود ولا بخلا   أعزَّ ما عندهَ النفسَ التي بذلا[1]

لـــا رأوه بهم مغرى أسيرُ هوى
زموا المطي وأموا منزلا بطوى
وغـادروه بنضو الـدار نضو هوى
يحكي المطايا حنيناً والهجير جوى   والمزن دمعاً وأطلال الديار بلى[2]

ومن هذا الباب قولي بسؤال بعض الأصحاب:

سفينـةُ الحبِّ في بحر الغرام رسَتْ   وسيرُهـا بريـاح الحـبِّ مرتهنُ
فـإن تهـبَّ بما لا تشتهي فلقد   تجري الرياح بما لا تَشْتهي السُّفُنُ

* * *

ومن هذا الباب أيضاً:

أحبَّتنـــا مهـلا بصَـبّ ملكتُمُ   ورفقـاً بقلـب لبُّـه قـد أذبتمُ

= من أشعر أهل العراق في عصره، اتصل بالصاحب بن عباد في أصبهان فرفع منزلته وجعله من خاصته، ثم قصد عضد الدولة في شيراز فحظي عنده ونادمه وكان يقول عنه: إذا رأيت السلامي ظننت أن عطارد قد نزل من الفلك إلي، وقد أقام عند عضد الدولة حتى وفاته، وبعدها رقت حاله ورجع إلى بغداد حتى توفي عام ٣٩٣ هـ، وله ديوان شعر جمع حديثاً.
انظر يتيمة الدهر ٣٦٥/٢، وتاريخ بغداد ١٥٧/٢.

(١) البيتان في ديوانه ٨٨.

وحسبكم هذا الصدود فإننا نرى عظما بالصدّ والبين أعظم

* * *

وقلت في مدرس من أهل دمشق، وهو العلم في الفسق، يدعى بقاضي كمّون على لسان المدرسة مسؤولاً في ذلك:

شكتْ صفحة المحراب لما أتيتُه وأبدتْ زواياه مقالةَ محزونِ
بُليت بعمرو جاهل بدراسةٍ مواعيدُه بالدَّيْنِ لي وعدُ كمّون

إشارةٌ وتلميحٌ لقول القائل:

لا تجعلُوني ككَمُّون بمزرعةٍ إن فاته الماءُ أغنته المواعيد

* * *

ومما قلته على لسان خزانة كتب هيئها دقت، وعظمت أبصارها[1] وجلت:

ضئيلةَ جسم إن أكن فلقد ثوتْ بصدري لإخوان الصفاء رسائلُ
ولا غرو أن طلتُ المجرَّ فإنّما بِملك رقيّ الطَّالِوِّي أطاولُ

* * *

ومما قلته في وصف ليلة سامرتُ فيها بعض أقمار دياجيها من ريم الكِناس، في أدباء أكياس، وسط غرفة مطلة، على رَقْراق كنهر الأبلة:

---

(١) الأبصار جمع بُصر بضم الباء وهو السمك والارتفاع.

يـــا ليلـــة أذكرتـــني قِدْمـــاً ليـــاليَ وصْلِي
أيـــام عصر التَّصـــابي بالغيـــدِ تجمـــعُ شَمْـــلي
في فتيـــــةٍ كنجومٍ أضحـــتْ لطيفـــةَ شكـــلِ
بغرفـــــة في بناهـــا تسمو النجومَ بفضــــلِ
غراء بـــــات نديمي حـــتى الصبـــاح ويُمْـــلي
بهـــا عـــليَّ حديثـــا عن المدامـــــة يُسلي
ظبي إذا مـــا تبـــدّى سبـــا البرايـــا بِـــدَلِّ
يفـــترّ عن ذي غُروب[1] عـــذب عن الراح يُجلْي
وينثـــــني بقوام كخوط بانـــةِ رمـــلِ
من لي برشف لِماه من لي بذلـــك من لي
ذو مقلـــة الرِّيم وَسْنَـــى بلحظهـــا رام قتـــلي
مـــا زلـــتُ أنقـــل عنـــه سحر العيون وتملي
حـــتى إذا النجم أهوى لغربـــــه في تدلّي
وأقبـــل الصبـــح لمـــا مر الدجـــــى في تولي[1]
غـــدا بنـــار غرام بـــين الجوانـــح مُصـــلي

وقال في تضمين بيت للباخرزي

ضمني وعين الأدباء، وزين الفضلاء، العلّامة شمس الدين محمد بن هلال، رب الفضل والإفضال، بمجلس العلامة شيخ الإسلام المولى ابن

---

(١) الغروب: كثرة الريق في الفم.

المعيد[1]، مفتي دمشق، فدخل الشيخ باقان، فثقل المجلس علينا فانشدني للباخرزي قوله:

إلى متى تُتعِبُ البرايا | يا نَسْرُ لُقمان كم تعيش

وسألني أن أضمنه وألحّ في السؤال، فقلت في الحال وذلك سنة ٩٨٢:

باقانُ باقانُ لا أَلَمّتْ | بك السَّواري لها طشيشُ[2]
ألا ترى كيف حتى | فارقك الراشِنُ الحريشُ[3]
فدبَّ نحو الشام يَسْعَى | على ارتهاش له قَشيشُ[4]
ألم تكن جَلْبَهاك ضمّت | ماءً وعشبا منه ينوشُ[5]
فينضوي[6] في حِمَاك يَرْعى | حيث انضوتْ حولك الوحوش
لقد شكت جِلَّقٌ عناها | من رعشٍ ماله بطيشُ[7]
شيخٌ قديم يروي حديثاً | عن شيخ ساسان ما يميشُ[8]

---

(١) ابن المفتي: محمد بن المولى أبي السعود، تولى قضاء دمشق أوائل سنة ٩٦٥ هـ فحسنت سيرته، وكان عالماً فاضلاً كريماً جواداً، مدحه شعراء العصر مثل أبي الفتح المالكي وماماي الرومي وغيرهما، ثم أضيف إليه قضاء حلب، توفي عام ٩٧٢ هـ.

(٢) السواري: جمع سارية وهي السحابة التي تمطر ليلاً، والطشيش: صوت المطر الضعيف.

(٣) الراشن: الطفيلي، والمقم بفتح الميم وفتح القاف وهو الذي يأكل كل ما على الخوان من الأطعمة، والحريش الذي يهيج الحيوان ليصيده.

(٤) الارتهاش: الضعف واصطكاك الأرجل منه، والقشيش: الصحة بعد الوهن.

(٥) جلبهاك: أي ما تجلبه، والجلب: الكسب، وينوش: ينال منه.

(٦) في ب: فينغوي.

(٧) الرعش: المرتعش أو الجبان، ما له بطيش: ما له تبحر في العلم.

(٨) شيخ ساسان أي شيخ المكدين، والمكدي هو الذي أرهقه الدهر وألجأه إلى طلب العون من الناس بأسلوب طريف يجعلهم يسرعون إلى معاونته وإعطائه ما تجود به أنفسهم وما يميش: أي الذي يميش، ويميش: يخلط الجد بالهزل أو الصدق بالكذب.

هردبـــــةٌ كنـــــدشُ الجِرشِّي خرّاءُ فــقِ مَضْغــه جَريشُ[1]
يخالــــــــــهُ الغِرُّ في ازْدرادِ سَعْلَى رماها خبثٌ خميشُ[2]
هنتـــــه، قوس الكرات قوساً وهو سهـــام المنـــا يريش[3]
يرقـــبُ ليــلا بنــات نعشٍ حــتى تُخلَّــى لــه النعوش[4]
فينتحيهـــا عــلى عصــاةٍ ضمّت لكرش فيها خدوش[5]
بهــا يجوبُ الفــلاةُ دومــاً يبغي معاشاً بـــــه يعيش[6]
قــــال خليـــلي لمـــا رآه وقـــــد تَلاَهُ فرع نَؤُوش[7]
ينسابُ من خلفـــه كـــأيْمٍ ينسابُ ذعراً لـــه كشيشُ[8]
سَدَّ لطُعْمِ أحــــدَّ نابـــاً من السَّبَنْـــدَى مــتى يجيش[9]
أوعـــى لنَجْوِ شيـــخَ سَرُوجٍ من ابنـــه حــين يستجيش[10]

---

(١) الهردبة: الجبان الضخم القليل العقل، والكندش: العقعق، وهو طائر من نوع الغربان والعرب تتشاءم به، والجرشي: النفس، ومضغه جريش: أي قوي نافذ.

(٢) السعلى: الغول، الخبث: الأمر الرديء المكروه، والخميش: ذو الخموش وهي الجروح التي تصيب الجلد.

(٣) في أ: هنية، وهنته أي شيؤه الغريب الذي يلعب به، ويريش السهم: يركب عليه الريش ليسرع في النفوذ.

(٤) بنات نعش: سبعة كواكب تشاهد جهة القطب الشمالي، شبهت بحملة النعش، الواحد ابن نعش.

(٥) الكرش لكل مجتر بمنزلة المعدة للإنسان، وهي مؤنثة فيقال كرش كبيرة أو نحو ذلك.

(٦) كلمة الفلاة ساقطة من ب، وفيها: بها يعيش بدل به.

(٧) النؤوش: القوي ذو الغلبة.

(٨) الأيم: الحية الذكر، والكشيش: صوت جلدها إذا احتك بعضه ببعض.

(٩) السبندى: النمر، ويجيش: يهزل من الجوع.

(١٠) النجو: النجوى، وهي الحديث الهامس بين اثنين أو أكثر، وشيخ سروج هو أبو زيد السروجي بطل مقامات الحريري، ويستجيش: تثور نفسه من الجوع.

إن كـــاد يُبليـــك صرف دهر | سهـــام مرمـــاه لا تَطيش
فـــابن بِي زيـــدٍ كبشٌ ساسا | ن بعـد أبيـه حَزَقٌ كميشٌ[1]
وأنـــت يـــا شيـخُ كم تعـاني | سورةَ دهر لهـــا كشيش[2]
خلفــت تسعــين خلـف ظهر | حَكَتـه في شكلهـا الرهيش[3]
وعشّش الهـــامُ فوقَ هـــام | منـك وصرف الرَّدى ينوشُ[4]
إلى مـــتى تُتعـــب البرايـــا | يـــا نسر لقمان كم تعيش

وقال في استخلاص علوفة مدرسة

ومما كتبت به إلى مولانا أقضى قضاة الإسلام عبد الغني أفندي القاضي بدمشق الشام[5] ، سائِلًا فضله في استخلاص علوفة[6] مدرسة الخاتونية، إحدى مدارس دمشق المحمية، من ناظرها شرف الدين الأعرج بن الحكيم[7] ، لا برح بطبّه الدهر سقيم، قوله:

---

(١) الحزق: البخيل الممسك، والكميش: الجاد في الأمر، المشمر له إزاره.
(٢) السورة: الغضب، والكشيش من معانيه: الهدير.
(٣) الرهيش: الضعيف الدقيق القليل اللحم.
(٤) الهام: طائر صغير من طير الليل يألف المقابر، أو البومة، وينوش: يناله ويأخذه.
(٥) عبد الغني أفندي بن ميرشاه الحنفي قاضي القضاة، قدم دمشق أواخر سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة، وباشر الأحكام بها، وكان ديناً خيراً عفيفاً نزهاً حسن الأخلاق تولاها مدة ثم انفصل عنها وتولاها ثانية عام ثلاث وتسعين وتسعمائة نحو ستة أشهر، ثم أعطى قضاء مصر. انظر قضاة دمشق ٣٣٢ ، ٣٣٤ .
(٦) العلوفة: المرتب المخصص للمدرسة.
(٧) هو شرف الدين محمود بن يونس، الخطيب الطبيب الحنفي، ولي خطابة الجامع الأموي، ودرس بالخاتونية والجقمقية من مدارس دمشق، ولكنه لم يكن محمود السيرة ولا مقبول الطريقة من معاصريه من العلماء فأفاضوا في ذمه، ومن ذلك ما يمكن أن تراه في نفحة الريحانة ٣٣١/١ - ٣٣٥ ، وخلاصة الأثر ٣٢٤/٤ .

مولاي يا قاضي القضاة ومن بالعلم والحلم طاب مَحْتِدُه
وسيداً باب جوده حَرَمٌ أمن جميع الأنام تقصِدُه
قد[1] شاع في الشام عدله وغدا كمثل ما ذاع فيه سؤددُه
قصدتُه راجياً على ثقةٍ نجاح قصد إليه مسندُه
فهو بشرعِ النبيّ يفصلُ ما راح ألدُّ الخصوم يجحده
من ناظر فيه للبصير عمًى أضلّه الله كيف تُرشده
يروم أكلاً معلوم مدرسة تشكو إلى الله ما تكابده[2]
من درس معلومها ومعلمها الـ ـقديم مما به يجدده
هو النظاميّ منذ حلّ بها عَدي على شملها يبدّده
فلم يَدَعْ من رسمها سوى أثر تعرفُه العين ثم تَجْحدُه
ومَعْلَم كاد أن يبيدَ بما من جهلِه قد غدا يهدّدُه
هلّا نظرتُمُ في حالها كرماً وحالِ عبدٍ قد طال موعدُه
أضحى فقيراً إلى الغنيّ وهل فقيراً يرى والغني سيّده
يحاول السير نحو أذرنةٍ يخشى بمُكْثٍ يفوتُ مقصدُه
لا زلتَ في رفعةٍ وفي دَعةٍ وحفظ عيشٍ يطيبُ موردُه
ما سار في الأفق كوكب وسرى نسيم روض شدا مغرّده

* * *

ومما كتبتُه لمولانا وسيدنا شيخ الإسلام، علامة علماء مصر والشام،

---

(١) في ب: مذ بدل قد.
(٢) ساقط في ب.

كشاف حقائق التنزيل، العالم بأسرار دقائق التأويل، بدر الملة والدين[1]، ابن العلامة رضيّ الدين الغَزّي العامري، أسبغ الله ظلاله على العالمين، في طلب نسخة الارتشاف[2]، فتفضل بها وأنعم:

يا شيخ الأسلام الذي	إليه أقصى طلبي
يا خير حَبْرٍ عالم	آراؤه كالشُّهبِ
ومن ذُراه معقل	من حادثات النُّوَبِ
ومن حماه حَرَمٌ	أمن لأهل الطلب
تهوى له أفئدةٌ	من عجمها والعربِ
فتنثني عنه وقد	نالتْ قُصارى الأربِ
عن روضة مطلولةٍ	ذات جناب مُخْصِبِ
جيدت رباها وانتحت	فيها عزالي[3] السّحبِ
حتى اكتست أغصانها	واعتمّ هام القُضُبِ
وابتسم النّوارُ عن	ثغر الأقاحي الشُّنُبِ
إلّا فتى ببابكم	يبكي بدمع سَرِبِ
به ظمأ مبرِّح	إلى ارتشاف الضَّرب
يكمّل منه نسخة	رثّت بمرّ الحِقب
ونقصُها كراسة	يكتبها عن كَثَبِ

---

(١) انظر ترجمة بدر الدين الغزي فيما سبق.

(٢) ارتشاف الضرب من لسان العرب، كتاب في النحو لأثير الدين أبي حيان النحوي الغرناطي الأندلسي المتوفى سنة ، وكتابه هذا حقق منذ فترة قريبة لنيل درجة الدكتوراه بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة.

(٣) العزالي: المطر المنهمر، وفي ب: غزال وهو تحريف.

وتنثـــــني مُثنيـــــةً   عـــــلى إمـــام الأدبِ
القائِـــل الفصـــل إذا[1]   احتكّـــت ظهور الرّكـــب
والطاعن القِرْن إذا   اشتكـــت متون العرب[2]
لا زال يَرقـــى صاعـــداً   بالعـــلم أســـنى الرُّتـــب
مـــا غرَّدتْ مفتنـــة   وُرْقٌ بأعـــلى قُضُـــب
وأشرق البـــدرُ المنـــيرُ   طالعـــاً في غيهـــبِ
وسار نجم في الدُّجـــى   ينحو مـــدار القطـــب

كتب إليّ أسد بن معين الدين التبريزي الشافعي[3] أحدُ مدرسي دمشق مستنهضاً في أمر فأجبته لذلك بقولي:

مولاي أنجز ما وعدت لمخلصٍ .   باقٍ على الودِّ القديم بلا مرا
صرف الدراهم في الضرورة جائز   في الشعر والمملوك أصبح شاعراً
لا زلـت في عز منيـع بانيـا   بيت الفضائلِ والمكارم في الذُّرَا

* * *

(١) في ب: الفائق الفضل.
(٢) اشتك الشيء: شكه أو ضم أجزاءه، والمتون: ظهور الخيل.

(٣) المنلا أسد الدين بن معين الدين الشافعي نزيل دمشق، الإمام العلامة المحقق، نسبته في الكواكب والشذرات: الشيرازي وهي نسبة تضاف إلى ما هنا، وقد قرأ على الشيخ علاء الدين بن عماد الدين (سبقت ترجمته) وأكثر الانتفاع به، كما قرأ على معظم علماء وقته ما يجيدونه من فنون.

تولى التدريس بالناصرية البرانية ثم بالشامية من مدارس دمشق ثم جمع له بينهما، ثم تولى الافتاء، وأخذ عنه معظم فضلاء الوقت، وله شعر رائق بليغ رغم أعجميته، انظره في تراجم الأعيان ٣٤/١ - ٤٨. والشذرات ٤٣٨/٨، توفي عام ٩٩٨ هـ.

ومما كتب به إلى الشيخ الفاضل العلّامة، الكامل العمدة الفهامة، إسماعيل النابلسي[1] وقد استنهضته في أمر فتأخر، قولي:

مولاي يـــا ربَّ الـــيرا ... عــة والبراعــة والفصاحــه
فيـــك العوارف والمعـــا ... رف واللطافـــة والرجاحـــه
وبـــك المكـــارم والكرا ... ئم والعزائم والسماحـــــه
عهـــدي بهمتـــك العليـــة إن ... تأبّى جامحٌ راضتْ جماحه[2]
فعـــلى م أُخّر مطلـــبي[3] ... بـــل سيـــدي أرجو نجاحـــه

★ ★ ★

ومما كتبت به إلى إسماعيل العجمي[4]، في طلب علوفة الجامع الأموي، في يوم ثلج:

أمولاي إسمعيـلُ غِـبَّ تحيـةٍ ... تضُوع كأزهار الرُّبى إثر تَهْطالِ
لقد خُلِّيتْ من فضّةِ الخُرج ساحـتي ... كما عُمرت من فضة الثلج أطْلالي
فجُد عاجلاً لا عاجلتْك يدُ النوى ... بنـأيٍ على الدّاعي بمعلوم شوّالِ

★ ★ ★

(١) الشيخ اسماعيل بن أحمد بن الحاج ابراهيم النابلسي الشافعي، شيخ الإسلام، ومفتي الأنام ومفرد الوقت، تصدر للإفتاء والتدريس، وصار إليه المرجع بعد شيخ الإسلام والده. مولده سنة ٩٣٧ هـ، واشتغل على جماعة من أهل العلم، ودرس في كثير من مدارس دمشق، وكانت دروسه حافلة لصفاء ذهنه وطلاقة لسانه وحسن تقريره.

توفي عام ٩٩٣ هـ. انظر شذرات الذهب ٨/

(٢) في ب: عهدي بهمتك العلية إن تأبى جامحة جماحه.

(٣) في ب: مطلب.

(٤) أوردنا ترجمته فيما سبق.

دعاني سيدي عبد الرحمن بن القاضي تاج الدين[1] خطيب السليمانية، بدمشق المحمية، لوليمة بعض ولده فبعث إليه شيئاً من الحرير، معتذراً بهذه القطعة من التقصير، سنة ٩٨٤:

لبني التاج ركنُ مجدٍ خطير ... قد رسا في العلا رُسُوَّ ثَبير

كلُّهم في السموِّ[2] بدرُ سماءٍ ... يبهرُ العين بالضياء المنيرِ

سيّما الأروعُ الخطيبُ الذي فا ... ق بنثرِ الكلام نظمَ جريرِ

من رقا منبر العُلَا مشمخرّا ... دون عليائه مناط البدورِ

فمقاماته لذا قد تعالتْ ... عن شبيه كما اعتلتْ عن نظيرِ

هاك مني وَشْيين وشيُ حريرٍ ... وقريضٍ مثل الرياض النضيرِ

راقَ في العين[3] منهما حُسْن مرأى ... أي مرأىً يروق طرف البصيرِ

غير أن القريض أحسن عندي ... في معانيه من نسيج الحريرِ

فاحتكم فيهما كما شئتَ مَلِكاً ... كاحتكام الأمير في المأمور

والفتى ذو الغِنى يقوم لديه ... في مقام التقصير عُذر الفقيرِ

لا برحتَ الزمان بين نعيمٍ ... فرحٍ دائمٍ وطيبِ سرورِ

مثل ما تشتهيه في ظلّ أمن ... وبنيك الكرامِ عينُ الصدور

---

(١) هو عبد الرحمن بن تاج الدين بن محمد بن أبي بكر التاجي، الحنفي البعلي. نسبة إلى بعلبك التي ولد فيها سنة ست وأربعين وألف.

اشتغل بالتدريس والخطابة، وكانت له معرفة بالموسيقى والشعر، مع ثروة وجاه، ولكنه أضرب عن الموسيقى والشعر وتفرغ للعلم. توفي سنة ١١١٦ هـ ببعلبك وهو في طريقه إلى دمشق.

انظر نفحة الريحانة ١/٤٤٨، وسلك الدرر ٢/٢٨٥.

(٢) في ب: العلو.

(٣) في ب: للعين.

ما رقى منبر الأراك خطيباً طائِر السّعد في ظلال الحُبُور

★ ★ ★

أنشدني المولى محمد بن هلال[1] بيتين هما السحر الحلال طالباً تخميسهما فبادَرت إلى الامتثال ونظمتُ في الحال:

عليَّ مَهَا اللِّوَى في الحُكم جارتْ وقلبي من نواها ما أجارْت
أأنسِيَتِ المودةُ حيثزارتْ[2] ولي ولها إذا الكاساتُ دارتْ
محادثةٌ تحل حُبَى الهموم

أماطت إذ خلوتُ بها اللِّثاما وقالتْ ها فمي فارشف مُداما
ودونَك فاستمعْ مني كلامًا منادمةً ألذّ من الندامى
وبثَّ جوى أرقّ من النسيم

★ ★ ★

كتب إليّ أديبُ دمشق محمد الرومي مستدعياً لقطعة يحملها لشافع بمحكمة الكبرى، هو ابن أيوب وكان يلقّب بالدُّب، قوله:

قل لربِّ الشعر كالسِّحر الحلال أو كصفو الراح بالعذب الزُّلالْ
أو رياضٍ باكرتْها سَحَرا بشذَا دَارينِ أنفاسُ الشمالْ
يتفضلْ بقريضٍ صاغَهُ يُخجِل الدُّر ويزري باللآلْ
ويبيّنْ فيه رقْص الدبِّ إذ دبَّ دبَّ الجَهْل في الكُبرى وجَالْ

---

(١) سبقت ترجمته.

(٢) في ب: حيث دارت.

أعَــلى ايقاعه في رقْصــه كان أم رقصٌ على غير مثال

لا برحْــتَ الدهر تَسْمُو أبداً هامَـة الشِّعْرى بشعرٍ لا يُنـال

مـا وشَى صفحــةَ طِرْسٍ قلمٌ ورأى للقول والوصــف مجـالْ

★ ★ ★

الطالوي في القسطنطينية

ولما وردتُ قسطنطينيةالسنية، ودار الخلافة البهيّة، عام أربع وثمانين وتسعمائة، كتبت لجناب شمس باشا المصاحب، صاحب المفاخر والمناقب، وقد وردتُ باحةَ كرمه، وتشرفتُ بـاحة حرمه، بإسكدار، خيردار:

بــــــدرُ السماء أقرّ بالأمس أن الضيــاءَ لـه من الشمسِ

وكـذا بـدورُ الأرض أن سَنَـا أنوارهـــا قبسْتـُهُ من شمسِ

مولى سليـــل عُلًا أرومتــــه تُعزَى لخالـــدِ سيّـــد الأوس

نجـلُ الوليـد الشهم زيـد سنـاً وزكي جـنى من ذلـك الغرس

صحـب النـبيَّ وفي الهـدى أود حـتى استقـام بـه عـلى أُسِّ

من أجـل ذاك اختار صحبته واختصـــــــه لمجالس الأنس

ظِـلُّ الإلـهِ مرادُ من خَشِيَتْ منـــــهُ ملوكُ الروم والفُرسِ

لا زال ربُّ العرش يكــلأوه بالنُّور والفرقـــــانِ والشمس

وكـــذاك ظــل الله والــده أعــني سَلِيـمَ الطبـع والنفس

صــبّ الإلــه على ثراه حَيَاً وسقــاه كوثرَ جنّــة القُـدسِ

وأتم نعمتــــه عليـــك بمــا أعطاكـه ذو العرش والكُرسي

يا من دقيق صفات مدحته   جلَّتْ عن الأفكار والحَدْس
قد حج بابك وهو كعبته   درويش فضلك راجياً أمس
لفظته أقطار البلاد إلى   رحب المباءة ليس بالنِّكس
لا زلت في نِعَمٍ مُخَلّدةٍ   تغدُو وتصبح مثل ما تُمسي
بمحمدٍ خير البريّة من   نَطَقَ الصواب وآلِهِ الحُمْسِ[1]
ما حنّ للوطن الغريبُ وما   غَنّى حمامٌ طيِّبَ الجَرْسِ

★ ★ ★

ومن ذلك ما كتبتُ به للحضرة السنية، والدوحة البستانية[2]، أسبغ الله ظلالها، وضاعف إجلالها عند قدومي الروم وقد تشرف به قضاء إسلامبول سنة ٩٨٤[3]:

كفى به جائراً في الحكم[4] ما عدلا   لو كان يسمع في أحبابه عَذَلا
أو راح يضمرُ سُلواناً بخاطره   عن مائِساتٍ قُدودٍ تُخْجلُ الأسَلا[5]
بل كيف يصحُو غراماً أو يُفيقُ هوًى   من بات بالأحْورِ العَيْنين مُشتغِلا
فما الهوى غيرُ أجفانٍ مُسَهَّدةٍ   تَهْمِي وقلبٌ بنيران الأسى شُعِلا
ولا الغرامُ سوى وَجْدٍ نكابِدُهُ   إلى الحِمى يا سقى الله الحِمَى نَهَلا

---

(١) الحمس: الأشداء في دينهم.
(٢) هو محمد جلبي بن مصطفى بن بستان قاضي قضاة دمشق، وقد سبق التعريف به.
(٣) ترد بعض أبيات القصيدة التالية في ريحانة الألبا ١/٥٩، ٦٠.
(٤) في ب: في الحلم.
(٥) الأسل: نبات ذو أغصان كثيرة دقاق بلا أوراق، وتسمى به الرماح على التشبيه به، وكذلك النبال.

حِمَى دمشقٍ سقاها غيرَ مفسِدِها صوبُ الغَمام وروَّى أرضها عَلَلا

حتى تظلَّ بها الأرجاءُ باسمةً ويضحك النَّورُ في أكمامه جَذِلا

وخَصَّ بالجانب الغربيِّ منزلةً لبِسْتُ فيها الشبابَ الرَّوقَ مُقْتبلا[1]

مَغْنى الهوى ومغاني اللهو حيث بِهِ مَهاً إذا طلعتْ بدرُ السما أفَلا

تلك المنازلُ لا شرقيٌّ كاظمةٍ ولا العقيقُ ولا شِعبُ الغُوير ولا

ديارُ كلّ مهاة كم أقولُ لها والصَّبرُ يَنْحَلُ في جسمي كما نَحَلا

بما بعينيكِ من سِحرٍ صِلِي دَنَفاً[2] يَهْوَى الحياةَ وأمّا إن صَدَدْتِ فَلَا

اللهُ يعلمُ أنّي بعد فُرقتها فارقتُ شرخ الصِّبا واللَّهو والغَزَلا

ما كنتُ لولا طِلاب المجد أهجرُها هَجْرَ امرئٍ مغرم بالرّاح كاسِ طِلَا

ولا تخيّرتُ أرضَ الروم لي سكناً ولا تعوضتُ عنها بالصِّبا بَدَلَا[3]

ولا امتطيتُ عِتاقَ الخيل راميةً بِيَ المَوَامِي تجوبُ السَّهلَ والجَبَلَا

من كل طِرْف تفوقُ الطَّرْفَ سُرعتُهُ وسابحٍ مثل سِيدِ الرَّمْلِ ما عَسَلا[4]

إذا تطلّع من لُج السَّرابِ يُرى بدراً غدا بهلال الأفقِ مُنتعلا

مهما اعتسفتْ به أقطارَ طامسةٍ للجنِّ تسمع في أرجائها زَجَلا[5]

يجتابُها كالرِّياح الهُوجِ عاصفةً وينْثني وخضابُ الليل ما نَصَلا

هذا وكم مَنْهَلٍ عذب موارده وردتُه والقَطَا الكُدريّ ما نَهَلا[6]

---

(١) الروق: أول الشيء ومقتبله.

(٢) الدنف: المريض الذي لازمه المرض وأشفه، وفي الريحانة: بما بعنيك.

(٣) في ب: بالصبابة لا، وهي تحريف.

(٤) الطرف: بكسر الطاء: الكريم من الناس والخيل ونحوها، وفي ب: تفوت بدل تفوق، والسيد بكسر السين: الأسد أو الذئب، وعسل: اضطرب في حدوه وهز رأسه.

(٥) هذا البيت وبعده ستة أبيات لم ترد في الريحانة.

(٦) الكدري: نوع من القطا غبر الألوان.

واللَّيْـلُ ملقٍ على المُومات كلكله ... كأنـه راهـبٌ في مِسْحِهِ اشْتَمَلا
والنجمُ ملقـىً على الآفاقِ تحسبه ... حيرانَ مثْلَ السُّرى لا يَهْتدي سُبُلا
كلَفتُـهُ طامياً زرْقُ الحمامِ بِهِ[1] ... فصـدّ مستنفراً عنه صدود قِلَى
ومرّ كالكوكـب الـدُّرّي جرّدَهُ ... غـيمٌ تقشَّع عنـه بعدمـا هَطَلا
حتى أتى به أرض الروم منتجعاً ... روضـاً أريضاً وماءً بارداً وكَلا
وقال: بُشراكَ روضُ الفضلِ قلتُ لـه ... روضُ ابنِ بُسْتانٍ ومولانا فقال: بلى[2]
هو الجواد الـذي سارت مواهبُه ... تدعو العُفاة إلى نعمائها الجَفَلى[3]
والبحر لو فاض يوماً فضل نائِله ... عـلى جميـع البرايـا عنهمُ فَضَلا
والبـدرُ أشرقتْ الدنيا بطلعته ... في طالـعٍ حَسَنٍ بالسّعد قد كمُلا
والدهرُ حصنُ أمـانٍ من نوائبه ... فلُذْ باعتابه مـا حـادثٌ نزلا
تجـده طودَ علومٍ لو يوازنُـه ... هضـابُ سَلْمى لخفّت عنه إذ ثَقُلا
لا تزدهيـه من الدنيا مطامعها ... ولا يُرى بسوى إعطائهـا جَذِلا
من سادةٍ ورثوا العلياء واقتسموا ... مآثر المجـدِ منهـا سؤدداً وعُـلا
أغرّ طلـق المحيـا زانـه خُلُقٌ ... كالرَّوضِ أزهرَ أحْوى يانعا خَضِـلا
ذو منطـق لو دَعَى قُسٌّ فصاحته ... ما قام وسْطَ عكاظ قطُّ مرتَجِلا
وفكرة مـا سرت في ليل غامضةٍ ... إلّا تجلّت لأفهام الورى بِجَلا[4]

---

(١) زرق الحمام: ألقى ما في جوفه، والمراد أنه حمل حصانه على أن يشرب من هذا الماء الكدر فلم يقبل إباء وترفعا عن ماء سبقته إليه صغار الطيور، وهو يعني بهذا نفسه التي قصدت الوالي العظيم ولم تقبل عطاء من غيره - وإن كثر - من أيدي الصغار. وفي ب: كلفت لطاميا.

(٢) في الريحانة: ابن بستان مولانا.

(٣) الدعوة الجفلى: الدعوة العامة.

(٤) في ب: بجلها.

وشيمة عذبةٌ لو مازجتْ كرماً خُلُقَ الزمانِ المُجافي لان واعتدلا

لما أتيتُ حِماه الرحبَ أنزلني منه وأكرمني في ظلّه نُزلا

ومدّ نحوي يداً بيضاءَ ذاتَ ندًى لا تعرف المطلَ والإعسار والبَخَلا

فراح يغبطني كلُّ الأنام على مُنًى بلغتُ بها من دَهْرِيَ الأَمَلا

والحمدُ لله هذا الغيثُ أوله قطرٌ وآخره تلقاه منهملا

وهاكها من بناتِ الفكر غانيةً شامية الأصل مهما سائِلٌ سألا

غريبةً في بلاد الروم ليس لها كفؤاً سواك فأنفذْ مهرها عَجِلا

فغيرُ حرٍّ كما قد قيل من مَطَلاَ يا مَنْ إذا وهب الدنيا فقد بَخِلا

لا زلتَ في نعمتيْ عيدٍ وعائدةٍ كما تشأ وبَنُوكَ السادةُ الفُضَلا

ما شام بالروم برقُ الشامِ ذو شَجَنٍ يصبُو إلى وطنٍ ما عنهُ قطّ سَلاَ

* * *

ومما كتبتُ به لجنابه، متردداً عتبة بابه، متعرضاً لخدمة دار الغنم بالمحروسة المزبورة سنة ٩٨٥ قولي:

هاجتْك ورقاءُ النَّغَمْ خطباءُ تهتف في عَلَمْ

عجماءُ يعربُ لحنُها سِرَّ الغرام المكتتَمْ

تروي أحَادِيثَ الهوى عن فيضِ دمع عن سَقَمْ

عجباً لها تشكُو النَّوى[1] والكفُّ خُضِّب بالعَنَمْ

ذكَرَتْ عهوداً بالحِمَى سُقِيَ الحِمَى عَهْدَ الدِّيَم[2]

---

(١) في ب: الهوى.

(٢) في ب: عفى الحمى، والعهد: مطر أول السنة.

عهـــــداً لسانحةِ المهــــا يَخطُرْنَ في حُلَـــــلِ النَّعَم

بدمشق بـــــين ربوعهـــا فربيعِهـــــا الأحْوَى الأجَم[1]

وبَرَادِهـــــا فبريدهــــا ففنـــــاءِ جامعهـــا الخِضَم

فرواقُـــــــه دار العلو م فصحنـــــه دار الحـــكم

فرياضُهــــا فغياضِهــــا فحياضُهـــا تُـبري السقم

فهواؤهــــا فمياهُهــــا فزلالُهـــا العــــذبُ الأَجَم

فمَقيــــلِ هاتيــــك الرُّبــــا فظـــــلال هاتيـــك السَّلَمْ

فمَسيــــل بانــــاس[2] إلى بطحـــــاءِ وادٍ محـــترم

حصْبـــــــاؤُهُ درٌّ وتُرْ بـــــة أرضِـــــه مِسْك يُشَمْ

تلــــك المنــــازل بالحِمَــى لا كالمنـــــازل من إضَمٍ[3]

فصفـــا العقيـــق[4] فلعلـع[5] فالرقمتـــين[6] فـــذي سلم[7]

(١) النبات الأحوى: المسود من كثرته، والأجم: الناهض على سوقه المنتشر.

(٢) باناس: أحد فروع نهر بردى بدمشق، وهو يدخل إلى وسط المدينة فيكون منه،بعض مياه قنواتها،وينفصل باقيه فيسقي زروعها من جهة الباب الصغير والشرقي. انظر معجم البلدان ١/٥٥٧.

(٣) إضم: يطلق على عدة أماكن بالجزيرة العربية، ومن بين هذه الأماكن أنه واد يشق الحجاز حتى يفرغ في البحر، وأعلى إضم: القناة التي تمر دوين المدينة. انظر معجم البلدان ١/٣٠٥.

(٤) العقيق: اسم تطلقه العرب على كل مسيل ماء شقه السيل في الأرض فأنهره ووسعه، ويوجد ذلك في عدة نواح في بلاد العرب، والصفا: الحجارة الملساء على جانبي الماء وفي مجراه.

(٥) لعلع: ماء في البادية، أو منزل بين البصرة والكوفة. معجم البلدان.

(٦) الرقمتان تثنية رقمة، وتطلق على مجتمع الماء في الوادي، كما تطلق على الروضة، والرقمتين: قريتان بين البصرة والنباج بعد ماوية تلقاء البصرة، وهما منزل مالك ابن الريب المازني، وقد ذكرهما في شعره، معجم البلدان ٢/٨٠١.

(٧) ذو سلم: واد بالحجاز، ويطلق أيضاً على طريق ينحدر على الذنائب في أرض بني البكاء على طريق البصرة إلى مكة، وسلم الريان باليمامة على طريق الهجرة، معجم البلدان ٣/١٣٣.

فظــلال رامــة[1] فالنقـا[2] فالمنحـــــــــني فربى أكم[3]
بلــــد حبيــــب أهلـــه فاعجـــــب ولم يرعوا ذمم
أصبو إليهـــــــــــا كلّما عرف الصَّبَـــا منهــا نَسَم
هي جنــــةُ الدنيــا وشمُّ تُرابهــــــا يشفي الألم
يكفيـــــك حسنــاً أنّهـــا في بعـــض آثـــارِ إدَمْ
فارقْتُهــــــا لا عن رضى وهجرتُهـــــا لا عن سأم
هـــذا وليـــلٍ مثـــل يَوْ مِ الحَشْرِ فيـــــه لم أنَمْ
أمسِي بـــه حـــيرانَ من فكر المعيشة في ألم
بربُوع إسْلامبول في دار الغرامـــة حِلْـــف غَم
لا أطعَمُ الخبز السَّميـ ـذَ بهـا وقـد مُلئـت نِعَم[4]

---

(١) رامة: منزل بينه وبين الرمادة ليلة في طريق البصرة إلى مكة ومنه إلى إمرة وهي آخر بلاد بني تميم، وقيل: هي جبل لبني دارم، وقد أوردها كل من جرير وبشر بن أبي خازم في شعرهما، معجم ٧٣٨/١.

(٢) النقا: الكثيب من الرمل.

(٣) أكم جمع أكمة، وأكمة تطلق على عدة مواضع في بلاد الحجاز منها ما يسمى بأكمة المشرق بعد الحاجر بميلين كان عندها البريد السادس والثلاثون لحاج بغداد، انظر معجم البلدان ٣٤٤/١.

هذا ويلاحظ أن هذه الأماكن قد أكثر الشعراء من إيرادها في شعرهم وبخاصة في شعر الحنين إلى أوطانهم والأماكن التي شهدت مراتع صباهم ومجالي لهوهم وشبابهم.

ثم استعملها من بعدهم الشعراء الذين كانوا يمرون على تلك الأماكن، وهم في طريقهم لتأدية فريضة الحج، وذلك تشوقاً إلى الأراضي الحجازية المشرفة وتمني العود إلى زيارتها، كما يظهر استعمالها بوضوح عند شعراء الصوفية الذين كانوا يرمزون بتلك الأماكن إلى منازل القرب من الله ومحبته، على حين يستعملونها هم في شعر غزلي يذكرون فيه ليلى أو سلمى أو غيرها من أسماء.

(٤) السميذ: نوع من الخبز يصنع من لباب الدقيق.

كــــلا ولا اللحمَ القَدِيـ ـدَ[1] وقــد أراه عــلى وَضَم

بل أشتهي كـدانةٍ[2] لتسد من رمقي فَلَم

من بعــد أن لم يبــق لي شيءٌ يقــال لــه بِكَم

إلّا بقايــــا مهجــــةٍ هي ملــكُ مولًــى ذو كرم

مولًـــــى حِماهُ كعبـــــةٌ وظـــلالُ ساحتــه حَرَم

فلــذاك أضْحَــى ركنــه لِيــد الأفاضــل ملتزم

وجنابــــه لشفــــاءِ افـ ـواه الأماثـــــل مُلْتَثَم

تسعـــــى إلى أبوابـــــه من كــلّ فــج مقتحم

فتنــــال من إحسانــــه مــــا يَمَّمَتْـــهُ من أمم

إلا عبيـــــد جنابـــــكم درويشُ بابـــــكم المُوَم

هــــــــلا نَظَرْتُمْ نحوه نظر الموالي للخـــــدم

ورحمتموه بخدمــــــةٍ كرمـــــاً ولو دارُ الغنم

فوحــــقٌ نعمتِكم قَسَمْ مــــا ذاق لحماً منــذُ كَمْ

يــا من سحائــب فَضْلِــهِ فضــلُ السحــاب إذا انسجم

لا زلــتَ محروس الجنــا بِ بعزّةٍ جمّ الكرم

في دولـــــــة محسودة لبـــني الرَّجَــا تُولي الكرم

مـــا غردت مفتنَّـــةٌ في أيكهـــا ورق النغم

* * *

---

(١) القديد: المجفف.

(٢) الـدانة: الشحم أو الدم.

ومما كتبته أيضاً بالديار الرومية في العام المزبور لفخر قضاة الإسلام، شرف ولاة الأنام، المؤيد باللّطف الرباني، صالح بن محمد الكوراني[1]، وقد ولاه السلطان قضاء صفد وأرض كنعان، مؤرخاً ذلك:

شرعتَ دون الشَّرعِ سُمْرَ الرّماح ... وصُنتَ معناه ببيضِ الصِّفاحْ

وسُقتَ للعلياء مَهْرَ التُّقَى ... فنلتَها عذراءَ صُفْرَ الوشاحْ

وطالما ذلّلتَ أفراسَها ... وهي على من يمتطيها جماحْ

يا أيُّها المولى الذي حكمه ... حُكْمَ سليمان نبيِّ الرياحْ

سُدتَ قضاة العصر بل فُقتهم ... علماً وحلماً ونَدًى واسماحْ

فما إياسٌ بذكيٍّ إذا ... عُدَّت قضاياك وربٍّ النجاحْ

ولا شُرَيحٌ بالقضا عارفاً ... لديك يا ابن الأكرمين الصِّباحْ

نال فخاراً منصباً نلتَهُ ... بعزِّ نفس وعُلا وارتياحْ

ولاكه السلطانُ أعني به ... مرادٌ ظلُّ الله ربُّ السماحْ

من بعد ما كان[2] له طالباً ... خمسون كلٌّ نحوه قد ألاحْ

راك من بينهم صالحاً ... له فولاَّك بنص صُراحْ

---

(١) انفرد المصنف هنا بتسميته صالح بن محمد وهو في سائر المراجع صلاح الدين، فلعل ما ذكره المؤلف هو اسمه وما ذكروه هو لقبه.

كما ذكر المؤلف أيضاً أن السلطان ولاه قضاء صفد وأرض كنعان، وهذه إضافة على ما ذكره المؤرخون له، فقد ذكروا أنه تولى القضاء دون تحديد المكان الذي تولى فيه.

وكان الكوراني من مشاهير الأدباء، له شعر طيب ونظم حسن، وكانت له مؤلفات في مواضيع شتى تدل عناوينها على أنها لم تكن ذات بال.

توفي بحلب سنة ١٠٤٩ هـ.

انظر ريحانة الألبا ١/٢٨١، خلاصة الأثر ٢/٢٥٢، وانظر معجم المؤلفين ٥/٢٣.

(٢) في ب: من بعد من كان.

فرحت محسوداً بِعِرْضِ امرئ عَارٍ من العار ومن لَحْيِ لاحْ
تسحب بالروم ذيول المراح وتزدري[1] الأقران شاكي السلاح
يا صفد العلياء بُشْراك قد حَلَّ مغانيك الرِّحابَ الفِساحْ
بعد صلاح الدين شيخ الورى صالحُ مولى ربُّ جُودٍ مُباح
ومنذ أصفاك دياراً له ولاح في ربعك منه فلاح
قلت لمن يسأل تاريخه ولِّيت دَمَ صالح دار الصلاح[2]

ومما كتبتُ له[3] صدر مكتوب من دمشق الشام إلى صفد وهو قاضٍ بها عام خمس ثمانين وتسعمائة[4] مضمناً شطر مطلع لأبي الطيب:

جوانحنا شوقاً إليكم جوانحُ وألبابُنا تصبو لكم والجوارحُ
ومغناكم مَغْنى الهوى يا سَقَى الهوى وأيامَهُ غادٍ من المُزْن رائحُ
وخصّ الصِّبا حيثُ الشبيبةُ أيكةٌ بأغصانها وُرْقُ الأماني صَوَادحُ
وحيثُ الحمى روضٌ أطارحُ أهلَهُ أحاديثُ أشجاني بهم وتطارحُ
معاهدُ أحبابي ومربى مآربي وأوطانُ أوطاري إذ العيشُ صالح
وإذ أنا من حُسَّانةِ الجيد ناعماً أُغَادِي الصِّبا فَرْطَ الهَوَى وأُراوحُ[5]

---

(١) في ب: وتدري.
(٢) ومجموع هذه الشطرة بحساب الجمل: ٩٨٤ وهي السنة المقصودة.
(٣) في ب: كتبت به.
(٤) في ب: عام ثمانين وتسعمائة.
(٥) الرواية في ب لهذه الشطرة:
أغادي الهوى فرط الصبا وأرواح

متى ابتسمتْ عن ذي لِمىً قلتُ منشداً　　بأدنى ابتسام منك تَحْيَا القرائحُ[1]



ومما كتبتُ به وأنا بالديار[2] الرومية سنة ٩٨٤ لمولانا نصوح المشهور في الموالي بنوالي المدرس بإحدى الثمانية مستدعياً لتفسير العلامة أبي السعود، سقى الله مثواه صَيِّب العهود، قولي:

شهدتُ وقد شاهدتُ مَغْنى جماله　　مُحَيًّا يُباهي البَدْر عند كَمَالِهِ
وعِلماً رسي كالطود يُعزَى لمنطقٍ　　يفوقُ الزُّلالَ العذبَ عذبُ زُلاله
وفضلاً موالي الروم عَمَّ نواله　　وبيّنتي إقرارهم بنوالِهِ
سما فيهمُ كالبدر ليلة تِمِّه　　جمالاً يردّ الطرف نور جلاله
وفاتهمُ علماً وحلماً وسؤدداً　　ورأياً سديداً في جميع فَعالِهِ
فيا أيّها المولى الذي جودُ كفِّه　　يفوقُ السحابَ الجودَ وقت انهمالِهِ
ببابِك دمعُ العينِ أصبح سائلاً　　نَدَاك فلا تنهرْ بردّ سؤالِهِ
ومُنَّ بتفسيرِ الإمام الذي رَقَى　　على مِنبر التحقيق عند مقاله
وأعني به شيخَ الفَتاوى أبو السّـ　　ـعُود[3] سقاه اللهُ مُرْفِدَ آلِهِ[4]
وأسكنه الفردوس يُسْقَى رحيقها　　خِتاماً بختم الأنبياء وآله

---

(١) صدر بيت لأبي الطيب المتنبي، عجزه:

وتقوى من الجسم الضعيف الجوارح

ديوانه ٢٩٩.

(٢) في ب: ومما كتبت به إلى الديار.. الخ.

(٣) هو شيخ الإسلام محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، الاسكليني، أبو السعود، مفتي السلطنة وصاحب التفسير الشهير المعروف باسمه.

وسوف ترد ترجمته في موضعها.

(٤) في ب: سقاه الله الخلق مرقد آله.

فنظم إليّ إثره بنثر[1] أبدع فيه غاية الإبداع، وبمثله تشنّف الآذان وتسرّ الأسماع:

وكنا نرتجي تشريف وصل ... وقد فزنا بأقصاء المرام
اتاني بعد ذا منكم كتاب ... عديم المثل في حسن النظام
كتاب فيه للأرواح رَوْحٌ ... كلامٌ فيه نفعٌ للكلام

* * *

فعطفتُ عنان القلم نحو بابه، وكتبت ثانياً إلى سامي أعتابه:

نوالك فيه يا أقصى المرام ... غِنًى يسلّيه عن كلّ الأنامِ
وعن وطن يحنّ إليه شوقاً ... كما حنّ المتيّم ذو الغرامِ
وربعٍ في ديار الشام سامٍ ... سقاه اللهُ ريعان الغمامِ
يزاحمُ منكب الجوزاء قدراً ... ويسمو رونقاً دار السلامِ
فكيف وقد بعثتَ إليّ نظماً ... يُحاكي الدرَّ في سِلك النظامِ
ونثراً يَعجَزُ النَّظَّامُ عنهُ ... إذا جاراه في نظم الكلامِ
فما عقد الثريّا في انتظام ... ولا الشُّهْبُ المنيرةُ بالظلامِ
ولا الروض الأريض كسته وشياً ... يدُ الأنواء واكفة السّجام[2]
شدًا بغصونه قمريُّ بانٍ ... يجاوب شَجوه صدح الحمامِ
بأحسن رونقاً منه وأحلى ... على قلب المحبِّ المُسْتَهام
قَدُمْ بين الموالي ذا نوال ... تجرُّ به ذيولَ الفخر سامِ

---

(١) في ب: بشيء.

(٢) في ب: به الأنواء، والأنواء: الأعاصير والرياح القوية، وواكفة السجام: منهلة المطر.

جنابُـــك قِبلـــةٌ وحماك ركنٌ وبابُـــك كعبـــةٌ فيهـــا مُقامي
مـدى الأيـام مـا حنَّ اشتيـاقـاً فـــــتى بالروم يصبُو للشآم

* * *

ومما كتبتُ به وأنا بمحكمة[1] داود باشا لجناب المولى محمد أفندي بن بستان[2] وهو بقضاء اسلامبول معتذراً وقد وُشِيَ بي إليه:

يـا مـن عَـلا شرفاً على كيوانِ ورَقَـى محـلاً دونـه القَمَران[3]
وقضى بحـقٍّ في الرعيـة سالكا بهم طريقـاً سَنّهـا[4] العُمَران
شِيَمُ الكرام كما علمتُ إذا جنى عبـــد لهم الأخـــذُ بالغُفران
كـــلٌّ يهون سوى شماتةِ حُسَّدي لَمّـــا فـــلانٌ يلتقي بفُـــلان
هم سَوَّدُوا حَسَداً بياضَ صحيفتي بزخـــارف الأقوال والبُهتـــان
هلّا كفيتَنِـــيَ العِـــدَا متذكِّراً قولَ الأديـب عصابـة الجرجاني
وَنَقَضْـت مـني بِنْيَـتي وبَنَيْتَني بيديـك أحسن بِنيَـة البُنيـان
فعليـك تقويمي إذا ما مَال بي أوَدٌ لأنـك أنـت كنـت البـاني

ومما كتب به إلى تقي الدين الراصد

ومن ذلك ما كتبت به إلى حضرة الأستاذ الماجد، مولانا تقي الدين

---

(١) في ب: بمحلة.

(٢) سبقت ترجمته.

(٣) في ب: يا من علا... ورقى محلا

(٤) في ب: سنه.

الراصد[١]، ذاكراً صفة[٢] ليلة مضت بنا بمنزله الشريف، ومحله السامي المنيف، بطوب خانه من محلّة الرَّصْد السلطاني، القويم المباني، المسمّى بوادي البلبل:

سلامٌ كنشر الروض باكره العَهْدُ ... وأمستْ ذواتُ الطوق في أيكِهِ تَشْدو
على معهدٍ سامي الذُّرا واسع الدِّرا[٣] ... إليه تناهى الفخرُ والفضل والمجدُ
له شرفٌ لو حلَّتْ الشمسُ بُرجَه ... لما كُسفت يوماً ولا راعها ضِدُّ
ومنزلةٌ تسمو المنازل قد رنا ... إليها على سامي منازله السَّعدُ
سقاها وحيّاها الإله منازلاً ... لكأنها وسط الحشا أبداً وَجْدُ
فللّه ليل في حِماها قطعتُهُ ... بُحسْنِ حديثٍ دون لذّتِه الشَّهد[٤]
حديث لو أن الميتَ يُدعى بمثله ... أجاب ولبّى بعد ما ضمّه لحدُ

الراصد يستدعيه إلى داره

ومن يلوذ بجنابه وينتمي لعتبة بابه، أديب زمانه، وفاضل عصره وأوانه، الشيخ عبد المعين البلخي الحنفي[٥]، عامله الله بلُطفه الجليّ

---

(١) سبقت ترجمته.
(٢) في أ: ذا صفة.
(٣) الدرا: أي الدراية والعلم.
(٤) في ب: بحسن حديث دونه لذّ لي الشهد.
(٥) هو عبد المعين بن أحمد بن أبي الفتح البلخي الحنفي المعروف بابن البكا، أديب فاضل، من آثاره: غواني الأشواق في مغاني العشاق، والطراز الأسمى على كنز المعمى، أتمه سنة ٩٩٣ هـ. انظر معجم المؤلفين ١٧٨/٦ والمراجع في هامشه.

الخفي، أمره أن يكتب إليّ في يوم دَجْنٍ[1] طَبَّق الأكْناف، في مثله يحسن ارتشاف أحاديث السُّلاف، بوادي البلبل حيث غنّى بروضة غنّا فكتب:

الدهرُ أربعةٌ أيامه انحصرتْ ... صحوٌ وغيمٌ وريحٌ ثم أمطارُ
فالصحوُ ظَرْفٌ لإصلاح المَآرب إذْ ... تُقْضى من الصيد يوم الغيم اوطارُ
ويومُ ريحٍ لنومٍ لا مثيلَ له ... ويوم هَطْلِ السما للكاسِ أسرارُ
واليوم قد نَثرتْ دُرًّا سحائبه ... على بساطِ رُبى تكسُوه أزهارُ
فبادر الكأس يا بدرَ الزمان فَمِنْ ... ضياءِ وجْهك لا في الأفق أقمارُ
هيا لرشفِ رضابٍ قال عاشقُه ... من ريقك العذب لا في الخمر إسْكارُ

فلما وصلت إليّ الرقعة، كتبت بسرعة:

لمن يرى منطق للعقل سحّارُ ... ما فاه إلا وحارتْ فيه أفكارُ
وافي إليّ كتابٌ منه ذكّرني ... شرخَ الصبا حيث دارُ اللهو لي دارُ
أيام غصنُ المنى يُزهى بنَضْرته ... والدهر طلقُ المحيّا والهوى جارُ
لا بل كزهر الرُّبى باتتْ تفتّحه ... يدُ الصِّبا وكسته الوشي أمطارُ
أو الشَّمول أدارتْها شمائلُ من ... في ريقه العذب لا في الخمر إسكارُ
في طيِّه بعد نشر الشوقِ أسرارُ ... للنفس فيها مُنًى تُقْضَى وأوطارُ
منها ارتشا فيَ ثغرَ الكاس وَسْط رُبَى ... شَدَتْ على دَوْحِهِ المُخْضلِّ أطيارُ
في فتيةٍ كالنجوم الزُّهرِ سار بها ... بدرٌ له في سَماء المجد أنوارُ
لا سيما يوم نَثَر الطَّلُّ لؤلؤَهُ ... على بساطِ رُبَى تكسُوه أزهارُ
في روضة سَحَراً غنَّتْ بلابلُها ... وكل أوقاتها للصَّبِّ أسحارُ

---

(١) يوم الدجن: اليوم المظلم المطير، وكانوا يستحسنون قضاء مثل هذا اليوم في المسامرة واللهو.

والجوُّ مضطربٌ والغيثُ منسكبٌ والصبُّ مرتقب والكأس مدرار[1]
فقم نجدّد عهود الكأس يا أملي فلي إلى الكأس تَحْنَانٌ وتذكارُ
ولُح لنا عند شمس الراح بدر عُـلاً هالاتــه أنجمٌ منّـا وأقمار
واسلم ودُمْ ما سرى نجمٌ وما طلعت شمسُ الضحى وبدا في الأفق سيَّار
مُمَجّد المجد[2] مغبوطُ المقام كما تَشَاءُ تجري بما تختارُ أقدارُ

فعطف عنان اليراعة ثانياً، وكتب إلي مع الرسول ثانياً:

أدرُّ عِقْدٍ بدا تكسوه أنوار نظم المكمل أم روض وأزهار
أم السلافة إن أنشا لنا طرباً لكان في كل بيت منه خمّار
وسيّما ذكرُ معسولِ المراشف مَنْ فِي ريقه العذبِ لا في الخمر إسكارُ
ظبيٌّ أغنُّ غضيضُ الطرف معتدل الـ ـقوام فيه ذوو الألبابِ قد حاروا
عِذارُ نُسْكِيَ فيه قد خلعت وما على محبٍّ كئيبٍ في الهوى عارُ
لله أيام وصل قد قطعتُ به والكأس لي صاحب والعود لي جار
في روضةٍ ضحكت أزهارها فبكتْ عيونُ أنهارها والجو مطّارُ
والكأسُ مذ قلت يا بدرُ الزمان لنا إليك شوقٌ وتَحْنانُ وتذكارُ
معطل السعي مشتاق الطواف فجُدْ وانعم لتقضى لبانات وأوطارُ
فالراح دونك لا تصفو لشاربها وصفو عبدك إن سوفت أكدارُ
فَارْقَ ودم وتهنّ العيش في دعة ما ماس غصن وغنت فيه أطيار

---

(١) في ب: مدار.

(٢) في ب: محمد الفضل.

فأوقفت الرسول وكتبت إليه ثالث مرة، لا أغبّت رياض أدبه سحب المسرة، بما يُخجل مخايل[1] السحر ويزري بخمائل الشحر:

زُهر تَغازلهـا باللَّحـظِ أزهـارُ ... وسْط الربى أم نسيمُ الروض مِعطارُ
أم سلسل الراح بالماء القُراح لها ... أشعّـةٌ في يـد الساقي وأنوارُ
أم اللآلئُ في سلك النظام زهتْ ... قد نظّمتها على اللّبات أبكارُ
أم نظم من بهرت آيات منطقه ... للناظرين فحارت فيه أبصارُ
الفاضلُ الألمعي[2] الفهم لا برحتْ ... له الشبيبةُ دار والهوى جارُ
ولا تعطّل سَعْيُ الكاسِ من يده ... ولا الطوافُ لتُقضى فيه أعمارُ
فمنذ زمزم في ذاك المقام صفا الـ ... ـرّاووق وزالت وقد لبيتَ أكدارُ
في روضةٍ جرحتْ خد الشقيق بها ... عيونُ نَرْجسها والشّرب نظار[3]
والزهر مبتسم والطلُّ منسجم ... والريح منتسم والراح مدرار[4]
من كف ساق كبدر التّم طلعتُهُ ... إذا بدتْ تختفي في الأفق أقمارُ
عذبُ المقبّل معسولُ الرضاب لنا ... في ريقه العذب لا في الخمر إسكارُ
بِظلٍّ أفيح راقت فيه أزهارُ ... وغرّدتْ في رُبا مغناه أطيارُ
علا مقاماً على نهر الأُبلّةِ إذْ ... جرتْ خلال رُباه الفيحِ أنهارُ
وهاكها غادةً لا عيبَ نِيطَ بها ... كما ترى غير أنّ الطرفَ سحّارُ[5]

(١) في ب: بما يخجل محاير السحر.

(٢) في ب: تفاضل الألمعي.

(٣) في ب: والسرب نظار.

(٤) في ب: والراح مدار.

(٥) أي طرف الجارية، وهذا من المدح الذي يشبه الذم.

لو أنَّ مهيار جاراها النَّسيبَ لما	فاق الأُلَى بنسيبِ الشعر مهيارُ
فَدُمْ مُعاناً مُعين الدين ذا لَسَنٍ	عَذْبَ المقال لا خانَتْك أفكارُ

الراصد يريد توصيله بمعلم السلطان مراد

ومن ذلك ما كتبت به وأنا بالروم عام أربع وثمانين وتسعمائة إلى جناب سعد الملة والدين[1]، أفضل العالمين في العالمين مُلقِّن ظِلِّ اللهِ السلطان مراد، مدّ الله ظلال رأفته على العباد، في البلاد، بإشارة مولانا تقي الدين الراصد[2]، لا برح كعبة القاصد، موجهاً لصناعة أرباب التعليم، وأصحاب التنجيم، قولي:

مطالــعُ سعــدٍ للسُّعود مطالــعُ	وشهـب العلا من أفقهن طوالعُ
وأنجم إقبــال بأفــلاك دولــةٍ	بدت من بروج السّعد والسّعدُ طالــعُ
وأقمارُ عزٍّ في منــازل رفعــةٍ	لهـا باقْترانـات السُّعود تَجَامُـعُ
لهـا شرفٌ فوق الثوابـت ثابتٌ	ونورٌ عُـلاه في البسيطـة واقـعُ
يُرى لارتفـاع المجد تحت مدارِها	شعــاعٌ بأقطـار العوالم لامـعُ
لـدى سُدَّةِ الأجيـال سُدَّةُ عـالم	إمامٍ لدى أعتابه الفخرُ خاضعُ
مليك النّهى ماضٍ على الحزم أمرُهُ	وليس لـه نحو المعالي مُضارعُ
وليث موالي[3] العصر دانت لمجده	وحَسْبُك مجدٌ لا يدانيه طامعُ

---

(١) سبقت ترجمته.

(٢) هو المولى سعد الدين بن حسن جان التبريزي، ملقن أي معلم السلطان مراد، وكان يشغل منصب مفتي السلطنة وشيخ الإسلام، وله الكلمة النافذة في الدولة، وستأتي ترجمته.

(٣) في ب: رئيس موالي.

إمام تُقَى لا تَزْدَهِيهِ المطامعُ ... وطَوْدُ حِجًى لم تستمله الزَّعازعُ
له النسب الوضَّاحُ في جوهر العُلا ... نما الفخر منه وهو كهلٌ ويافعُ
وخُلْق يُرى ما الروضُ غِبَّ سمائه ... بأنضرَ منه وهو أزهرُ يانع
هُمام تظنيه طليعةُ رأيِهِ ... كأنّ بها ما في الغيوب يطالعُ
أفاد علومَ الأوّلين مقرِّراً ... لها طِبْق ما جاءتْ بهنَّ الشرائعُ
حكيم إذا يوماً دقائقُ فكره ... رقتْ دَرَجَ الأفلاك فيها المطالعُ
وفاضتْ عليها من مبادِي علومه ... بحكمة إشراق سناهُنَّ ساطعُ
أفاضت على[1] السيارة السبع سرّ ما ... به تَقْبلُ التكوينَ عنها الطبائعُ
فشرّف كيواناً برفعة شأنه ... وأجْزل فيض المُشْتِري وهو راجعُ
وأعطى[2] سنا المرِّيخِ شُعلةَ ناره ... يجودُ[3] بها في أفقه ويمانعُ
وخَصّ بأنواع السحابِ عُطارداً ... فها هو في حُسن الكتابةِ بارعُ
وأكْسَبَ جرم البَدْرِ نُوراً مقدّراً ... منازله كي تستعدّ طبائع
وألقى على الشمس الضياء مُحبِّباً ... إلى الزُّهرة الألحانَ فيها تُراجعُ
فقل لفتًى ما زال تُرْشِق جِسْمَه ... سهامُ النوى عن قوسها وتدافعُ
أخي السير في الآفاق هيأة شكله ... تراها اضمحلتْ منه والجسمُ ظالعُ
له همّةٌ في الأوج لكنَّ حَظَّهُ ... حضيضُ الثَّرى من دُونه مترافعُ
ترى الزمن القطاع ألّف جفنه[4] ... بطول سُهادِ والدموع هوامعُ
إلى كم تنص[5] العِيسَ في طلب السُّرى ... لنيل العُلاَ تسعى له وتسارعُ

---

(١) في ب: أفاض على.

(٢) في ب: وأضحى.

(٣) في ب: يجول.

(٤) في ب: جسمه.

(٥) نص العيس: استحثها شديداً، وفي ب: تنض بدل تنص.

وتصبحُ في أرضٍ وتمسي بغيرها حليفَ السُّرى كدًّا وعمرك ضائعُ
تعاني انقلابَ الدّهرِ عنك وميلَهُ لكلِ جهولٍ في الجَهالة راتعُ
يُريشُ له نسرَ الأمانيِّ طائراً ونَسْرُك في وكر المذلَّةِ واقعُ
وتهجرُ داراً بالشآم حبيبةً سقاها الحَيَا والهاطلاتُ الهوامعُ
ألجْ ببسيط الظلِّ من عرش مجده ومِل لزوايا سطحهِ فهو واسعُ
ففيها يرى القُطبُ الجنوبي مُنزوٍ وفي جانب منها الشماليُّ طالعُ
ولا تَرَ مَيْلًا عن معدَّلِ بابه تصلْ للمُنى فالميلُ فيه تقاطعُ
فما مركز الآمال إلا جنابُه ويكفيك برهانٌ على ذلك قاطعُ
إقامةُ أرباب الكمال ببابه على قدم الإجلال وهي خواضعُ
كأن على هاماتها الطيرُ هيبةً ولا قول إلّا ما تشير الأصابع[1]
فيا أيها المولى الذي سار ذكره مَسير الصَّبا حيث البلادُ شواسعُ
ومن أجمعت آراء كلٌّ بأنّه وحيدٌ لأشتاتِ الفضائل جامعُ
وصدرلهذاالعصروالفاضلالذي[2] بآرائه تُهدى النجوم الطّوالعُ
ومَنْ بابُ مأوى العُفاةِ وركنُهُ لدى حادثاتِ الدهر ركنٌ مدافعٌ
لسدَّته العُليا رفعتُ ظُلامةً عليّ جَنَاها صَرْفُهُ المتتابعُ
يبيحُ المنى أهل الجهالة مثل ما يبيحُ المنايا دون ما أنا طامعُ
وأعلم ذنبي عنده وهو جاهلٌ بأن مديحي بابكم لِيَ شافعُ
عسى نظرة مولاي نحوي فإنني محلٌّ لما تُبْدِي وأنك صانعُ
فعبدُك هذا الدهرُ أصبحَ عاملاً لخفضي ومالي غير فعلك رافعُ

---

(١) كرر هذا البيت في النسخة ب.
(٢) في ب: والعالم الذي.

بقيتَ بقاءَ الفرقدين بنعمةٍ جنابُك مأمولٌ وفضلك واسعُ
مدى الدهر ما حنَّ الغريبُ وما شدَتْ على منبر الأغصان وُرْقٌ سواجعُ

يستحث إخراج ثلث مال ابن النشانجي

ومن ذلك ما كتبت به وأنا قسام عسكرية دمشق الشام، لقاضيها حسين أفندي الشهير بقراجلي زاده[1]، كثّر الله الفضل والتقى زاده، مستحثًّا له على إخراج ثلث مال ابن النشانجي[2] أحمد أفندي قاضي مصر سابقاً، وقد توفي بدمشق سنة ٩٨٦:

نهج حق سلكتم أيّ نهج وحججتم مكانكم أيّ حجٍّ
ونفيتم عنكم ظنون أناسٍ صيَّرتهُم ما بين هَرْج ومَرْجِ
إذ قضيتمْ بالحق في ثُلْثِ مالٍ لم يكن مُغنياً عن ابن النَّشانجي
من وصيّ قد اقتدى بأبيه حين[3] أخفى ثلث النشانجي بدُرْجِ

(١)
(٢) تولى قضاء دمشق أوائل سنة أربع وثمانين وتسع مئة، وكان عالماً زاهداً ورعاً مهاباً يميل إلى أهل الدين والصلاح. انظر قضاة دمشق ٣٣٢.
(٣) هو أحمد بن محمد نشانجي زاده، مفسر، عالم بالعربية تولى قضاء مصر، وله من المؤلفات: إعراب القرآن، وشرح الحزب المنسوب للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعلق حواش على مواضع من تفسير البيضاوي، والهداية، وشرح المواقف، والمفتاح، توفي عام ٩٨٦ هـ كما ذكر المؤلف.
انظر شذرات الذهب ٨/ ٤٠٩، معجم المؤلفين ٢/١٦٥.
(٤) في ب: حيث.

حَسِبَ المـال مُخلِـداً لحيـاةِ أو من النار[1] في القيامةِ يُنجي

كـدّ فيـه أبٌ وتابعـه ابنٌ وغَـدَا الآن بـين عُرْج وفُلْجِ

كـاد لولا عنايـةٌ منـك يُلْقَـى بين شِدْقي فمِ دَرِيسٍ[2] وفَرْجِ

فأخرجوه لتخرجوه ويـأتي لـكم شكر ذاك من كـل فـجٍّ

ثم خُصُّوا قاضي العساكر منـه ثم عُمُّوا الفقـير منـهُ بخَرْجِ

لا برحتم في دولـة وسموٍّ منهما الفضل كل حين يُرَجِّي

يطلب تنفيذ وعد بعض من مطله

وعدني بعض الإخوان، بإرسال ديوان شيخ معرة النعمان، ومطل في إرساله فكتبت إليه غِبَّ مطاله سنة ٩٨٦:

ديوانَ شيـخ المعرّه نَبْغِي عَدَتْـكَ المعرّه

يـا من يَجُرّ ذيول الـ ـفَخَـار فوق المجرّه

وقـد تكرر منكُمْ إرسالُـه غـير مرّه

والوعـدُ حُلْوٌ ولكن مِطَالُـه مـا أمرّه

لا زلتُمُ في نعـيمٍ مخلَّـدٍ في مَسَرّه

* * *

ومما كتبته وأنا بالديار الرومية سنة ٩٨٧[3] لجناب المولى سعد الملة

---

(١) في ب: ومن النار.

(٢) الدريس: الذي يأكل شديداً.

(٣) في ب: سنة ٩٨٩.

والدين، ملقّن ظل الله في العالمين، السلطان مراد، أسبغ الله ظلال رافته على العباد والبلاد[1] إلى يوم التناد، قولي:

ذكَر المعاهـــد والدِّمَنْ ومراتـــعَ الظَّبْيِ الأغنْ
وشَجَـــاه مسجور[2] الفؤا دَ بعيـــد عهـــدٍ بالوطنْ
بالرُّومِ نوحُ حمامةٍ ورقـــاءَ تهتـــفُ في فَنَنْ
عجماء يُعربُ لحنُهـــا سرَّ الغرام المكتمنْ
تُبـــدي عـــلى فـــنن الأرا كِ فنونَ أنواع الشَّجَنْ
مـــا رام مَعْبَدُ أن يضـــا هي لحنها إلاّ لَحَنْ
أملـــتْ من الأوراق مـــا درسَتْـــهُ من طُرُقِ الحَزَنْ
وروْت أحاديـــثَ الهوى بصحيـــحِ مُسْندهـــا الحَسَنْ
عن عَـــبرةٍ مهراقـــةٍ تَهْمِي وجسم مُمتهَنْ
عن لوعـــةٍ عن زفرةٍ عن مقلـــةٍ قَرْحـــى وعنْ
تُـــذري الدموع وليتهـــا في شجوهـــا تـــدري بمنْ
طارحتُهـــا ذكر الحمـــى سَقَـــى الحمـــى غَيـــثٌ هَتَنْ
حيـــثُ الديـــارُ فسيحـــةٌ بدمشق جنّـــةُ مَنْ قَطَنْ
فبرادُهـــا فبريدُهـــا ففنـــاءُ جامعهـــا الحَسَنْ
فرواقـــهُ حيـــث الفرو ض تقـــام فيـــه مـــع السُّنَنْ
فصفـــاء كوثر مائهـــا من سلسبيل ما أجَنْ[3]

---

(١) في ب: لم ترد كلمة: والبلاد.

(٢) شجاه: هيج حزنه وشوقه، والمسجور. المتقد.

(٣) أجن الماء: تغير لونه وطعمه ورائحته.

فمقيل هاتيك الربى … فظـــلال هاتيـــك الفَنَنْ

فمسيـــل بانـــاسِ[1] إلى … بطحــــاءَ في روض أغَنْ

شوقي إلى زمـــني بهـــا … سُقــــي الفُوادي من زَمَنْ

حيـــث الشبيبـــة منزل … والغانيـــاتُ لـــه سكنْ

من كـــلِّ مُخْطَفَـــة الحشا … رودٌ كما الرشأ الأغَنْ[2]

هيفـــاءَ صَـــبٍّ بعِطْفها … مـــاءَ الصِّبَـــا شرخُ الزَّمَنْ

لم أنسهـــا يوم الوداع … وقولهـــا عنـــد الظَّعَنْ

والدمـــعُ ينـــثرُ لُؤلؤاً … من نَرْجسٍ يَسْقِي الدِّمَنْ

يـــا محنـــتي أودى البعـــا … دُ بعاشقٍ بك ممتحن

هلّا رجعـــتَ فـــإنّ لي … قلبـــاً بحبّـــك مرتهنْ

فأجبتُهـــا لا والـــذي … سِرِّي لديـــــه كالعَلَنْ

أو تَرْكَنِي لظـــلالِ مَنْ … ظِـــلُّ الإلـــه لـــه رُكُنْ

الفائِـــــض الأنوار عن … سِـــرٍّ إلهـــيٍّ عَلَـــنْ

والمستفيضـــةُ من مبـــا … دىء علمـــه أهـــلُ الفِطَنْ

مَجْـــلى الوُجود ومُظهرُ الأ … سْماءَ عن فيـــضٍ كَمَنْ

بـــل نقطـــةُ الـــذات المحيـ … ـطـــةِ والعريَّـة عن زَمَنْ

أعـــني بـــه سعدَ المكـــا … رم والمراحم والمِنَنْ

سرّ الخليفـــــة والخليـ … ـقـــة والظهور ومـــا بطن

فالجـــأ إلى أبوابـــه … تأمن من الدهر الفـــتن

---

(١) باناس:

(٢) مخطفة الحشا: ضامرة البطن، والرود: اللينة الأعطاف.

والـــثم ترى أعتابـــه فهي الأمـــانُ من المحن
واعرفـه حقـاً قبـل أن تنحـل أجزاءُ البـدنْ
فهو الإمـام ولا كِنَـا يـة في الخطـاب لمن فَطَنْ
وهو الـذي أضحـى عـلى سِرِّ الخلافــة مؤتمنْ
أو مـا ترى الروح الأميـ ـنَ بسرِّه كيـف استكنْ
يجري بـه في العَـدْلِ مِنْ سُنَن النـبي عـلى سَنَنْ
ولقـد عطفـتُ لبابِـهِ أمـلي وقـد ضـاق[1] العطن
وظننـت خـيراً ذاكراً أنـا عنـد عبـدي حيثُ ظَنْ
فهو الـذي يهـبُ المُنـى من راحتيــه وليس مِنْ
مـد الإلـه ظلالَـهُ في العالمـين مـدى الزَّمَنْ
وبنيــه أقمارُ المنـا زِلِ حيـث يحويهم سَكَنْ[2]
الجامعي طَرَفَ السَّعـا دَةِ والسِيـادَةِ في قَرَنْ
صرف الزمان خطوبه وَصُرُوفَــهُ عنهم وعَنْ[3]
بمحمـدٍ وبآلِـهِ أهـلِ الفصاحـة واللسَنْ

ومن ذلك ما كتبت به وأنا بالديار الرومية، دار الخلافة السنية، سنة ٩٩٢ لقاضي العساكر المنصورة بولاية روم إيلي المولى عبد الكريم بن قطب الدين[4]، بقية السلف الصالحين، أوانَ ملازمتي له لمنصب

---

(١) في ب: طاف وهي تحريف، وضاق العطن أي ضاق الصدر ونفد الصبر.
(٢) ساقط من ب.
(٣) سقط هذا العجز وصدر البيت الذي يليه من النسخة ب.
(٤) هو عبد الكريم أفندي قاضي القضاة بن قطب الدين، ذكره شرف الدين بن موسى في تذكرته في قضاة دمشق الملحقة بكتاب ابن طولون عنهم، فذكر أنه تولى قضاء دمشق في سنة =

الدرس، بعد أن مضى حرس[1]:

مولاي يـــا قاضي العساكر ... يـــا من لساني نُعماه شاكرْ

يـا عالمـاً جـلّ عن شبيـهِ ... وعن مثيــــلٍ وعن مُناظِر

وفائــض الجود من ايــاد ... تروي حَديثيْ عطـــا وجابر

مفتنــة الفيـض كـلَّ وقـتِ ... فالفضــلُ عامرْ والكـف عَامْر

اللهُ راضٍ عــلى أنـــاسٍ ... ولَّيتهُمْ ناهيـــــاً وآمر

فالـــدِّينُ أمسى قريرَ عـــينٍ ... والشرعُ أضحـى ثنـاك ناشر

قـد سِرْتَ فيـه بهدْيِ شيـخٍ ... إمـام حـقٍّ للــدين ناصر

ورحـــتَ في بُردتي ثقــاةٍ ... تجرُّ ذيــل العفــاف ساتر

يحمي حمى الشرع منـك عَضْبٌ ... يَقُــدُّ شخـص الضــلال بَاتِر

ما البحر زاخرٌ والبـدر باهر ... والغيث ماطر والليث خَادِرْ[2]

إذا تفاخَرَ إذا تسامَر ... إذا تكاثر إذا تنافر[3]

مولاي يــا قبلــة الأمــاني ... وكعبـــة الفضـــل والمآثر

ومن لـــه المجـــدُ لا يُسامى ... إذا تحدَّى لـــــه مفاخر

والمنظر الطلْــق راق حُسنــاً ... يُزْهى كزاهي الريــاض ناضِر

والمنطــق العــذب رقَّ لفظـا ... ودق[4] معنـــى لكـــل ناظر

= ثمانين وتسعمائة واستمر بها مدة، وباشر الأحكام الشرعية بها، وكان لا بأس به. انظر صفحة ٣٣١ من قضاة دمشق لابن طولون.

(١) مضى حرس أي مضى دهر، وفي المخطوطتين ب، جـ: خرس بالخاء المعجمة.

(٢) الخادر: الأسد في عرينه، وفي ب: حاذر.

(٣) في ب: تناظر.

(٤) في ب: وراق.

والنسبُ الطهر قلّدتـــــــهُ عقودُها الأنجمُ الزواهر
ورثت قِدْمـــا عُلاَ جُدودٍ حديثُهم جـــاء في الدفاتر
شادُوا المعـــالي سَادُوا الموالي بالسُّمر طَعْنـــاً وبالبَواتر
من كلِّ قَرْمٍ ومن كل شَهْمٍ أغرَّ زاهي الجبـــين زاهرِ
أدناهمُ منـــك وهو غـــال قُطْبُ الأوائِل غوث الأواخر[1]
حَبَـاه ربّي جنـان خُلْـدٍ يُسْقي بهـا السلسبيـل طاهر
بحقِّــه عالمـاً تقيّـا وسرٌّ نجواه فيـــك ظاهر
إلّا تعطفَـــت نحو صـبٍّ يصـبُّ غيـث الدموع ماطرْ
فـارق بالشام خـيرَ دارٍ وخـيرَ جـارٍ والربـعُ عامر
ماجنـــةُ الخُلـد تصطفيـها سوى ريـاضٍ بهـا نواضر
وليس ذاتُ العمادِ إلا مَغْنَـى حِماها إن كنـت خابرْ
غـدتْ عليهـا حوامـل المزْ نِ في ثراهـا يضعْنَ باكرْ
ولا خـلا المهـدُ من رُباهـا فيـه جنـينُ النبـات صاغِر
تحنو عليـه بنـاتُ فَخْرٍ تُرضعـه كي يَشُبَّ سافر
فـكمْ مَقيـلٍ بهـا ظليلٌ وكم خليـل تركـتُ هاجر
وكم مغان فيها غوانٍ من كـل رُودٍ قيـدِ النّواظر
فارقتُهـا والفراق مرٌّ كم شقّ للصـبّ من مرآئِر
قالـت وقـد زُمّت المطايا والدمـعُ هـامٍ في الخدّ هامِر
إن كنـت تبغي العُلا فبـادر حِمـى جوادٍ عطـاهُ وافر
فرحـتُ أنضي الركـاب نضّا لا أعرف الغَمْضَ في الدَّياجر

---

(١) في ب: قطب الأواخر.

أجوبُ عرض الفـــلاة جَوْبــاً بكـــــلِّ نهـــدٍ أقـــبّ ضامر
يمور مور الظلـــــيم ليـــــلا يخوض[1] بحر السّراب غامر
يجري مـــع الريـــح ثم تكبو حَسْرى ويمضي للغـــاي حاسر
جبينُـــه البـــدرُ منـــه يبـدو والنجمُ من غُرَّتيـــــه غائر
فما هـــــــلالُ السماء إلا نَعْلًا رَمَتْـــهُ منــــه الحوافر
ولا الـــــدَّراري سوى عقودٍ امْتَى لهـــا مِن حُــلاه ناثر
ولا نِطـــــــاق الجوزاء إلاّ مـــا قلَّـد الجيـد منـه فاخر
مـــا زال يرمي بــه المرامي ويهجرُ الوِردَ في الهواجر
حـــتى أتـــى بــه حِمَـى كريمٌ بجورُ نعمائـــــــــه زواخِر
صـــدر الأهـــالي بـدر المعـالي ذُخر الموالي فخرُ المفاخِر
مولاي عَطفــاً عـــلى غريـبٍ بالروم أمسى وليس زائِر
أخنـــت عليـــه صروفُ دهر وُقيـــتَ ظُلماً عليـــه جائِر
وفرّقـــت منـــه شمـــل درسٍ كـــان عليـــه قدمـــاً يثابِر
عطفـــاً عليـــه فـــإن فيـــه محـــلَّ صنـــع وأنـــت قـــادِر
وأحبْي منــــه دروسَ عــلمٍ براحـــــةٍ كالحيـــــاء هَامِر
سماعُ يـــا مَنْ لِسانُ كـــلٍّ بكـــلِّ مـــدحٍ ثنـــاه نَاثِر
في يمٍّ إحسانك المرجَّى أجريـتَ فلـك الرجـاء سائِر
ولست أخشى عليـــه غَرْقـــاً ورأى سَعْـــدِي لـــه مُسامر
فمرّ كالريـــــــح في هُبوب يشقُّ بحر النجـــــــاة ماخر
وعـــاد مشحون سيبـــك الغمـ ـرِ بالـــــلآلي وبالجواهر

---

(١) في أ: يخوب.

بعثتُ منها إليك عِقداً مُنظَّماً للعقولِ باهرْ
وسوف أهْدِي إليك أخرى شهبُ الدَّراري لها ضَرَائِر
حتى يقولَ الأنام طُرًّا ما أنت شاعرْ بل أنت ساحِر
وهاك بِكزاً تهيجُ ذكرى لأرض بُصْرى[1] لا شِعْبَ عامر[2]
شآمية النشأ من كرام طائيةُ الأصل والأواصِر
لو أن مهيارَ شام برقاً من ثغرها العذب ظلَّ حائِرْ
والحاجري الأديب صَبا أنسْتهَ بَرْقَ الحِما وحَاجِر
خُذْها تُجَلَّى كالبدر تُجْلَى هيفاءُ قدٌّ وطفاءُ ناظر
رُود رداحِ غَرْثى وِشَاحِ والطرفُ منها سلِمتَ فاتِر
وأنت كفوٌ لها كريم والمَهْرُ شرطٌ وأنت ماهر
هذا ووعدُ الكريم دينٌ والمطلُ شَيْنٌ من الأكابر
واغنمْ دعاءً واردْ ثناء عليك منِّي كالمسك عاطر
واسلمْ مدى الدَّهر في سُرور ما لاح برقٌ وناح طائِر



ولما طالت ملازمتي لبابه، وترددي لأعتابه، كتبت إلى جناب المولى العلامة، والعالم الفهامة، شيخ الإسلام، ومفتي الأنام، في جميع الآفاق،

---

(١) بصرى: هي قصبة كورة حوران من أعمال دمشق، معجم البلدان ١/٦٥٤.
(٢) الشعب: الطريق في الجبل، وشعب عامر ويسمى أيضاً شعب جبلة، هو الموضع الذي حدث فيه يوم من أيام العرب بين بني عامر وأكثر قبائل العرب، وكان النصر فيه لبني عامر، انظر معجم البلدان ٢/٣٤، ٣/٢٩٥.

بالاستحقاق، الشهير نسبه الخطير، بجوي زاده[١]، ضاعف الله من الفضائل زاده وزاده، متشبثاً بذيل كرمه العميم، بشفاعة لقاضي[٢] العسكر عبد الكريم، وقد سبق منه وعد كريم وذلك في سنة ٩٩٢، قولي[٣]:

ما قول[٤] شيخ الورى علّامة الأمم	مفتي الفريقين من عُربٍ وعَجَمِ
فخر الزمان إمامِ العصر أفضلُ مَن	أمّتْ حماه مطايا العَزْم من أَمَمِ
الباهرِ الفضلِ والآراء والنِّعَمِ	والطّاهر الأصل والآباء والشِّيَمِ
والقائلِ الفصل لو شاءتْ روّيته	نجمِ النُّجوم الدَّراري موضع الكلم

المرشدِ الخلق[٥] سُبُلَ الحقّ حيث غدَا
إمـــام حـــقٍّ لهم فافطنْ إلى كَلِمِي

فهو الإمام الذي نَرْجُوه منتظراً	لقتل دجَّالِ جهلٍ قد أباح دَمِي
أمدّهُ الله بالزُّلْفى ومدَّ له	ظِلّاً على مفرق الإسلام والأُمم
لقد حمى الدِّين والدُّنيا وأهلها	يراعُهُ الصَّارِمِ الفرَّاج للغُمَم
في مُدْنَفٍ لعبت[٦] أيدي البِعَادِ به	وفرّقت منه ظُلْماً شمل ملتئم

(١) هو محي الدين محمد بن محمد بن الياس، المعروف بجوي زاده الحنفي، الإمام العلامة، أحسن قضاة الدولة العثمانية وأعفهم وأصلحهم سيرة، ولي قضاء دمشق سنة سبع وسبعين وتسعمائة، ثم صرف عنه بقضاء مصر، ثم صار قاضياً للعسكر، وفي آخر أمره صار مفتياً للتخت السلطاني.

وكان عالماً بارعاً، فاضلاً عفيفاً، خفض كثيراً من الرسوم القضائية في عهده، وتوفى وهو مفتى السلطنة عام ٩٩٥ هـ. انظر الكواكب السائرة، شذرات الذهب ٤٣٦/٨.

(٢) في أ: بشفاعة من قاضي.

(٣) ساقطة من ب.

(٤) في ب: ما قال.

(٥) في ب: المرشد الحق.

(٦) في ب: ولعت.

ففـارَقَ الشـام والأوطان جَادَهُما ... كسُحْبِ جفني[1] هطّال من الدِّيَمِ
يروم بالرّوم دار العـدلِ مدرسـةً ... ولم يَحِدْ عن طريق القوم في القِدَم
ممـا يَعُـدُّوه شرطـاً في ملازمـة ... ومُـدَّةً من سنـين أربع قُـدُم
وحقُّـه كـان يعطاهـا يـداً بيدِ ... كما تقرَّر في قانون عُرْفِهِمِ
فكيـف صَـاعَ لمولانـا وسيِّدِنـا ... قاضي العسـاكر منعٌ وهُو ذو كرم
هـل حلّ ذلك في الشرع القويم له ... أم ذاك قانونُ مَعْلوم ٍ بـلا سَقَم
أبنْ لنـا عنه واكشف ظُلمةً سترتْ ... وجُوهَ آمالنـا يـا كاشف الظُّلَم
فقـد حَثَتْنا ركاب العَزْم من بلدٍ ... نـاءٍ إليك رجا إحسانك العَمَمِ
لولاه لم أرضَ الروم منزلــــةً ... عن الشآم سقاهـا غيثُ مُنْسجمِ
فهـل سمعت بذي لبٍّ يعيش به ... يسيرُ قط لأرض الروم عن إرَمِ[2]
لكنَّ من حـلَّ مغناك الرفيعَ يرى ... بأنــه حـلَّ بـين الرُّكْنِ والحَرَم
مولاي نصرة[3] عـانٍ قلَّ ناصره ... من جَوْر قاضٍ قضى بالعَدْل متَّهم
أصمّ لم يصـغ للشكوى[4] وأبكم لم ... يَحُرْ جوابا وعن حال الفقير عَمِي
وهذه نفثةُ المصْدُور[5] قد صـدرتْ ... من صـدر عبدٍ لصدر الناس كلّهم
عسى أياديـك تشفيـه من الألم ... لازلـت في نعم موصولـة النِّعم
واسْلم ودُم ما سَرَى نَجْمٌ وما طلعـتْ ... غزالةُ الصُّبح ترعى النَّجْم في الظُّلَم

* * *

---

(١) في ب: دمعي.
(٢) ارم ذات العماد: هي دمشق، وقيل إنها الاسكندرية.
(٣) العاني: الذليل، والأسير.
(٤) في ب: لم يسمع الشكوى.
(٥) في ب: للصدر.

ومن ذلك ما كتبت به أيضاً لجناب[1] الحضرة الخواجكية السعدية لا زالت أعتابها قبلة الآمال، وكعبة الأمثال[2]، وقد كثرت من قاضي العساكر المذكورة، مواعيد عرقوبية، فأثَّرتْ في الخاطر حتى نطق بلا روية[3]، أواخر شعبان سنة ٩٩٢:

ألا هـل لظلمٍ لا يُطاق دفـاعُ ... ودعوى على الخَصم الألدّ سماعُ

فلم يبق في قوس التبصُّرِ منزَعٌ ... وقـد طال من عبد الكريم نِزاع

رمتـه سهامُ الحادثاتِ وأقصدتْ ... حماةُ المنايـــا صَـــارِمٌ ويَراع

تمزَّق منـــه العمر كـــل ممزَّق ... وينتاشه منهـــا يـــدٌ وذراعُ

كـدأب ديارٍ قد عفتْها يدُ البلى ... وقـد بان منها أرسمٌ[4] وشراع

إذا هولم يُنْجِز على القُرب موعـــداً ... بمنصـبِ دَرْسٍ ليس عنه دفاعُ

ولم أرجُ منـه منصِباً قط إنّما ... رجوتُ نـدَى سعـدٍ نَداه طِبَاعُ

فـتى كفّـه مخلوقـةٌ لثلاثـةٍ ... سماحٌ وعَضْـبٌ صـارم ويَراعُ

أمولاي قـد شاعتْ لِبَابِك نسبتي ... ومقسومُ مدحي في عُـلاك مُشاع

وقـد صدرتْ مني إليك قصائِدٌ ... ورقعـة وجـه لم تُهَن ورِقـاع

ولي منـك وعدٌ قد تراخى نِجازه ... فَمُنّ بميعـــادٍ خُطَـــاه سِراعُ

فأنجزه بالأمر المطـــاع فهـــذه ... أوامركم في الخافقـــين تُطـــاع

* * *

---

(١) ساقطة من ب.

(٢) في ب: الآمال.

(٣) في ب: نطق اللسان بدل بلا روية.

(٤) في ب: أسهم.

ومن ذلك ما كتبت به أيضاً للأعتاب السنية السعدية، والأبواب السامية الخواجكية، أسبغ الله[1] ظلالها في مقر الخلافة، وحمى جلالها واجلالها عن كل آفة، لاجئاً من ظلم قاضي العساكر بجرمه، معتمداً في عفو ما أفوه به، لطفه وكرمه، قولي:

جَادَتْ عَزَالِي[2] النُّوبِ	لربعِ مَنْلَا جَلَبِي
بعارض ذي بارق	يمطر غيث النُّوبِ
شيخُ عنادٍ ظالمٌ	مبلَّدُ الطبع غَبي
بل لا عَدَتْ أطلالَهُ	سُحْبُ المنايا الصُّخَّبِ
بمثلها قد أُهلِكَتْ	عادٌ بمرِّ الحِقَبِ
ترسلها الريح العَقِيمُ من سماء الغَضَب	
وَكَّافَةٌ ذَرَّافَةٌ	جَرَّافَةٌ بالهَيْدَبِ[3]
تتبعها صواعقٌ	فيها دواهي الكُرَبِ
تَؤُمها بواعق	تَصُمُّ سمع العَوْطَبِ[4]
في إثرها بوارقٌ	تَرمي شِرارَ اللَّهَبِ

---

(١) في ب: أثبت الله.

(٢) عزالي جمع عزلاء وهي مصب الماء من القربة، ويقال: أرسلت السماء عزاليها: انهمرت بالمطر.

(٣) وكافة: صيغة مبالغة من وكف، ووكف المطر: سال قليلاً قليلاً، والذرافة: السريعة، والجرافة: التي تجرف في طريقها كل شيء، والهيدب: السحاب المتدلي الذي يدنو من الأرض ويرى كأنه خيوط عند انصبابه.

(٤) البواعق جمع باعق، وهو المطر المفاجىء بوابل والسيل الدفاع، والعوطب: لجة البحر، أو المطمئن بين الموجتين.

يعقبهـــا بَوَائِـــقٌ فيهـــا دَواعي الوَصَـــبِ[1]

مردَفـــة بعَوْطـــبٍ[2] تُسْلِمُـــه للعَطَـــبِ

يَشْفَعُهـــا عـــلى وَجـــا فرسانُ طعنٍ ذَرِبِ[3]

إذا دعتْهـــا غـــارةٌ خَبَّـــت لهـــا في خَبـــبِ[4]

كالموجِ لا لأيَ بهـــا تَقُودُ قَوْدَ الشُّذَّبِ[5]

خيـــلَ المنايـــا ضُمَّراً مَسْروجـــةً كالشُّهُـــبِ

من أبشقر وأحمر وأدْهَم وأشْهَـــبِ

وأزرق وأبلـــقِ وأخرج وأصهـــبِ[6]

يحملن كـــلَّ باسل ليـــثِ عَرين أغْلـــبِ[7]

مستلـــئماً صُفْـــحَ الحديـــد من صفيـــح اليَلَـــبِ[8]

مُتَّشحـــاً بيـــض الظُّبَـــا نوازعـــاً للسَّلَـــبِ

---

(١) البوائق: جمع بائقة وهي الداهية، والوصب: الوجع والمرض، أو التعب أو الفتور في البدن.

(٢) العوطب هنا: الداهية.

(٣) وجأه: دفعه بجمع كفه في الصدر أو العنق، ويقال: وجأه باليد والسكين: ضربه، والطعن الذرب: الحديد الماضي.

(٤) خبت لها: أسرعت، والخبب:العدو. وفي الحديث: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا طاف خب ثلاثاً.

(٥) اللأي: الإبطاء، والشذب: جمع شاذب وهو البعيد عن وطنه، أو المدافع عن غيره.

(٦) الفرس الأبلق: ما كان فيه بياض وسواد. والأخرج: ما كان ذا لونين، والأصهب: ذو اللون الأصفر الضارب إلى شيء من الحمرة والبياض.

(٧) الأغلب: ذو العنق الغليظ.

(٨) المستلئم: الجندي حين يلبس لأمته، وهي أداة الحرب كلها من رمح وخوذة وسيف ودرع، واليلب: الفولاذ من الحديد.

معتقــلاً سُمر القَنــا الـ ـعِرَاضِ فوق المنكــب

لبوسُهــا لبوسُهــا صنعــةُ داودَ النَّـبي

مضاعــفُ السَّرد لــه مثــلُ عيون الجُنْـدَبِ[1]

تجلُو ظــلام النَّقْـع عن تلــك الوجوهِ الشُّحَّـبِ

بيــضٌ عــلى هاماتِهــا بِراقُ لَمْــع الكوكــبِ

تَفْنــى بهامها سَرَتْ غائرةً عن كوكــب[2]

تلــك الــتي إن غالبــت جنــد المنون تَغْلِــبِ

أو حاربــت جيش القضــا ءِ مــا انثنــتْ عن رَهَــب

أو صادمــتْ رضوى غـدا[3] سَقْطــاً مهيــل الجَنْــب

في سدٍّ ياجُوج لهــا قرابــةٌ من نسب

دعتهمُ ثم انثنــتْ والليــل مُرْخِي الطُّنُــب

فأقبلــت صَخَّـابَـةً تَفْري أديمَ الغيهــبِ

وصبَّحــت ديــاره مــع الصَّبــاح الأشهــب

بصيحــةٍ تقْلعُهــا قلــعَ أصُولِ الكَرَبِ[4]

فتجعلنْ عاليَهــا سافلهــا حــتى تــبي[5]

للعــين قاعــاً صفصفــاً أو مثــل قفر سَبْسَبِ

---

(١) السرد: حلقات الدرع المنسوجة، وهي تنسج بشك طرفي كل حلقتين وتسميرهما في بعضها البعض، والجندب بفتح الدال وضمها: نوع من الجراد يصر ويقفز ويطير.

(٢) الكوكب: الحديد برق وتوقد.

(٣) رضوى: جبل بالمدينة، وفي ب: غدت بدل غدا.

(٤) الكرب: الأصل العريض للسعف إذا يبس.

(٥) تبي أي تبين وحذف النون لتتسق معه القافية.

خاويـــــةً عروشُهـــــا ... عـــلى فنـــاءِ خَرِب

ولا تـــدعْ في ساحهـــا ... من هامهـــا والخُرَبِ[1]

سوى شخيـــص شاخِـــصِ ... من مُسنـــدات الخُشُب

منطلـــقٍ من ظِلِّهـــا ... إلى ثَـــلاثِ شُعَـــب

غـــير ظليـــل لا ولا ... فيـــه غنّـــى من لَهَـــب

تبًّـــا لـــه من خـــادعٍ ... عن خَتْلِـــه غـــير أبي

فهو الـــذي يَصُـــدُّني ... من جهلـــه عن مَطْلَـــبي

وكلما سألتـــــه ... مدرسة برّح بي

يحسَبُـــني من حُمقـــهِ ... حاولـــتُ عنقَـــا مُغْرِبِ

ومـــا درى بأنّـــني ... عبـــدٌ لسامي الرُّتَـــبِ

سعـــدُ البرايـــا عـــالمٌ ... آراؤه كالشُّهُـــبِ

القائِـــلُ الفصـــلَ إذا اخـ ... ـتَكَّـــتْ ظُهورُ الرُّكَـــبِ

والطاعنُ القِرْنَ مـــتى ... اشتكّـــتْ متونُ العَرَب

مولّـــى حِماهُ حَرَمٌ ... أمْنٌ لأهـــل الطلـــبِ

تهوَى لـــه أفئـــدةٌ ... من عُجمهـــا والعَربِ

* * *

---

(١) الهام: الرؤوس أو الأعالي، والخرب: جمع خربة وهي العورة ويعني بها الأسافل أو ما يقابل الهام.

ما قاله في المعميات

قلت معمّى في اسم بهرام

لم أنسه إذ رمى عن قوس حاجبه ... سهم اللواحظ يُصمِي كل من رَمَقا
يا ليت قلبي لمرماه غدا هدفاً ... رام عليه بِهَاء سهمهِ رَشَقَا

وباسم فهمي

لام عَلَى لامِ عَارِضَيْهِ[1] ... فمُذ رآه زال المَلامْ
وهام في ثغره عَذُولي ... وقد محا قلبَهُ الهُيامْ

وباسم فريدون

خَفِ الله مالي وحبٌّ الكواعِبْ ... فللناس في العشقِ قالوا مذاهبْ
متى حاز بدرٌ جميعَ المساكِنْ ... فحُبّي فريدٌ بصدغٍ وحاجبْ

وباسم مِيرَك

أقبل كالبدر طلعةً وسنا ... بقامةٍ كالقضيب ميّاسِ
يسقي محبّيه خمرَ ريقته ... ساقٍ كريمٍ يدورُ بالكاسِ

وباسم أكمل

نظرت إلى مُكّاء وسط حديقةٍ ... على عَذَبٍ يرنو لأعذَبِ سلسلِ[2]
فبينا تراهُ رائداً في رياضها ... إذا هو مصروعٌ بمخلب أجْدلِ[3]

وباسم صافِ[4]

---

(١) في ب: عارضه.

(٢) المكاء: طائر صغير يصفر صفيراً حسناً، والعذب: طرف الأغصان.

(٣) الأجدل: الصقر.

(٤) في أ، ب: صادف.

كثّرتُ تقبيـــــلَ ثغرٍ فما شفـــا لِيَ غلّــة
وراح قلبِيَ ظـــامٍ منـــه بـــأوّل قبلـــه

وباسم حسام

رعـى الله أياماً على أجرع الحِمَى لصبٍّ مضت والعيشُ في ظلّها حُلْمُ
حَشَاهُ عـلى أيام وصل تصرّمت أوائِلها أضحى وليس له رسمُ

وباسم صـــــدري

بـدا في سماء الحسن خالٌ بوجهه يلوحُ بأفقِ الخدِّ كالكوكب الدُّرِي
أضاءتْ عليه طُرّةُ الصبح فاختفى بها الكوكبُ الوضَّاحُ في غُرّة الفجرِ

وباسم بهرام أيضـــــاً

لم أنسه لـمّا تبـدّى مُقْبـلا نشوان يُخْجِـلُ قَدُّه الأغصانا
قـاسٍ أرانا منـه لطفَ شمائِلٍ بهر الأنـــام بحسنهنّ ولانـا

وباسم ذو الفقـــــار

عـاذلي في الغرامِ دعْـني فقلبي ليس فيـه عن الغرام اصطبارُ
حـين يبـدو في حسنـه وعليـه - ذو قوام يَسْبي العقول - وقـارُ

وباسم سلمان

في وجهـــه وثغرِهِ لمن يَرى صِيدُ الظباء في الهوى سَوانِحا
محاسنٌ فيهـــا لمن يرومُـــه طَرَف المحـبِّ ناظراً ولامحـا

وباسم عبـــد العـــلي

لمـــا بــدا بعـــارضٍ عليـــه تـــاجٌ من ذَهَـــب
عـــلا عـــلى البـــدرِ سنـــاً فانحـــطَّ عنـــهُ برُتَـــب

وبما كتبت إلى بعض الإخوان معتذراً، لا بَرِحَ على نظام القريض مقتدراً:

مولاي يا روضَ فضلٍ حَفَّ بالزَّهرِ ... وبحرَ علم رمانا منه بالدُّرَر

بعثتَ نحوي عقوداً حيّرتْ فكري ... أبهى من الزَّهْرِ بل أزهى من الزُّهْرِ

دِرًّا لو أن القوافي قلدته زهتْ ... بحسنه لا بحسن الدّل والحَوَر

خلالَ أسطُره عتبٌ يفوقُ على ... وصف الديار بها حَسّانةُ النظر

كيف السلوُّ ولي في كل جارحةٍ ... إليك شَوقٌ محبٌّ عاقر الوطَرِ

وفي جنابك ودٌّ لا يغيّرُه ... على مرور الليالي حادثُ الغِيَر

ما كان هجرُ سما أنتَ نيّرها ... على ملال ولا السُّلْوانُ من وطري

لكن تحملتُ من نعماك ما عجزتْ ... عن حمل أدناه منّي طاقةُ البشر

فكنتُ فيه كما قد قال شاعرُنا ... أبو العلاءِ سقاه غيثُ منهمرِ

لو اختصرتُم من الإحسان زرتُكم ... والعذبُ يهجرُ للإفراط في الحَصَر[1]

ومن ذلك ما كتبتُ به في دار الخلافة السنية قسطنطينية المحمية إلى المولى عوض وقد ولي قضاء العساكر بولاية روم إيلي، بعد المولى عبد الكريم بن قطب الدين، دام له العزوالتمكين، يشتمل على تأريخ بديع، دام في عز منيع:

أبشروا حظُّنا نهضْ ... بعد ما كان قد رَمَضْ[2]

وسَنَا بارقُ المُنى ... بعد طول الجفا وَمَضْ

ورنا طرفُ دَهْرِنا ... نحونا بعد طول غضّ

وأزالت شموسُه ... ظلمةَ الجهل فانْغَمَضْ[3]

(١) الحصر: شدة البرد.

(٢) رمض: احترقت قدمه من شدة حرارة الأرض.

(٣) انغمض: نامت عيناه.

وأتـــى الحـــقُّ بعدمـــا	زهــق الباطـــل المُهَـــضّ[1]
والبليــــــد الطبـــــاع من	عنصر مـــا بـــه حيـــض[2]
عامـــل القوم بالجفـــا	ولطُرْقِ[3] الوفـــا رفـــض
جَهِـــل النحوَ والـــذي	قرر القوم قـــد نَقَـــضْ
فلهـــــذا وشبهـــــه	ولأمر هو الغرضْ
رفعـــــوه بجـــــرّه	بـــدل النّصـــبِ فانخفـــضْ
عوّضُونـــا[4] مكانـــــه	عوضـــاً يـــا لـــه عوض
خـــير قاضي عساكر الـــدّ	ينِ بالحـــقِّ قـــد نهـــضْ
أعـــدلُ الخلـــقِ إن قضى	أكرمُ النـــاس إن عَرَضْ
أعـــلمُ القوم بالـــذي	شرع الحـــقَّ وافـــترضْ
وبـــه قـــام مثلمـــا	قـــام بالجوهر العَـــرَضْ
فلـــذا قـــال هاتـــفٌ	في خطـــاب لـــه وحـــضّ
أنـــت ذاك الـــذي عـــلا	مـــا بـــه جـاء وانتهـــض
قم وخـــــذه مؤرِّخـــــاً	جـــدِّد الـــدين يـــا عوضْ[5]

* * *

ومن ذلك ما كتبت به وأنا مدرس في دار السلطنة السنية، في دولة

---

(١) المهضّ: الكبير العليل.

(٢) الحيض: الدم.

(٣) في ب: وطريق.

(٤) في ب: وعوضنا.

(٥) هذه الشطرة تساوي حروفها بحساب الجمل ٩٩٣، وهي السنة التي يعنيها.

المراد خانية، إلى المقام الأسمى، والجانب الأحمى، مُلَقّن ظل الله في العالمين، جناب سعد الملة والدنيا والدين، بعيد الفطر مهنياً، وبالحنين إلى الديار الشامية موريا، وقد لمع من نحوها بارق، منه أصبح القلب خافق، سنة ٩٩٣ قولي:

شام برقُ الشام[١] بالروم جَزُوعا ... فانبرتْ أجفانه تُذْرِي الدموعا

هبَّ مِنْ عَلْيَا دمشقٍ مَوْهِناً[٢] ... هَبَّةَ المصباح في الليل ذَريعا

جزع الآفاقُ في هبّته ... وأتى الروم سُرى الأيْمِ جَزُوعا

خفقتْ راياتُه في أفقه ... خفقانَ القلب قد أمسى مَرُوعا

وقعتْ شُعْلَتُه وسْطَ الحشا ... وسَناهُ طال في الجوّ رفيعَا

ليس يدري وقعَها غيرُ شَجٍ ... فارقَ الأوطان مثلي والرُّبُوعا

أو مُعَنًّى بهوًى تيَّمه ... من غزالٍ راح للوصل مَنُوعا

يُخجلُ الشمسَ سناءً وسَنَا ... ومَهاةَ الرمل جِيداً وتلِيعا

أسهر الجفن خليًّا عن كرىً ... مُقلةً لم تُطْعَم النومَ هُجُوعا

كيفَ يَكْرَى ناظرٌ فارقه ... ناظرُ العيشِ من الليل هزيعا

وشبابٍ شَرْخُه مقتبلٌ ... كان في الصدّ لدى العبد شفيعا

لم يكن إلا كُحُلمٍ وانقضى ... أو خيال في الكَرَى مرّ سريعا

أزمعتْ حسرتُه لا تنقضي ... آه ما أعجلَ ما ولّى زميعا[٣]

لست أرضى مِنَّةَ السُّقْيا له ... وسَحَابُ الجفن يَسْقيه الربيعا[٤]

---

(١) شام البرق: تطلع إليه مترقباً.

(٢) الموهن: نحو من نصف الليل، أو بعد ساعة منه.

(٣) زميعا: سريعاً.

(٤) في ب: متنه بدل منة وتسقيه بدل يسقيه.

والــذي هــاج الجوى قمريــة بالضحــى تهتــف بالأيك سُجوعا
كلما ناحــتْ عــلى أفنانهــا هاجت الصَّبَّ غراماً وولُوعا
وإذا غنَّــت لــهَ عنَّــت لــه ذِكرةٌ للشام زادتــهُ نزوعــا[1]
يــا سقــى الله حماهــا وابــلا مُسْبِلَ الطَّرفِ من الغيث هَمُوعا
حيــث ربعُ اللَّهو منهــا آهِلٌ والمَغَاني[2] في مغانيهــا جميعــا
كــلُّ رودٍ ألبست شرخ الصبا وكساهــا الحسنُ ديباجاً بديعا
لم يرعهــا غير ريعان الصبا وهوًى إن تدعُــه لبَّى مُطيعا
كم لنــا فيهنَّ من بهنــانة[3] ولـع القلب بها خوداً سموعا[4]
لست أنسى ساعة التوديع إذ وقفتْ في موقف البين خَضُوعا
وهي تُذري لُؤلؤاً من نَرجِسٍ فوق ورد كاد طِيباً أن يَضُوعا
علقــتْ ذيــلي وخانتها القُوى فانثنتْ من وقعة البين صَرِيعا[5]
وأفاقــت وبهــا رسّ الجوى ثم قالت وشكت دهراً خدوعا
لا رعــى الله المعــالي مطلبــاً كم ترى مُغْرى بها صبًّا ولوعا
كنتَ لي بدراً منيراً فاختفى في سِرارٍ بعدُ ما سَرَّ طلوعا
وشبابــاً لاح بــدراً عندمــا أشعل الرأس سناً راح مريعا
أيهــا الظاعنُ والقلــب عــلى إثرِه مذْ سار ما زال هَلُوعا
لا تكن للعهــد بعــدي ناسيا يا حياتي واعطفنْ نحوي رُجُوعا

---

(1) في ب: ذكر الشام فزادته.

(2) في ب: والغواني، والمغاني جمع مغنى: وهو المنزل الذي غني به أهله ورضوا.

(3) البهنانة: الخفيفة المرحة في هدوء ولين.

(4) الخود: الشابة الناعمة الحسنة الخلق؛ والسموع: الحادة السمع فهي صيغة مبالغة من سمع.

(5) في ب: صروعاً.

وإذا لم تَرْعَ عَهـدي فاذكُرَنْ عَهْدَ من خلّفتَ والطفلَ الرّضيعا
كيـف تنسى زينبـاً أو أختهـا كلما قالـت أبي أذرتْ دُموعـا
لهما منـك وإن طـال المـدى ذِمّـةٌ تُرعى وعهدٌ[1] لن يضيعا
وشفيـــعُ الدمـــع يجري دُرراً مثـل دُرٍّ وقعهُ يحكي الصَّقيعا
قلـت هيهاتَ شفيـع أو أرى فضـل سعد الدّين فيهنّ شفيعا
سعـــد دين الله مجـــلى سرّه في ظهور بلـغ السقـف الرَّفيعا
مظهرُ الألطـافِ فيـاضُ الندى عن أيادٍ تُخْجلُ الغيثَ الرَّبيعا
عـالمٌ عــذبُ السجايـا ناسكٌ كلما ازداد تُقَـى زاد خُشوعـا
قانـــتٌ لله فيـــه خشيــةٌ يقطـعُ الليـل قيامـاً وركوعـا
طاهرُ الشيمـة عفُّ الذيـلِ لا يَزْدهيـهِ جانبـا[2] الدُّنيا مُريعا
مُستنـيرُ الرأي مرهوبُ الحجى أريحيٌّ الجُود كم أولى صنيعـا
قـد حمى الإسلام منـه صارمٌ فَلَّ عنا حادثَ الخَطْبِ شنيعا
ويراعٍ ينظِمُ الشُّهْـــبَ وإن نـثرَ الـدُّرَّ كسا الروض وشيعـا
مـا مشى في الطِّرس إلاّ خِلْتَه أرْقماً ينسـابُ في الروض ضليعـا
ينفـــثُ الأَرْيَ لراجي وُدِّه ولباغِي ضِـدِّه السُّمَّ النقيعـا
مُـذْ رسا[3] للملك طوداً لم يزل رُكْنُـهُ من حادث الدهر مَنِيعا
يحتـــبي الحـــلم بحِقْويـه إذا زعزعتْ عاصفُ ريحِ الطيش ريعا
أيهـا السالـك من نهج الهـدى طرق الحـق دع المشي هيوعـا
واستبـــق سدة سعـــد نورهـا قـد بدا من أفق الحق صَدِيعا

(١) في ب: وعهداً.
(٢) في ب: جانب.
(٣) رسا: ثبت وقد رسمت بالياء في ب وصحتها كما أثبتنا.

الإمـامُ المُجْتبى سعـدُ الورى فهو من ينتظرُ القوم تبيعـا

صاحـب الخيرة والنور الـذي مـلأ الآفـاق والكون شيوعـا

هو ظِـلُّ الظـلّ والظـلُّ كما قيل عينُ الشمس إن كنت سميعا

ليس تخفي ذاتُـه إلّا عـلى أكمـهٍ لا يعرفُ الصبح الصديعا

رُتَـبٌ تسقـطُ حَسْرى دونهـا مستطيـلاتُ الأمـانيِّ وقوعـا

لم تُنَـلْ بالسعي كلّا إنمـا هو فضـلُ الله فيـه قد أذيعا

أيهـا المولى الـذي أعتابـه لأُولي العـلم غـدتْ ربعا وسيعا

وأقـام السعـدُ في أكنافهـا بيـتَ فضلٍ حَجَّهُ الناس رفيعا

رُكنـه ركنٌ لنـا مُلْتَزَمٌ وحِماهُ حرم يُلْفى منيعـا[1]

فبنو الآمـال طافـتْ حولـه تبتغي من فضلـه الفضلَ نُجُوعا

وبنو الآداب في ساحاتـه قد أقامت تُنشِئ الوشي البديعا

وملوكُ النظمِ والنـثر بهـا هيبـةٌ من نطقه تُبدي الخُضوعا

يا لها أكنافُ سعدٍ أصبحتْ يَذْكُرُ الفضـل حماها والربيعا

فـابنُ عبّـادٍ[2] لو اجتـاز بها لرأى فضْـلاً ينسِّيه البديعـا

ودرى أن المعـالي لم تكن تحت حَصْر العصر بل فضلٌ أشيعا

فلَعَمْري إن مَغْناهـا لنـا جَنَّـةٌ أنهارهـا تجري نُبوعـا

أبتغي فيهـا مُقامي مثـل ما يبتغي فضلُك في الدنيا الشُّيوعا

---

(١) في ب: مريعاً.

(٢) يعني به الصاحب بن عباد وزير البويهيين الشهير، والذي كان كاتباً مترسلاً تستهويه أنواع البديع وبخاصة الجناس في كتابته، حتى لقد قيل إن ابن عباد لو عرضت له سجعة تنحل بها عرى الملك ما بالى بذلك ولأتى بها في نثره، توفي الصاحب سنة ٣ هـ، انظر.

ولساني عنك يهوى السرَّ كي ... يَنشُر الإحسان[1] في الأرض مشيعا
بين أقطار دمشق ويرى ... منزلاً فارقه الجسم جزوعا
ما شربنا الماء كلّا والكَلَا ... منذ عامين وحسبي أن أضيعا
ما لهم ثُمَّ سوى مولاهم ... ثم هذا العبد فأرسله سريعا
لا برِحْتَ الدهر ردّاف العطا ... عن أيادٍ تُخجل السحب صنيعا
بين إقبال وعيد عايد ... بأمان في زمان ما أريعا
وبَنُوكَ الغُرُّ سَادَاتُ الورى ... في الورى طابُوا أصولا وفروعا
ما صبا صَبٌّ إلى أوطانه ... نازحُ الدار واشتاقَ رُبُوعا

ومما كتبت به أيضاً لسدته السامية، وعتبته العالية، سائلاً منه فيضه الكامل، وفضله الشامل[2]، ترقيه المدرسة مع الانفصال، دام في النعم الجسيمة مع الاتصال، قولي:

في ذُرى مولى الموالي ... أنا من بعض الموالي
جاءني الإحسانُ منه ... سائلاً قبل سؤالي
بسطتْ كَفَّ رجائي ... نعمٌ منه تَوالِي
كيف لا يَرْثي لحالي ... وانفصالي عن عيالي
كيف لا يَنْخُو لعبدٍ ... بترقٍّ وانفصالِ
كيف لا والفضلُ منه ... كُلَّ حينٍ في توالي
فهو سعدُ الملك والأمْـ ... ـلاك فيَّاضُ النَّوال

---

(١) في ب: بنثر الإحسان.
(٢) في ب: سائلاً من فضله الكامل وفيضه الشامل.

والــــــــذي شرَّف كَيْوَا ... نَ(1) بحـــظٌ منــــه عـــالِ

وأعـــــار المُشتري حِلْـ ... ـماً حوى حُسن الخصـــالِ

وانتضى المَرِّيــــخُ سيفــــاً ... زانَـــــهُ حُسن الصِّقـــال

وكسا الشمس رداءً ... مستنــــيراً غـــير بـــالي

وحَبَـــا الزُّهَرَة أخـــلا ... قـــاً لهـــا(2) لـــين اعتـــدالِ

ثم خـــص الكاتـــب الحَبْـ ... ـرَ بأنواع الكمال(3)

وأقــــام القمر الفَرْ ... د منـــيراً في الليـــالي

كلُّهـــا تُثْـــني عليـــه ... بمقــــالٍ وبحـــالِ

دام سعــــداً للبرايـــا ... في نعـــيم باتصـــالِ

مـــا وشى طرساً أديـــبٌ ... بنظــــام كالـــلآلي

* * *

ومما كتبتُ به أيضاً لرفيع جنابه، ومنيع بابه، في المعنى وقد شِمتُ من بارق وعده مَخِيلةَ القَبُول، ولحظتُ منه خميلة روضٍ مَطْلول(4):

أيهـــا السَّعـــد الـــذي أصْـ ... ـفـــاك ربي واصطفاكــــا

لمُرادِ الله يَجْري ... أمرُه طوعَ رضاكــــــا

---

(1) كيوان: هو كوكب زحل، وهو أعظم الكواكب السيارة وأبعدها في النظام الشمسي.
(2) في ب: بها.
(3) من هنا حتى نهاية القصيدة التالية ساقط من ب.
(4) المطلول: الذي أصابه الطل (الندى).

ولــــه المقـــدار والمقـ ـدُورُ قــد صــارا مِلاكــا[1]
بالــــــذي شرّف كِيوا نَ بحـــظٍّ من عُلاكــا
وأعـــارَ المُشْتَرِي حِلْـ ـمَــك يُجريــه اهْتَداكــا
وانتضَــى المَرِّيــخ سَيْفــاً غِمْــدُه هَــامُ عِدَاكــا
وكسا الشمس رداءً مستنــيراً من ضياكــا
وحبــا الزُّهْرَةَ خَلْقـاً نشرُه حُسن ثَنَاكـــا
ثم أعطـــى كاتِـــبَ الأفـ ـلاك سهماً من ذَكاكـــا
أنجز الوعــد لعبـــدِ سيِّــدي طــال بَقَاكــا
عبـــــدُ رقٍّ لتَرَقٍّ مَـــا لَـــهُ إلاّ رَجَاكــا

ومما كتبت به أيضاً إلى الدوحة السعدية، والشجرة الطيبة الزكية، وقد فرع[2] غصنها الشمسي سماء كيوان، حين تقلّد تدريس مدرسة أسما خان[3]، وقد سَمَت به مدارس الروم وطالت، وزهرت[4] على شهب النجوم واستنارت، مشيراً إلى تاريخ اتصاله بها، وقد كساها فضله[5] ثوب البها:

قــد نلتِ يا خيرَ المدارس شرفــاً حَمَاه السعــدُ حــارسْ
وأضـــاء في أرجـــاك نورٌ من سنـــاه الكون قَابِسْ
بمـــدرس أحْيـــا بمقـ ـدمــه معالِمَــكِ الــدّوارس

---

(١) ملاكا: أي تابعان له.
(٢) فرعه: طاله وعلاه.
(٣) مدرسة اسماخان.
(٤) في ب: وزهت، ومعنى زهرت أي ابيض لونها وصفا وأشرق.
(٥) زيادة في ب.

بمحمــــــــــدِ شمسِ العُلُو	مِ وبدرهــا الزَّاكِي المَغَــارِسْ
سَبَّـــاقُ غايـــات العُـــلا	حَلَّالُ مُشكلــــــةِ الهواجس
من دَوحـــــةٍ سعديَّـــةٍ	طُوبَى لهـــــا فرعٌ مجانس
درسَ العلوم معقِّبــــــا	فيهـا عـلى السَّلـف الأحامسْ
فلــكم عــلى السَّعْـدَين أوْ	رَدَ من مَبَاحِثِـــــه النَّفَائِسْ
وعــلى الشريــف من المــآ	خِـذِ مثـل أبكـار العرائسْ
فبمثلهـــــا وبمثلـــــه [1]	شرفُ المحافــــــل والمجالسْ
مولى أقرَّ بفضله	كُــــلٌّ فما في القوم نابسْ
وبــــه لأسْما خـــان فَخْـ	ـرٌ في المـــدرِّس والمَـــدَارس
فالمولويــــــة خلعـــــةٌ	وعليـــه من أسنـــى الملابسْ
لمـــــا أفـــــاد مُقرِّراً	عِلْمَ الشرائـــــع والنَّوامسْ
وأفـــــاد فيهـــا من عُلُو	مِ الـدِّين ما قد كـان دارسْ
قلـــــت ازدهي بقدومـــــه	فوحـــقٌّ من أحيـــى الروامسْ
هـــــذا الـــــذي تاريخـــــه	مـــلأ بــه شرف المـدارس[2]

★ ★ ★

ومن ذلك أيضاً ما كتبت به إلى منيع حماه، صانها الله عن نوائب الدهر وحماه[3]، غرة ربيع الثاني سنة أربع وتسعين وتسعمائة[4] مهنئاً

---

(١) في ب: في مثله.

(٢) أي سنة ٩٩٤ على طريقة حساب الجمل.

(٣) في ب: وسماه.

(٤) في ب: سنة ٩٩٣ هكذا بالأرقام والاختلاف في السنة.

بالنّوروز السلطاني، بلّغه الله فيه الأماني، مستجيزاً من أعتابه في المسير نحو الشام إرم ذات العماد، سقى الله عهدها[1] صوب العهاد:

ألاح لـبرق الشام وهو مليـحُ ... عشيـةَ وافى الروم وهو طليحُ[2]

سرى نحوه[3] مسرى الخيال فهاجَهُ ... إلى الربع وجـدٌ بـارعٌ وسنيحُ

وذكّره مـسراه بالشام رَبْربـاً ... نسيمٌ بأكنـاف اللّوى وتَريـحُ

بوادٍ عُـلاه ربوة وقراره ... لجينُ مياه في البطاح تسيحُ

إلى ظلٍّ أحْوى منه منبجسٍ غَـدَتْ ... تُعَـلُّ بـه الأرواحُ وهو صحيحُ

يصلُّ الحصى فيه صليلَ الحليِّ في ... نُحور الغواني عَلَّهُنَّ صَبوحُ

وتخطُو بـه الريحُ الشمالُ فتنثني ... ومن جيبها المسك الفتيقُ[4] يفوحُ

بـلاد بهـا كنا زماناً مع الصبا ... نرود ونغـدو في الهوى ونروحُ

فبدّلـتُ عنهـا[5] غيرهـا لا رضًى بها ... وإني ومثـلي بالديـار شحيـحُ

دمشق فإن تَغْبب رباك سوافح[6] ... ستروي بدمع العين منك سفوحُ

وإني لتعروني لذكراك هِزَّةٌ ... كما اهتزَّ من جِنِّ النشاط مَرُوحُ[7]

حِمَاكِ مَغَانِي اللهو لا زال بالدُّمـى ... فصيحاً ومغنى الغانيات فصيحُ

سقاك أخو جفن السحاب ولا عَـدَا ... رُبـاك الحَيَا حيث المَرَادُ فسيحُ

---

(١) في ب: عهد حماها.

(٢) الطليح: المهزول والمجهود.

(٣) في ب: سرى نحو.

(٤) الفتيق: الذي خلط به ما يزيد في رائحته، وفي ب: الفتوق.

(٥) في ب: منها.

(٦) في ب: سوانح.

(٧) جن النشاط: عنفوانه.

مَرَادُ الفتاة الرود [١] أمّا قوامها فخِفٌ وأما نهضُها فرجيحُ

تَعلَّقَ مهوى قُرطِها القلبُ والحشا فذا خافقٌ من خافقٍ وجريحُ

تذكرتُها بالروم والشام دارها فكــدت بمكتوم الغرام أبوحُ

وارقــني بالروم نوح حمامــة لها رنة رأد الضحى وصدوحُ [٢]

أطارحُها والعينُ شكرى بمائها بنوحٍ وذو اللُّبِّ الغريب ينوحُ

وناحتْ وفرخاها بحيث تراهما ومن دون أفراخي مهامهُ فيحُ

وعامان قد مرّا وذا العام ثالثٌ وهُنَّ إلى ذاك الجناب جُنوحُ

عسى فضل سعد الدين يعطف نحوهم عناني وقصدي في علاه نجيحُ

إمام الهدى سعد البرايا مهذَّبُ السجايا لأنواع العطــاء نفوحُ

ملقن ظــل الله مظهر آيــهِ برقمٍ على نفس الذوات يلوح

مرادٌ حباه الله مُلكاً مخلَّداً وعُمراً طويلاً عنه يقصرُ نوحُ

هو المُظهر الذاتِ التي قد تحجَّبتْ بمَجْلَى صفاتٍ في حُلاه وُضُوحُ

هو العروة الوثقى لدى متمسِّكٍ هو السِرُّ فافهم ما إليه أتيحُ

فإن تَخْلُ منك العين حقًّا شهدتَهُ وأيقنتَ أن الرمز منه صريحُ

وإياك سرًّا غامضاً دون كشْفِهِ صوارم شَرْع للدمــاء تُبيحُ

وقُل لفتى يبغي الحقيقةَ طالباً إذا كنت ذا رُشد وفيه ربيحُ

وفيك لإدراكِ المعاني تَشَوُّفٌ وعزمٌ إلى نيل العلاء طَمُوحُ

أنِخْ بحِمى سَعدٍ له السَّعْدُ خادمٌ وعبداها بــدرُ السماء ويوحُ [٣]

---

(١) في ب: فراد مهات الرود.

(٢) رأد الضحى: أي حين تنبسط شمسه ويرتفع نهاره، وهذا البيت والبيتان بعده.

(٣) يوح: اسم للشمس.

هنالك تَلْقَى المجد مُلقِي رواقَهُ … لــه غُرَرٌ من رأيـه ووضوحُ

ويلقاك منه بالمكارم والعلى … مُحَيَّا به وجهُ العطاء صبوحُ[1]

ألا أيها السعدُ الرفيعُ منازلاً … وأنواره في الخافقين تَلُوحُ

أرى الغرَّ من شَوسِ القَوافي مطيعةً … متى رُمْتُ مدحاً فيك وهي جُمُوحُ

وقد قادها قبلي لبابك معشرٌ … وكلٌّ بما أثنى عليك مشيحُ[2]

وما عَرَفوا أن القريضَ لذي النُّهى[3] … ضُروب فمنها ناقصٌ رجيحُ

فخذ منه حُسّانَ المدائح غادةً … على عِطفها ماء النسيب يسيحُ

لو اسْتاف[4] منها الثغر مهيارَ باسماً … غدا ثَمِلاً والدارُ منه طَروحُ

غرائبُ مدح في عُلاك تَنَظَّمت … غرائِبُ فيها للمديح مديحُ

على صفحات الدهر يبقى مُخلَّدٌ … الثناء وقد ضم الأنام صفيحُ

تهنّيك بالنَوْرُوزِ والعِيدُ بعدَهُ … يعودُ بما تختاره ويروحُ

ترقَّتْ إلى الشِّعرى عن الشعرِ رفعةٌ[5] … رجاء تَرَقٍّ والرجاءُ صحيحُ

فعبدُك في طامي عُبابِك طامعٌ … وإن يكُ ذا ذنبٍ فأنت صَفُوحُ

ليثني عنان السيّر نحو دِياره … فقد طال منه غُرْبةٌ ونُزُوحُ

ودُمْ في سماء المُلك سعداً مُرادُه … يُشير بما تختارُهُ ويُليحُ

ولا زلتَ في أفق الخلافة سَعْدَها … لك الدهرُ عبدٌ خادمٌ ومسيحُ[6]

---

(١) في ب: صبيح.

(٢) المشيح: الجاد.

(٣) في ب: وما علموا أن القريض لدي.

(٤) استاف: شم، وفي ب: اشتاف.

(٥) في ب: رقة.

(٦) المسيح: الملاين في قوله، والمطيع في فعله.

قصيدة بديعة طالباً ترقي المدرسة والانفصال

ومن أبدع ما كتبت به أيضاً لأعتاب سُدَّته الشامخة، وأبواب ساحته الباذخة، لا برحتْ قبلة الآمال وكعبة الآمال، طالباً إنجاز وعد طال، من ترقي المدرسة والانفصال، وذلك في رمضان سنة ٩٩٤:

وفتْ إذ لَوَتْ بالوعدِ يوم لِوى الرَّمْل ... ومن عهدها لِي المواعيدُ بالمَطْلِ

مَهَا من بُروج البدر لاحتْ ودَارُها ... على المنحنى من ذي الأراكة فالأثلِ

عِذابُ الثنايا من كواعبِ غادةٍ ... حِسَانُ التثنِّي قد مُلن من الدلِّ

كواعبُ إلا أنّهنَّ كواكبٌ ... سمتْ في سماء الحُسن عن سمَةِ[1] المثلِ

كست حِبَر الوشي البديع مَعَاطِفاً ... سقاها الشَّبابُ الرُّوق سَجْلاً على سَجْلِ

وقَلَّدَتْ الأجيادُ ما في ثغورها ... تَقَلُّدَ أجيادِ الرُّبا لؤلؤَ الطَّلِ

وباتتْ على الجَرْعاء من أيمن الحِمى ... حِمى القلب تَرعى لاحمى البان والرَّملِ

ألا ربعتْ في دارها أربعيَّةٌ[2] ... سماكية الأنواءِ دائِمة الهَطْلِ

من الضَّحِك اللاتي يُضاحِكُ وَدْقها[3] ... ثغورَ الأقاحي في الرياض بمنهلِّ

فتعطفُ ليتَ الرَّندِ نحو عُرَارِه ... ويَرْنُو لها الحَوْذَان عن أعينٍ شُهْلِ[4]

---

(١) في ب: ثمة.

(٢) الأربعية: المطرة في الربيع.

(٣) الضحك: السحابة تلألأت وبرقت، والودق: السماء تمطر.

(٤) الليت: صفحة العنق والرند: العود أو الآس أو هو شجر طيب الرائحة ينبت على سواحل الشام، والحوذان: نبات عشبي من ذوات الفلقتين منه أنواع تزرع لزهرها وأنواع تنبت برية.

تجـدَّدُ من تلك الرسوم معاهداً عهدتُ بها حُسَّانَةَ الجيد والشكلِ
وأحورَ وَسْنـانَ الجفون إذا رنا أدار كؤوس الراح بالحَدَق النُّجْل
خليـلي أقِمْ بي في الديار لعلَّنا نسائِل مغناها عن الرَّشَأ الطَّفل [1]
أقم علّهـا أن تُرْجع القول أو على أخلِّفُ فيها بعض ما بي من الخبلِ
فـإن تَقِفَنْ من أجل نفسك ساعةً فقفهـا عـلى تلك المعالم من أجلي
فرُبَّ فتاةٍ من مَهَاةٍ بُدورها تجلَّت بداجِي ليلِ فَرْعٍ لها جَثْلِ [2]
وأجلتْ لنا عن أقْحُوان مفلّجٍ يرود بعلِّ المسك في واضح رَتْلِ [3]
من الغيـدِ بيضاءُ الترائِبِ طفلة وقالت قتيلي في الغرام بلا ذَحْلِ [4]
وصالي ببذل النفس إن كنتَ طامعاً وإلاَّ الثريا منك أقربُ من وصلي
فقلتُ لها والعينُ شكرى بمائها وفي القلبِ نار حَرًّا بردِها [5] يغلي
فديتُـك يا نفسي بملكي وإنّما تملَّكَها سعدُ البرية من قبلي
إمامُ الهدى بحر الندى قامعُ العـدا حليفُ النّدى لا يفترُ الدهرَ عن بذل
هو العالِمُ الطُّهرُ الذي بيمينه تَقَسَّم ما في العالمين من الفضلِ
هو المجتلي سِرّ الخليقة والذي رَوِيَّتُه رمزَ الحقيقةِ تَسْتجلي
هو المُظهرُ النورَ الـذي ظهرتْ بِـهِ
حقائِـقُ ما يلقى من الجنس والفصل [6]
هو المُصدر الأحكامَ والحكمةَ التي تُرينا طريقَ الحقّ واضحة السُّبْل

---

(١) الطفل: الرخص الناعم الرقيق.
(٢) الجثل: الطويل الملتف.
(٣) الرتل: بياض الاسنان وجمالها، والطيب من كل شيء.
(٤) الذحل: الثأر.
(٥) في ب: برده.
(٦) في ب: الحبس والفصل.

هو الفائِض الأنوار والعَلَمُ الذي ... بذكر اسمه يُستنزل الغيثُ في مَحْلِ
ملقّن ظِــلُّ الله اسرارَ غيبــه ... كما هي في أُمّ الكتابِ من الأصلِ
مرادٌ مريـدُ الحقِّ لا زال مُلْكُه ... يُرى بقِران السَّعدِ مجتمعَ الشَّمْلِ
فوجْدَانُ سعدِ الدّين في مثلِ عَصْرِه ... شهيــدٌ بوحدانيـة اللهِ والعَـدْلِ
تبـاركَ من أولاه رأيـاً[١] مُسَدَّداً ... يلوحُ عليـه كالفِرنـد من النَّصْلِ
ولولاك يـا سعـدَ البرايا لما غَدَا ... معاقدُ هذا الملك مُستصحدُ الفتلِ[٢]
وهــذا يراعٌ في يمينــك دُونَـه ... يقومُ مقام البِيض والأسَلِ الذَّبْلِ[٣]
ومـا الملكُ إلاَّ غادةٌ بك شَكْلُها ... وإلاَّ فما فضلُ الغواني بلا شَكْلِ
ألا أيها السَّعدُ الذي سار ذكره ... مسيرُ الصبـا في الخافقين بما يُولي
ومن دارتْ الأفلاك طوعَ مُراده ... ومن كادتِ الأفلاكُ تكتبُ ما يُملي
لبابــك جــاءتْ بالمديح كأنما ... رمتْها عيونُ الوحش حَدَق قُبْلِ[٤]
إلى الشعر لا تُعزى بوصفك بل غَـدَتْ ... على فلك الشِّعرى بمدحِكَ تستعلي
تحامى فحولُ الشعر وزن عروضهــا ... كما تتحامي مُهجـةٌ نظرةَ الصِّلِّ
لهـــا نسبـــة في طَيِّءٍ غـــير أنهـــا
نشتْ بـين روض الشام في ذارف الطَّلِ[٥]
رقيقـة صفو الطبع إن هي لُوينت ... وإن خوشنت فالحدّ من نابها يُفلي[٦]

---

(١) في ب: سعداً.
(٢) المستحصد: المشتد الحكم، وفي ب: مستحصب.
(٣) الأسل الذبل: الرماح الدقيقة.
(٤) القبل: المقابلة.
(٥) في ب: وارق الظل.
(٦) يفلي: يقطع.

وكم مثلها بالروم لي خلت أنها وحاشاك مثل القطر في البلد المَحْلِ
دعاها إليك العلم والحلم والحِجَى وما ترتجي من صوب نائِلك الجزلِ
أتتْ تمتري من جود راحتك الغنى وتستنزلُ النعمى لديك بلا مهلِ
ولم يُبْقِ مَنها صبرُها غيرَ مهجة مُعَلقة[1] بين المواعيد والمطلِ
فمالك لا تختصّها بشفاعةٍ وأمرك كالمقدار ينفذُ في الكُلِّ
فوالله ليستْ دون ما حاك وشْيَهُ صريعُ الغواني مُسْلم[2] من حلى الفضلِ
وأنت امرؤٌ من فضلك الفضلُ والذي يَشُكُّ كمن قد شَكَّ في الله والرُّسْلِ

رد على مكاتبة من مولاي أحمد الشريف الحسني

ووردت إلى أعتابه السعيدة السعدية، مكاتبة شريفة شريفية[3] من مقام مولاي أحمد الشريف الحسني عبد الله[4]، دامت عليه نعم الإلٓه،

---

(١) في ب: مقلقة.
(٢) في ب: في بدل من.
(٣) في ب: شرعية من مقام.
(٤) أحمد بن عبد الله بن محمد، أبو العباس المنصور، ابن الخليفة المهدي القائم بأمر الله الشريف الحسني، سلطان المغرب.
اشتغل في أول أمره بالعلم وعزف عن الحكم، فتولّى ابن أخيه الملك، ولكنه وصل إلى علم المنصور أنه ينتوي قتل أعمامه، فبادر إلى حربه وهزيمته، ثم تولى ملك المغرب وبقي فيه ثمانية وعشرين عاماً، حتى توفى سنة اثنتي عشرة بعد الألف.
وكان سلطاناً عظيم القدر، حسن التدبير، وطد علاقته بسلاطين بني عثمان، وكان إلى جانب ذلك أديباً له شعر جيد.
انظر ريحانة الألبا ٢٨٩/١، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٨٩/٢، خلاصة الأثر ٢٢٢/١.

فأمرني بكتابة الجواب عن حضرته السنية، فامتثلت مصدراً بهذه السينية:

ربعَ الغمامِ على مَرابع فاسِ | دارَ العلوم ومَعْلَمَ الإينـاسِ
ماوى السِّيادة حيث أنوارُ الهُدى | تُغْـني عن المشكاة والنِّبراسِ
حيثُ استقرَّ المُلك يحمي بيضةَ الـ | إسْلام منـه بالنَّـدَى والبَاسِ
فرعٌ نمـا من هاشمٍ في تُربـةٍ | كـان الكَفِيُّ لها من الأغراسِ
في ذروة الشَّرَفِ الـذي ما فوقه | شرفٌ لمعتـبرٍ يُرى في النـاس
ولقـد بعثـتُ مع الرسول تحيّةً | لجنابـه مِسْكيَّـةَ الأنفـاسِ
لِتُذَكِّرَ العهـدَ القديم وإن يكنْ | لم ينسَ منـه تصرُّفَ الأحراسِ
عهـدٌ كأيّام الصِّبا حيث الصِّبا | غَضٌّ كصفو الراح وسْطَ الكاسِ
نَوْر العُرارة نَوْره ونسيمُـهُ | نَشْرُ الخُزَامى في اخضرار الآسِ

إلى شيخ الإسلام جوى زاده
مغرياً بعزل حاكم دمشق

ومما كتبت به في الديار الروميةِ عام أربع وتسعين وتسعمائة لحضرة شيخ الإسلام مفتي الأنام محمد أفندي جوى زاده[1]، زاد الله من الفضائل والتقى زاده، مشيراً لوفاة العلامة النبيل، شيخ الشافعية

---

(١) سبقت ترجمته.

بدمشق الشام إسمعيل[1]، ومغرياً لجنابه على عزل حاكمها وقصة القابجي[2] وهي مشهورة:

أيهـــا المولى تلفّــت للشآم	بَأبي الجنــةُ والبيتُ الحرامْ
واعطفنْ نحو حماهـــا نظرةً	تَشْفِهـا مما اعتراها من سِقامْ
شِمْ لها مُرْهِف عزمٍ طال ما	كان من قبلُ لها واللهِ حامْ
اطعِم الموتَ الزُّؤام القابجي	وسقــى سَقّــاءهُ كأسَ الحِمامْ
فابنُ عُلوان[3] علا في أرضها	وابنُ بستان رُعَى رَعْيَ السَّوامْ
زاد في النقص بها منقوصها	قدوةُ الفاغة بل شيخُ العَوامْ
وغدا المقصورُ في شيعته	يقتدي لا بإمام بل إمام[4]
فإليكم وإلى الله أتت	تشتكي الحال بعبرات سِجَامْ
تسأل المولى أماناً منها	ومن المولى لها نجح المَرامْ
قد كفى ما حلّها من حادث	هُدَّ واللهِ له ركناً شَمَامْ[5]
فقد إسمعيل مفتي قطرها	الإمام الحَبْرُ والبَرّ الهُمامْ

---

(١) هو إسماعيل بن أحمد بن الحاج إبراهيم النابلسي الشافعي، شيخ الإسلام أستاذ العصر ومفرد الوقت، تصدر للإفتاء والتدريس وصار إليه المرجع بعد شيخ الإسلام والده.

درس في عدد من مدارس دمشق وجوامعها الشهيرة، وكانت دروسه حافلة لصفاء ذهنه وطلاقة لسانه وحسن تقريره.

ولد سنة ٩٣٧ هـ وتوفى عام ٩٩٣ هكذا ذكر في شذرات الذهب ٨/٤٣٠ مخالفاً لما هنا من أنه توفي بعد ذلك سنة ٩٩٤ هـ.

(٢) لم أعثر له على ترجمة.

(٣) كان أبوه شيخ الصوفية في دمشق، انظر شذرات الذهب ٨/٤٤٢، وأما ابن بستان فقد سبقت ترجمته.

(٤) وضع أمام هذه الكلمة في الهامش كلمة إماء أي أنها الكلمة المقصودة ووضعت كلمة امام لضرورة الشعر.

(٥) شمام كسحاب: جبل.

شيــخ أشيــاخ دمشقٍ جـادَهُ	سَبلُ الأنواء موصولُ الرِّهامْ
وأدام الله مولانــــا لنـــا	رُكنَ مجدٍ دائمٍ حتى القِيامْ

إلى محمد الأمين بصدد وشاية دنيئة

وبما كتبت أيضاً بالديار الرومية، مقر السلطنة السنية أواخر شوال سنة ٩٩٤ إلى حضرة الأخ المكين، محمد الأمين، وقد نقل له بعض من اتسم بسمة الرفاق وهو ممّن مَرَدَ في صورة الوفاق على النفاق، وشاية تكدَّر لها[1] خاطره عن صفوه، وتردد بين إثباتها وصفحة محوه:

إذا مرضتْ نفسي فأنتم أُساتها	وإن ظمئـتْ يوماً فأنتم فُرَاتُها
لهـا منـكم الوَدَّ الذي سار ذكْره	وحدَّث عنه الركب تَحْدُو حُدَاتها
فما خبرٌ قـد زخرفَتْـه عصابـةٌ	تقوّله عنّي الغَداةَ غُواتُها
يرومون أن أسلُو هواكم بجهلهم	وهيهات أن تسلُو النفوسَ حياتُها
لئن نقـل الأقوامُ عـني جنايـةً	لَهُمْ والإمـامِ الحـقِّ حقًّا جناتُها
وما شتم الإنسانَ إلاّ مبلِّغٌ	أفاعيَ قولٍ ظـلَّ فيهـا رقاتُهـا
إذا نبـأٌ من فاسقٍ جـاء بغتـةً	تبيَّنْ له فالنفسُ زينٌ تقاتُها
ابَغْـدَ ولائي أصبحُ اليوم ناصبا[2]	فيـا خُطـةً قد حار فيها هُداتها
ومـا هـذه إلا أفيكة مِسْطح[3]	وَشَى وشرار الناس عندي وُشَاتها

---

(١) في ب: وشاة تكدر له.

(٢) الناصب: العدو، والنواصب: هم الذين نصبوا لعلي رضي الله عنه أي عادوه.

(٣) هو مسطح أو مصطح بن أثاثة صاحب قصة الإفك على عائشة رضي الله عنها والتي ورد ذكرها في سورة النور من القرآن الكريم.

هُمُ نقلوا عني الذي لم أفُهْ به   وما آفة الأخبار إلا رواتها

قصيدة طائية نظمها اقتراح محمد بن بستان

ومن ذلك ما كتبت به بالديار الرومية، مقر السلطنة السنية، لجناب المولى الأستاذ محمد أفندي بن بستان[٣]، أبقاه الله ما تعاقب الجديدان، وقد فصل من قضاء مصر القاهرية، ونزل باسكندرية بدولته الباهرة، أول عيد الأضحى سنة ٩٩٣، فأنشدني من لفظه للأستاذ الشيخ محمد البكري الصديقي[٤] أبياتاً على حرف الطاء وأمرني أن أحذو مثالها، وأنسج على منوالها، فامتثلت أمره العالي، مقتصراً من مدحه بما يخجل درر اللآلي، مع وعورة مسلك هذا الحرف، الذي تحاماه أهل الظرف:

---

(٣) سبقته ترجمته.

(٤) هو محمد بن محمد أبي السرور البكري الصديقي المصري زين الدين، مؤرخ من أهل القاهرة وبها توفي سنة ١٠٢٨ هـ، من مؤلفاته: المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، وفيض المنان بذكر دولة آل عثمان، انظر الأعلام ٢٩١/٧ وانظر هامشه فهو يرجح أنه هو نفسه زين العابدين محمد بن محمد أبو السرور البكري، وهو من الأئمة في التفسير والافتاء وكان أول من لقب بمفتي السلطنة في الديار المصرية وقد توفي سنة ١٠٠٧ هـ.

والواقع أن الخلط في أسماء هذه الأسرة كبير فهي أسرة معظم رجالها علماء، كما أن جل أسمائهم محمد وهم من سلالة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وإليه نسبتهم ولهم كتاب يعرف باسم بيت الصديق أورد فيه تراجمهم.

هذا وقد أورد المحبي في خلاصة الأثر ١٩٦/٢ من اسمه زين العابدين بن محمد بن علي البكري الصديقي، وذكر أنه عالم بالتفسير والعربية والبلاغة وله شعر، وقد توفي سنة ١٠١٣ هـ وها نحن نرى أنه يمكن أن يكون نفس الشخص السابق وقد ورد بكنيته لا باسمه، فليتأمل.

يحنُّ على بُعد المزار وإن شَطّا ويَصبُو لحيٍّ نازلين بذي الأَرْطى[1]

ويشتاقُ معنّى فيه حُسَّانة الهوى خطتْ في رداء الحُسْن تَسْحبه مِرْطا[2]

من الرَّبرب الإنسيِّ في مربع الصِّبا تفيءُ ظلالَ الحُسْنِ لا تعرفُ الخَطّا

كواعبُ إلا أنهنّ كواكبُ تغارُ النجوم الزُّهر من حُسنها العَطّا

لها بَشَر الدُّرِّ الذي قُلِّدتْ به كأنّ الدَّراري قَلَّدتْ جيدها سِمْطا

تعلّق مَهوى قُرطِها القلبُ خافقاً فما زال يبدُو خافقاً أو يرى القُرطا

مَعنّى بأرض الروم قد فارق الهَوى

وشرخَ الصِّبا والأهل والدار والرِّمطا[3]

بأحشائه نارُ الغرام كأنما رمى بين جنبيه ضِرامُ الهوى سِقْطا

أسيرٌ يعاني سَوْرةَ الزمن الذي على مثله في الحكم ما زال مشتطا

إذا شام برقَ الشام سَاقَطَ لُؤلؤاً من الدمع مثل الدُّرِّ من سلكه الخَطّا

هي الغَرَض الأقصى ورُؤيتها المُنى ونيلُ الأماني في حماها وإن شَطّا

بلاد إذا مرتْ بها الريحُ تَنْثني

وقد حملتْ عن روضها العودَ والقُسْطَا[4]

سقاها وحيّاها الإلهُ مَعَاهِداً سَحَابَ دُنُوِّ العهد إن غَيْثُها أبطا

وخَصّ بها الوادي المُقَدسَ شاطئاً وجانبَه الغربيَّ والربوةَ الوسطى

معاهدُ آرابي ومَربى مآربي وأوطانُ أوطارٍ غَدَت للهوى شَرْطا

---

(١) الأرطى: شجر ثمره كالعناب مرة تأكلها الإبل غضة وعروقه حمر، الواحدة أرطاة.

(٢) المرط: كساء من خز أو صوف أو كتان يؤتزر به وتتلفع به المرأة.

(٣) الرمط: مجتمع الشجر من العرفط وهو نوع من العضاه أي شجر الشوك.

(٤) القسط بضم القاف: عود هندي وعربي نافع للكبد والمغص شرباً، وللزكام والنزلات بخوراً، وللبهق والكلف طلاء.

فـــلي بـــين هاتيـــك المعاهِـــد جُؤذرٌ
حِمَى القلب يرعى لا الكثيب ولا والسَّقطا[1]

أرودُ بعيـني ورد خَدّيه والذي جنى لحظُه وردَ الخدود فما أخْطا
وأرشُف بالألحـاظِ خمرةَ ريقـه فإني فتًى آليت لا ذقتُ إسفَنطا[2]
توهم ذاك الصدغ نونـاً بخـده فراح بمسك الخال ينْقطه نقطا
وحَسَّنه لام العذار كأنه ببـاع ابن بُستانٍ أجدّ به خطّا
فتًى حكمه حكم الفتاةِ بنظرة كما أنـه في علمـه|صاحبُ الأنْطا
أمات رياحَ الجهل وهي عواصفٌ وأحيىرباعالفضلبالبذلوالإعطا
إمـام هُدًى يدعو إلى الله أمةً من الناس لولا رأيه خَلَطَتْ خَلْطا
هو العروة الوثقـى لنـا ويمينـه هيالركنفيهانشهدالقبضوالبسطا
لـــه رتـــبٌ في الفضـــل تسقـــط دونهـــا
الأمـــانيُّ حَصْرى تشتكي الأين والسُّخطـــا
أفـاد المعالي واستفادتْ به النهى طرائِقُ آدابٍ لها سَنَّ واختطَّا
فلا مجدَ للأقوام إلاّ بمجده ومن لم يسلِّمْ عن رضًى فليمُتْ سُخطا
ولما تمنـتْ مصرُ موطـىءَ نعله ومدّتْ له فسطاطَها عَلَّ أن يُوطَا
ثَنَي نحوهـا عِطْف العِنان فَجاءَهُ مَجِيءَ ابنِ عِمرانٍ ولم يَخَفِ القِبْطا
رأى هَرَمَاهَـا فضلَـه فتقاعسا وكادا له من بعد رامة[3] ينحطّا
فوافى حماها يوسفاً وغدتْ به معالمها لا تشتكي الجَدْب والقَحْطا

(۱) السقط مثلثة السين: حيث انقطاع الرمل ورقته.
(۲) الإسفنط بالكسر وتفتح الفاء: المطيب من عصير العنب أو أعلى الخمر سميت بذلك لأن الدنان تسفطتها: أي تشربت أكثرها، أو من السفيط للطيب للنفس.
(۳) رامة: هضبة أو جبل لبني دارم.

وأصبحت الأرجاءُ منها نواضراً كأنّ رياض الحَزن أهدت لها رَبْطَا[1]
وأجلى بنور العدل ظلمةَ ظُلمها وجلّى غمام الجور عنها وقد غَطّا
عجبتُ ليمناه وفيها يراعةٌ ولم يلقها كيف انحنتْ حيةً رقْطا
وأعجب من ذا أنّها بيمينه غدتْ لأفاعي الظُّلم تلهمها سَرْطا[2]
فطُوبى لمصرٍ ثم طُوبى لأهلها بهَدْي إمامٍ قد ملا قطرها قِسْطا
إذا غاض ماء النيل يوماً أفاض من يديه بحارَ الجُود ينبطها نَبْطا
وإذا نبعِ العشر اثنتين جَرَتْ بها عيونٌ تُسَقِّي كلَّ واحدة سِبْطا[3]
أقام وكان العدلُ شرطَ إقامةٍ بها فانثنى عنها وقد أكمل الشرطا
وفارق مَغناها الخصيبَ فأصبحتْ معالُمها من بُعده تُكثر النَحْطا[4]
وسار مسير البدر يَطْوي منازلاً إلى الرُّوم حتى حَلّ في أهلها عَمْطا[5]
ثَوى فيهمُ كالشمس يُعطي ضياءه وليس كمثل البدر يأخذ ما أعطى
ترفَّع عن عالي الصَّدارة قدرُه ومن قبلُ قد نيطتْ بأذياله نَوْطا
وراد جَمَامَ الطبع من كدِّ منصبٍ فظنَّ جَهُولٌ أن ذلك عن أرطا[6]
فيا أيها المولى الذي كُلُّ منصِبٍ غدا وهو عَالٍ دون قدرك مُنْحَطّا

---

(١) الربط: الملاءة كلها نسج واحد وقطعة واحدة.

(٢) السرط: البلع في سهولة ويسر.

(٣) المعشر اثنتين: يقصد بها الاثنتي عشرة عيناً التي وردت في قصة موسى عليه السلام في قوله تعالى: «وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا»، والسبط من اليهود كالقبيلة من العرب.

(٤) النحط: الزفر من الغيظ، أو تردد صوت البكاء في الصدر.

(٥) عمط: أي جاء سابقاً بعدما سبق أولاً.

(٦) جمام الطبع: راحته، والأرطى: العقم.

إليـك أتـتْ طائيـةٌ في نسيبها قوافٍ تفوق السحر لا تعرف الايطا[1]

لو اجتزْن بالطـائيِّ قِدْماً قضى لها بسبقٍ وقال الطاءُ من بعدُ لا تُوطَا

عجبـتُ لها بالروم ما برحَتْ وقد أقام لِيَ البـكريُّ في وزنها قِسْطا

وشام بنور الكشف من مصر بَرْقَهـا فحدَّثَ عنها مُنشداً من قوافِي الطَّا

سقى قبره الروض الأريضَ سحائـبٌ تـدلُّ عـلى أرجاء ساحتها سَقْطا

فدونكهـا يـا عـالِم العَصر غـادةً
نشتْ بـين روض الشام في وارث الألطا[2]

هي المركب الصعب المرام وإن غدت ذلولاً ولكن لا تكل من استمطى

نـثرتُ عليهـا من مديحك لُؤلؤاً فأهوتْ دراري الأفق تلقطُها لَقْطا

وناطـت على الجوزاء منه مناطِقا وصاغـتْ لآذان الثريّا به قُرطا

تمتع بها عذراء تسطُو بمقلةٍ لها إن رَنَتْ فعل الصوارم بل أَسْطى

ودُم لبـني الآداب رُكن هِدايةٍ إذا ما عدا الدهرُ الخئونُ أو اشْتَطا

مـدى الدهر ما اشتاقَ الغريبُ إلى الحِمى
وحَنَّ عـلى بُعـد المزار وان شَطّـا

★ ★ ★

(١) الإيطاء في الشعر: تكرار القافية لفظاً ومعنى، وهو عيب في الشعر إلا أن تتكرز الكلمة بعد أربعة أبيات على الأقل.

(٢) وارث الألطا: أي الطري من المسك.

يطلب منصب الدرس من ابن بستان

ومما كتبت به أيضاً إلى جناب الدوحة البستانية، والشجرة الطيبة الزكية العلامية، وقد ولي قضاء العساكر الروم ايلية، راجياً منصب الدرس من كرمه الجسيم، ولطفه الشامل العميم، وذلك في غرّة شهر رمضان المعظم سنة ٩٩٤:

ذكر العقيقَ فسالَ من أجْفانِه — واشتفَّهُ وجْدٌ إلى سُكانِه

واشْتمَّ في ريح الصبا أرجَ الصِّبا — فصبا حَليفَ جوًى إلى أوطانه

وشَجَاه مسجورُ الفؤاد إلى الحِمى — وُرْقٌ سواجعُ هِجْن من أشجانه

تروى عن الورقِ الغرامَ وطال ما — درستْ فنونَ العِشق في أفنانه

فيهنّ سالمـة الحشا من لوعـةٍ — لم تـدر طَعم الوصل من هِجْرانهِ

تمسي وتُصبح في ارائك أيكةٍ — مـعْ إلفهـا والعمرُ في ريعانـهِ

ترتـادُ روض الشام أخصب منزلٍ — حيثُ العَرارُ صغى إلى حَوْذَانه[١]

حيثُ المعالم مشرقاتٌ بالدمى — والغانيـاتُ يطُفْن حول مغانـه

في ظل منبجس اللُّجْين جرى به — ذهبُ الأصيل يسيلُ من قيعانه

ألمى الظلال كأن سمرتُه لَمًى — عـذب المراشف ندَّ عن غُزلانِهِ

بينـا تراود فيه من عذب إلى — عـذب يفوق على العُذَيْبِ وبانهِ

في صفو عيش إذ رمتها نيـة — للرُّوم فاختُهـا بسود رعانـهِ[٢]

(١) العرار: زهر طيب الريح ينبت أيام الربيع، والحوذان نبات عشي من ذوات الفلقتين، منه أنواع تزرع لزهرها وأخرى تنبت برية.

(٢) النية: الحاجة، والفاختة: ضرب من الحمام المطوق إذا مشى توسع في مشيه وباعد بين جناحيه وتمايل، والرعان: جمع رعن وهو أنف يتقدم الجبل، أو الجبل الطويل.

هبطتْ بها الأقدار أرضاً لم يكن ... فيها نزول الوحي من فرقانهِ

سوداءُ مظلمةُ الفضاء كأنها ... قلبُ الحسود عليه ظلمةُ رانهِ

فغدت تنوحُ على الديار بدمعٍ ... سَحٍّ يُباري الغيث في تَهْتانِهِ

ماسَوْرةُ القلبِ المُعنّى من جوًى ... مسجورة الأحشاء من نيرانهِ

تبكي إذا ذُكر الحمى حيثُ الحمى ... روضٌ تفرَّد في ذُرى أغصانهِ

تنفكّ تنثُرُ لؤلؤاً من مدمعٍ ... كالدرِّ يُنظمُ في سُموط جُمانهِ

حتى ترى روضَ الحِمى أو تَجْتلي ... روضَ ابنِ بستانٍ إمامِ زمانهِ

قاضي العساكرِ من تبوأ منزلا ... تُمسي النجومُ الزهْرُ من أخدانهِ

المعتلي شرفَ العُلا ببيانه ... المُجْتلي سِرَّ القَضَا بِعِيانهِ

ذُو غايةٍ في المجد رام بلوغَها الْـ ... ـفَلَكُ المحيطُ فجدَّ في دورانه

سبقتْهُ فاستعدى علينا طاوياً ... لصحائف الأعمال في سُرْعانهِ

لله مولًى هامُ هِمَّته سَمَا ... هام السِّماك فحلَّ فوق مكانهِ

مولًى تردَّى الفَضْلَ أبهى حُلَّة ... توشيعُها المعروفُ من إحسانهِ

ظِلُّ المحيَّا لو يقابلُ نُورَه ... بدرُ الدجى لحماه عن نُقصانهِ

وإذا دَجَى ليلُ الخُطوبِ فرأيُه ... فيها كضوءِ الشمس في لَمَعانهِ

ماضي العزائم خير مولى أمّه ... رَكْبٌ يجوب البيد في رَمَلانِه(١)

في ثَنْيِ بُرديه إمامُ تقًى وفي ... حِقْويه رَضْوى بانَ بعد إبانهِ

هو من علمتَ فدع سواه ومن يُرِد ... بحرَ المكارم صَدَّ عن غُدْرانهِ

بحرٌ لنا من راحتيه جداولٌ ... طفحتْ فسالت من مَسِيل بَنَانِهِ

متبسّمٌ يوم الندى لعُفاته ... كالروض ضاحَكَهُ ندى هَتّانِهِ

---

(١) الرملان: الهرولة.

ما رَدَّ يوماً سائِلاً ولـه سَطَـى ... بـاس تردُّ الدهر عن حَدَثانـهِ
راوي حديـث العلم عن نُعمانه ... حـاوي فنون الفضل من بستانهِ
العالم الطهر الـذي ظهرتْ له ... كشفاً شؤون الحقِّ في أعيانـهِ
وجـلا صدا الألوان عن مرآته ... ورأى وُجُودَ الحقِّ في سَرَيانـهِ
فأتـى على عين اليَقينِ وقد مَضَى ... والقومُ فيهمْ غَفْلـة عن شَانِـهِ
صَبّ الإلهُ سَحَابَ رحمته على ... ذاكَ الضَّرِيحَ وحاضِري جِيرانه
حتى يعودَ ثراه أنضَر روضةٍ ... فيهـا جميُ النبـت من رَيْحانـهِ
وغـدت تحايـا الرب كل عشية ... تُهْدى إليـه على يدي رضوانهِ
فبحقـه ربـا عليـك ووالـدا ... وبحـق ما ترعاه من رضوانهِ[1]
ألاّ نظرتَ لعبـد بابـك راحما ... فالدهرُ جارَ عليـه في عُداونهِ
عطفاً عليـه بمنصب يسمو به ... بـين الأنـام ومزه عن أقرانـهِ
فلقـد شجـاه جاهـل في درسه ... يرقى وربُّ الفضـل في حرمانهِ
حاشا لما حَرَسْته كفُّ نداك أن ... يَـذْوي وفيضُ نداك في جَرَيانهِ
ولمثـل فيضك[2] أن يؤخر ساعة ... عنـه وهذا الوقتُ وقت أوانهِ
واستجلهـا عربيَّـةَ أوطانُهـا ... شِعْب الغوير[3] وملتقى كثبانهِ
قلدتـهـا دُرَّ المدائِـح لؤلؤاً ... رَطْبـا يكـاد يفوقُ دَرَّعُمَانـهِ
وكسوتَهـا وشيَ الثنـاء محبَّرا ... بُرداً يفوحُ المسك من أردانـهِ
وابسط لهـا كفّ الرَّجا وأقم لها ... بالروم وزنـاً تَغْلُ في ميزانـهِ

(١) البيت ساقط في ب.
(٢) في ب: فضلك.
(٣) الغوير: ماء لبني كلب بأرض السماوة بين العراق والشام. معجم البلدان ٨٢٧.

فالشعر عنـد القوم حاشا سيّدي   لا فرقَ بـين هجينه وهِجَانه[١]
واسلم ودُمْ في نعمـــةٍ محسودةٍ   طولَ المدى والعيشُ في ريّانـهِ
وبَنُوكَ أقمارُ الفضائـل ما سرى   برقٌ فهـاج الصَّـب في لمعانـهِ

* * *

البائية التي نظمها في تقريظ العلموي وفي مناقب السلطنة المرادخانية

ومما نظمته وأنا بالديار الشامية، دمشق المحمية عام ٩٩٧ تقريظاً لنظم الأديب الفاضل جمال الدين يوسف العلموي[٢]، وهي البائية[٣] التي نظمتها في مناقب السلطنة المرادخانية، لا زالت مؤيدة بالقدرة الصمدانية:

صيَّرت بـدرَ النظم بعدك غَارِبا   لما امتطيت من البلاغة غَارِبا[٤]
وعلوتَ صهوتَـهُ بثاقِـبِ فكرةٍ   نظمْت لك الزُّهر النُّجومَ كواكِبَا
من كـل ساحرةِ اللحاظِ إذا رَنَتْ   سَلَّـتْ عليك من الجُفُون قَواضِبَا

---

(١) الهجين: اللبن ليس بصريح ولا لبأ واللبأ هو أول اللبن عند الولادة قبل أن يرق، ولا يكون محبوباً وقت ذاك، والهجين أيضاً: اللئيم.
أما الهجان من الأشياء فهي أجودها وأكرمها أصلاً.
(٢) سبقت ترجمته.
(٣) في ب: الثانية.
(٤) الغارب: السنام.

من ريم وَجْره أو شوارد رامةٍ ألفتْ حِماك رَبَارِباً وربائِبا[1]

غيدٌ توشَّحت المعاني حُلَّةً وتسربلت وَشْي الربيع سبائِبا[2]

وسمت إلى الجوزاء فاستلبت حلى ذاك النظام وقلدته ترائبا

ومشت فأزرت بالقضيب رشاقة والظبي لحظاً والغزالة حاجبا

يا حسنَها عربيةً لو ساجلتْ سَحْبانَ راح لذيلِ عِيٍّ ساحبا

أو طارحتْ قُسَّ الفصاحة لفظها ما قام يوماً في عُكاظِ خاطبا

أو شام بارقَ ثغرها غيلانُ لم يربعْ على أطلال مَيَّةَ نادبا[3]

فيها رقيقُ اللفظ والمعنى معاً كالراح بالماء القراح تناسُبا

إن فاخرتْ يوماً بحُسن نظامِها شُهْبَ النجوم طوالِعاً وغَواربا

فيما حوتْه من الفخار بمدح من بهرَ الملوك مَقَانِباً ومَنَاقِبا[4]

ظلُّ الإلهِ مرادُ من خضعتْ له هامُ الملوك مشارقاً ومغاربا

ملكٌ سِنان قناتِه وبنانه يتباريان دماً وعُرفا سَاكبا

ذو سَطْوة في الخافقين وعَزمةٍ منها زعيم الفُرس ولّى هارباً

---

(١) وجرة بلدة على جادة البصرة إلى مكة منها بحرم أكثر الحاج، وهي سرة نجد: ستون ميلاً لا تخلو من شجر ومرعى ومياه، والوحش فيها كثير. معجم البلدان ٦٠٦/٤.

ورامة: منزل بينه وبين الرمادة ليلة في طريق البصْرة إلى مكة ومنه إلى إمرة، وهي آخر بلاد بني تميم وبين رامة والبصرة اثنتا عشرة مرحلة. معجم البلدان ٧٣٨/٢.

والربارب جمع ربرب وهو القطيع من الظباء ومن البقر الوحشي والإنسي، والربائب جمع ربيبة وهو ما يتولى الإنسان تعهده وتغذيته بما ينميه ويؤدبه.

(٢) في ب: توحشت بدل توشحت، والسبائب جمع سب وهو الثوب الرقيق.

(٣) هو غيلان بن عقبة الشاعر الأموي المعروف بذي الرمة، والذي كان يحب مية ويشبب بها في شعره، وقد طبع ديوانه مراراً.

(٤) المقانب جمع مقنب وهو جماعة من الفرسان والخيل تجتمع للغارة، والمناقب: المفاخر والمآثر.

لا زالتِ الأملاكُ تحرسُ ملكه والسعدُ يُلفَى طالعاً لا غاربا
ما قرّظت حلل القريض يراعةٌ وكسْته ديباجَ البديع عصَائِبا

وأخرى لسعد الدين التبريزي

ومن هذا الباب ما قرضت[1] له على أخرى نونية، بالديار الشامية سنة ٩٩٩ نظمها لحضرة الخواجة سعد الملة والدين وهو:

في شكل أم طلا وأم غوائي ولحاظ جُؤذر رملةٍ وَسْنَانِ
ومعاطف الرشأ الأغن لحسنه ألفتان ألحاظُ الحسان رَوَاني
عطفت عليَّ وفي معاطف أزْرِها ريثُ الأناةِ وخِفةُ النَّشْوانِ
هيفاءُ قامتُها الرشيقةُ ما لها في هَيْفِ أغصان النَّقَا من ثَاني
فطفقتُ أعصر بانةً من قدِّها ونعمتُ من فيها بأصهبَ عاني[2]
تدنو فيرغب طامعٌ في وصلها سَفَهاً وقد حَلَّت رفيع مكانِ
كالشمس في كبد السماء وضوُوها فوق البسيطة للنواظرِ داني
نظمتْ فريداً في فريدٍ فالتقى سَعْدَانِ قد نُظِما بحُسْنِ قِرانِ
مد الإلهُ على الخليقة ظِلَّهُ وأمدَّه بروائع الإحسانِ
وجرتْ له الأقدارُ طوعَ مراده في دولةِ السلطانِ ذي السُّلطان

---

(١) في ب: قرظت.

(٢) الأصهب الكأس من الخمر والعاني نسبة إلى عانة بلدة على الفرات تنسب إليها الخمر العانية.

أعـني مرادَ الله مُظْهِرَ فيضه الـ أسْمى ومصدرَ فعلهِ ذي الشَّأنِ
أبقاه ربُّ العرشِ ناصرَ دينه ما قَرَّظتْ مَدْحاً رُقُوم بَنَانِ

* * *

أبيات في صدر مكاتبة إلى محمد الأمين

ومما كتبت به صدر مكاتبة من الديار الشامية إلى الديار الرومية، لجناب مجمع الفضائل، ومنجع الأفاضل، الأخ الأفضل المكين محمد الأمين، لا برح السعد ناظراً إليه، معولاً في المهات عليه قولي:

إلى حضرةِ الرُّوحِ الأمينِ تحيةٌ معطرةُ الأنفاس طيّبةُ الوردِ
تضاعف منها الشوقُ والوجدُ سالمٌ وما اعتلَّ فيها الودُّ من ذلك العهد
يعطّر قطر الشام والروم قطرها ويخجلُ عَرْفَ المسكِ والبان والرَّنْدِ
وتحملُ من عُليا دمشقَ رسالةً تَضُوع بأرض الرُّوم كالعنبر الوردِ
وتشرحُ من حالي لعالي جَنَابه ليعلم حَقّاً ما أُلاقي من الوجْدِ
وتخبره أني على القُرب والنَّوى على كل حالٍ واقفٌ موقفَ العبدِ
وكثرة أشواقٍ إذا رُمت حَصْرها أرى بعضَها يربُو على الحَدِّ والعَدِّ
فوالله والمجدِ الذي لا يُغيِّرُه تفاخُرُ أهلِ العَصْرِ في القُرب والبُعدِ
لشم ثرى تلك الديار وطيبها أحبُّ إلى المشتاقِ من جنةِ الخُلْدِ
سقاها وحَيَّاها الإلهُ معاهداً تدورُ بأفلاك السَّعادةِ والسَّعدِ
ولا زالتِ الأقدارُ طوعَ مراده سَحابَ دُنُوِّ العهدِ مُوصلة العَهْدِ

* * *

قصيدة ينظمها عن رؤيا رآها وهو في طريقه إلى مصر

ومن اللطائف الإلهية والإشارات الربانية، ما اتفق لي نظمه غِبَّ رؤيا عجيبة، وواقعة غريبة، رأيتها بالبيت المقدس، والحرم الأقدس، وقت اجتيازي إلى الديار المصرية، والقاهرية المعزية، للأخذ عن علمائها والتلقّي من فضلائها وذلك عام ثمان وتسعين وتسعمائة:

إلى المسجـــدِ الأقصى من الحرم القُدْسِي
سَرَيْنــا فوافَ الفتــحُ من حضرة القُــدسِ

وجئنا حمى التقديس والليل راقدٌ وقــد جُنَّ حتى لا يفيقُ من المسِّ

طلائـــعُ أنضــاءٍ عـــلى مثلهـــا لهـــا
عـلى الأين إرْقـالُ الظلـيمِ عـلى الحَرْسِ[1]

تبـــاري نَعَـــامَ الجو طوراً وتـــارةً
تُجـاري نعـام الـدَّوِ في المهـمة الوَعْسِ[2]

إلى أن بدت للعين أعلامُ ذي طُوَى وبان حِمى البيت المقدَّسِ عن رِجْسِ

نزلنـا من الوادي المقدس شاطئاً عـلى بقعةٍ فيه مباركةَ الرَّمْسِ

فـلاح لنا من جانب الطُّورِ لامعاً سَنَا ضوءِ نار قد جَلَتْ ظُلمة اللَّبسِ

ومـا تلك نارٌ بل سَنَا ربةِ السَّنا تَجَلَّى لقلبٍ قد تَخَلَّى عن الحَدْسِ

أضـاء سناهـا طُورَ سيناءَ مرةً وآنسَهـا من قبلُ موسى بلا حِسٍّ

سمعنـا بطُورِ القَلْبِ منها نداء مَنْ تنزَّه عن فَصلٍ يدانيه أو جنسِ

---

(١) الإرقال: السرعة، والظليم ذكر النعام والحرس الارض ذات الحجارة.
(٢) نعام الجو: السحب، والوعس: الأرض ذات للرمل الذي تغيب فيه الأرجل.

ونـادى مُـنـادي القُرب من حضرة الرِّضا
ألا فانعموا فالفتـــحُ فوق جَنَـــى الغَرْسِ
فطُوبـــى لنـــا من حَاضِري أيمَنِ الحِمَـــى
وطُوبـى لنـا من حَاضِري حضرة القُـدْسِ

★ ★ ★

ومما كتبت به صدر مكاتبة من غزَّةِ هاشم[1]، سقتها غر الغمائِم، للعالم الرباني، والقطب الصمداني، سراج الملة والدين، علّامة الديار القُدسية زين الدين، عمر بن أبي اللطف لا زال مَشْربهُ من العلوم والمعارف صافياً، ولباسُ العوارف عليه ضَافيا، في التاريخ المذكور وقد تشرفت به مدّة إقامتي:

سَقَى مَعْهداً من إيلياءَ[2] هَتُونُ ... فَلِي بين هاتيك الرُّبوعِ شُجونُ
ولا زال خَفّـاقُ النسيم بربعه ... يُطيـفُ فـإن القلب فيه رهينُ
منـازلُ أحبابٍ إذا عنَّ ذكرهُمْ ... سقتْهم عـلى بعد الديار شُئُونُ[3]
أقاموا وسِرْنـــا والفؤادُ لديهمُ ... مقـيمٌ وهل يَرعى الودادَ خدينُ
أيا ساكني البيتِ المقدّس هل ترى ... يجودُ بـــكم دهرٌ عـليَّ ضَنِـينُ
سقـى الله هاتيك الديارَ وأهلَها ... سحـابُ دنوِّ العَهْـد وهو هَتُونُ

---

(١) غزة: هي المدينة المعروفة التي تقع بأقصى بلاد الشام من ناحية مصر، وهي من أرض فلسطين، وسميت بغزة هاشم لأن هاشماً بن عبد مناف جد رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي بها وبها قبره، معجم البلدان ٣/٧٩٩.
(٢) ايلياء: اسم لمدينة بيت المقدس، قيل معناه بيت الله.
(٣) شئون: المقصود بها شئون العين، وهي مجاريها الدمعية.

وخصّ جناباً فيه ركنُ هدايةٍ		له الفضلُ خِدْنٌ والوفاءُ قرينُ
سراجُ المعاني عمدةُ القوم والذي		لديه جميعُ المشكلات تَهونُ
عليكم سلامُ الله ما حنَّ عاشقٌ		تَضَاعَفُ منه أنةٌ وحنينُ
فوالله ما فارقتكم قالِياً لكم		ولكنَّ ما يقضى فسوف يكونُ

انتهى الجزء الأول

ويليه الجزء الثاني